


THE.WHAT?
ذوات

# الكتابة والاغتراب
# هويات متصدّعة

مجلة ثقافية إلكترونية
العدد ٥٢ – ٢٠١٩




مجلة ثقافية إلكترونية شهرية

تصدر عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»

**العدد ٥٢ - ٢٠١٩**

**المشرف العام**

محمد العاني

**رئيسة التحرير**

سعيدة شريف

**تدقيق لغوي**

د. عبد السلام شرماط

**تصميم وتنفيذ**

رنا علاونة

**المراسلات:**

تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، عمارة (ب) الطابق الرابع / أكدال – الرباط

ص.ب: ١٠٥٦٩

تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤

فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧

رئيسة تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:

thewhat@mominoun.com

www.mominoun.com





# كلمة هذا العدد

يشكل موضوع «الاغتراب» أو «المنفى» أحد أهم مؤرقات الإنسان وقضاياه المقلقة في العصر الحديث، لأنه على الرغم من تحول العالم إلى قرية صغيرة بفضل مكتسبات التكنولوجيا المتطورة، فإن الفرد فيه ما زال يجد صعوبات في التنقل الحر في الجغرافيات الممكنة، خاصة مع تفاقم الهوة بين الشمال والجنوب، وسيادة الفكر المتطرف، وانتشار الحروب والصراعات الطائفية التي أدت بالإنسان إلى الهجرة واللجوء إلى أوطان أخرى، بحثا عن الأمان والسلم والعيش الكريم، وهو ما أدى أيضا إلى تنامي الإحساس المفرط بالعبثية في ظل هيمنة المادية الفاحشة، وانتصاب مشكل الهوية بوعي مفارق.

إذا كان اغتراب الإنسان العادي وهجرته خارج وطنه الأصلي شيء صعب ولا يمكن تحمله، فإن اغتراب المبدع عموما، وخاصة الكاتب، لا يشبه اغتراب أو هجرة أي شخص عادي لا علاقة له بالإبداع، لأن هذا الاغتراب يكون مضاعفا، فالكتابات المتولدة في بلد الغربة غالبا ما يغذيها الحنين إلى الوطن، والبحث عن الهوية من جديد، خاصة وأن صاحب تلك الكتابات غالبا ما يظل فكره معلقا بين ذاكرة حبلى بمشاهد من تربة الوطن الأصلي، المنغمسة في الكيان والوجدان، وبين جسد مرهون بتضاريس أخرى، ولغة وطبيعة وثقافة مختلفة.

وبالنظر إلى العديد من النصوص العربية والعالمية، التي كتبها مبدعون اغتربوا عن بلادهم، واتخذوا بلدانا أخرى أوطانا بديلة لهم، مثل التشيكي ميلان كونديرا، واللبناني أمين معلوف، والكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز في جزء من حياته، حين عاش مراسلا صحفيا في أوروبا، والسوداني الطيب صالح، والسوري حنا مينة، والسعودي عبد الرحمن منيف، والليبي إبراهيم الكوني، نجد أنها إبداعات زخرت بمأثورات من الكتابات المغتربة التي تعتمد على الذاكرة والحنين، والتي لا تقل عنها أهمية، كتابات المغتربين من الكتاب السوريين، واليمنيين، والعراقيين...إلخ، الذين اضطروا في السنوات الأخيرة إلى الاغتراب قصرا أو طوعا، فجاءت نصوصهم حبلى بأسئلة الهوية الملتبسة، وبالذات العربية المتصدعة، ومواضيع الأقليات في المجتمعات العربية المسلمة، ووضعية المهاجرين العرب.

«ليس المنفى بقعة غريبة فحسب؛ إنما هو مكان يتعذّر فيه الانتماء»، بهذه العبارة افتتح الناقد العراقي عبد الله إبراهيم الكتاب الجماعي «بيان المنفى» الذي أشرف على تحريره، وساهم فيه عدد من المثقفين والمفكرين والمبدعين العرب أمثال: أدونيس، واسيني الأعرج، إبراهيم الكوني، سيف الرحبي، كمال أبو ديب، فريال غزول، فيصل دراج، أحمد يوسف، نبيل سليمان، فخري صالح، محمد لطفي اليوسفي، وهي العبارة التي تدل على القلق الهوياتي القاهر، الذي طبع هذا النوع من «كتابة المنفى»، والتي تستمد مادتها من الاغتراب والنفور، وتراوح بين هويتين متباينتين، لتعطينا كتابة كاشفة تقوم على فرضية تفكيك الهوية الواحدة مقترحة هوية رمادية مركبة من عناصر كثيرة.

«كتابة المنفى» كتابة عابرة للحدود الثقافية والجغرافية والتاريخية والدينية، كتابة صارخة، مثقلة بالتفاصيل والأسئلة القلقة، كتابة تعبر عن التحدي، والتمرد، والنقد الذاتي،

والموضوعي في آن، كتابة تستثمر عامل الحرية لإدراك العلاقة المعقّدة مع الغرب، وإعادة قراءة كل الملفات والموضوعات التي لم يكن تناولها، أو كشف خباياها- سابقاً- أمرا ممكنا لأصحابها، ولهذا كله، أصبحت هذه النوعية من الكتابات مثار اهتمام علوم عديدة منها: النقد الثقافيّ، الأنثروبولوجيا، السياسة، السوسيولوجيا، التاريخ، والاقتصاد.

أي دور تلعبه الكتابة، على اختلاف تجلياتها، في تجسير الصلة بين وطنين مختلفين؟ وهل يمكن اعتبار الكتابة نشاطا تعويضيا، بمعنى ما، لهذا الحرمان من الوطن؟ وهل ما زال مفهوم «المنفى» مفهوما إجرائيا ملائما في عصر انمحت فيه الحدود بين الجغرافيات، حتى أننا بتنا نتحدث عن الهوية الكوكبية بدل الهوية الوطنية!؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف تصور المنجزات الكتابية في «المنفى» الوطن المستقبل وثقافته!؟ وكيف نفسر الاختلاف على مستوى التمثيلات بين كاتب اختار «منفاه» وكاتب فرض عليه هذا الوضع!؟ وما انعكاس هذا الوضع على جغرافيا الأحاسيس وتصادمها أو اتفاقها في كون يتقزم تدريجيا أمام هيمنة التكنولوجيا المعلوماتية والفكر الاقتصادي العولمي؟

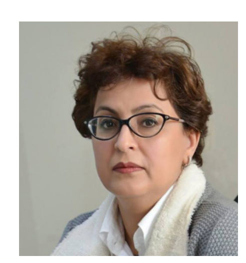
وانطلاقا من هذه الأسئلة المتناسلة، قاربت مجلة «ذوات»، الثقافية العربية الإلكترونية الشهرية، الصادرة عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، موضوع «الكتابة والاغتراب.. هويات متصدعة»، في ملف عددها (٥٢)، من زوايا مختلفة، بغاية الاقتراب منه، وتفكيك بعض إشكالاته الفكرية والأدبية من خلال تحليل نصوص ومنجزات أدبية ذات صلة، فجاء الملف، الذي أعده الكاتب والناقد المغربي إبراهيم الحجري، متضمنا لتقديم عام للباحث نفسه يحمل عنوان: «الرواية المهجرية والهويات العربية المتصدعة»، وثلاث مقاربات: مقاربة فكرية للباحث العراقي، الدكتور ناظم عودة بعنوان: «الكتابة والهجرة: مقدمة أنثروبولوجية»، ومقاربة ثقافية، للباحث المغربي الدكتور عبد الفتاح الفاقيد بعنوان: «الأنا في مرآة الآخر: ثنائية القبول/ والرفض»، ومقاربة سيكولوجية للباحثة المصرية والدكتورة سهير المصادفة، بعنوان: «الكتابة والمنفى: منفية من جنسي... منفية إلى جنة الكتابة»، تستعرض فيها تجربتها النفسية المعقدة إبان إقامتها في روسيا، باعتبارها امرأة كاتبة، نشأت في مجتمع مصري محافظ. أما حوار الملف، فقد اخترنا فيه الاقتراب من عوالم الروائية السورية الكردية مها حسن، التي رافقتها إشكالية المنفى بمعنييها المجازي والحقيقي منذ طفولتها الأولى، حيث رضعت حليب جدة منفية تهرب من مضايق العنصرية، كما عاشت تجربة المهجر منذ عقد وما يزيد، لنكتشف معها أحاسيس الكاتب العربي البعيد عن وطنه، وأرض ذكرياته، وتربة تشكله، ونرصد معها صور تمثلها لتجارب المهجر المعيشة داخل وطنها الثاني «فرنسا»، وأثر هاته التجربة على حياتها، وعلى منجزها الروائي والأدبي عموما.

وبالإضافة إلى الملف، يتضمن العدد (٥٢) من مجلة «ذوات» أبوابا أخرى، منها باب «رأي ذوات»، ويضم ثلاثة مقالات: «المرأة بين التّغريب والاغتراب» للشاعرة السورية فرات إسبر المقيمة بنيوزيلاندة، و«المُرُوءَة بوصفها تواصلاً اجتماعياً.. رؤية بمدارات مختــــلفة..!!» للباحث التربوي المصري أيمن عبد السميع حسن حسين، و«التطرف الديني والتطرف

الفكـري» للباحـث المغـربي نورالديـن عـزار؛ ويشـتمل بـاب «ثقافـة وفنـون» عـلى مقالـين: الأول للأكاديمـي اليمـني محمـد مرشـد محمـد الكميـم بعنـوان «القـارب والمجـذاف: موجهـات المـشروع النقـدي في كتابـات الناقـد المغـربي «أحمـد بـو حسـن»»، والثـاني للشـاعر والناقـد الفـني المغـربي بوجمعـة العـوفي بعنـوان «الإكفراسـيس الشـعرية: مُجَـاورة الشـعر للتشـكيل».

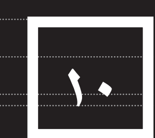
ويقـدم بـاب «حـوار ذوات» حـوارا مـع الكاتـب والمترجـم العـراقي فـلاح رحيـم حـول كتابـه الأحـدث الموسـوم بــ «أزمـة التنويـر العـراقي: دراسـةٌ في الفجـوة بـين المثقفـين والمجتمـع» الصـادر هـذا العـام ٢٠١٨ عـن جامعـة الكوفـة في العـراق. الحـوار مـن إنجـاز الكاتـب والباحـث العـراقي محمّـد فاضـل المشـلب. أمـا «بورتريـه ذوات» لهـذا العـدد، فهـو عـن عالـم الآثـار سـام عثماناجيتـش، مكتشـف أهرامـات البوسـنة ورائـد المراجعـات العلميـة. البورتريـه مـن إنجـاز الصحفيـة والمدونيـة رنـا علاونـة مـن الأردن.

وفي بـاب «سـؤال ذوات»، يسـتقرئ الإعلامـي المغـربي نـزار الفـراوي آراء مجموعـة مـن الناشريـن والكتـاب حـول صناعـة الكتـاب العـربي، إكراهاتهـا، وتحدياتهـا، وأعطـاب السـوق، وفي «بـاب تربيـة وتعليـم» يتنـاول الباحـث والكاتـب المـصري محمـود كيشـانه موضـوع «التعليـم والتفكـير النقـدي»، فيمـا يقـدم الجامعـي والناقـد التونـسي الدكتـور محمّـد الكحلاوي قـراءة في كتـاب «تاريـخ التكفـير في تونـس» لشـكري المبخـوت، وذلـك في بـاب كتـب، والذي يتضمـن أيضـاً تقديمـاً لبعـض الإصـدارات الجديـدة لمؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث»، إضافـة إلى لغـة الأرقـام، التـي تسـلط الضـوء عـلى أحـدث تقريـر لمنظمـة الأغذيـة والزراعـة، التابعـة لمنظمـة الأمـم المتحـدة، حـول الدخـل الفـردي مـن الناتـج المحـلي بالعالـم، والـذي تصدرتـه دولـة قطـر بدخـل وصـل بهـا لــ ٩٨,٨١٤ دولار.



دامت لكم متعة القراءة ...

سعيدة شريف



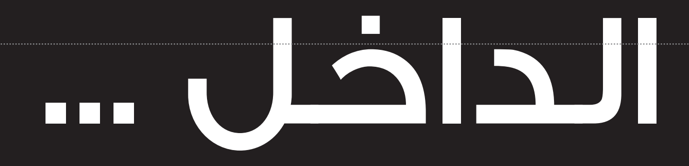



مؤمنون بلا حدود
للدراسات والأبحاث
THE.WHAT?
ذوات
الكتابة والاغتراب
هويات متصدّعة
مجلة ثقافية إلكترونية
العدد ٥٢ - ٢٠١٩

في كل عدد:




في



## رأي ذوات:

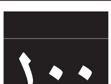


## ثقافة وفنون:



حوار ذوات

## حـوار ذوات:





## بورتريه ذوات:





بورتريه

## سؤال ذوات:



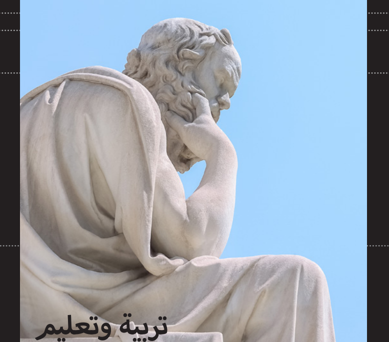




## تربية وتعليم:






تربية وتعليم

# الداخل ...

# الكتابة والاغتراب .. هويات متص

دعة





إعداد:
إبراهيم الحجري
كاتب وباحث من المغرب






# الرّواية المهجريّة والهويات العربية المتصدعة



تعقّدت مسألة الهويّة بعد رحيل المستعمر، واكتشاف الإنسان العربيّ أنّ الاستعمار الحقيقيّ هو الّذي بدأ بعد رحيل المعمّرين، حيث بدأ اشتغال الآلة الثّقافية الجهنّمية في إطار ما يسمّى بـ «الغزو الثقافيّ والفكريّ» المدعوم بالانفجار الإعلاميّ والتكنولوجيّ من خلال المدّ العولميّ الذي تتيحه الشبكة العنكبوتيّة الجاعلة من العالم قرية صغيرة. فباتت المجتمعات الكبرى ذات الهيمنة الاقتصاديّة تبتلع المجتمعات الصّغرى، لتصير مجرّد مقاطعات صغيرة ضمن جغرافيّتها التي تتّسع بالتّدريج.

وإذا كانت الذات الإنسانيّة تعيش في عالم غامض مشظى، وبلا معنى ومناخ تلفّه الحيرة والشكّ؛ فمن الطبيعيّ أنّ تفقد هذه الذات توازنها ووحدتها وتماسكها؛ فالذّات الواحدة لم تعد ذاتا، بل تحوّلت إلى ذوات، وهذا يعني أنّها أصبحت هامشيّة أو بتعبير آخر لم يبق منها إلّا الظلّ.[١]

لذلك، طفتْ على السّطح الموضوعاتُ الملتبسة للهويّة؛ باعتبارها أحد المحاور القويّة الحضور في المتن الرّوائي العربيّ الجديد، خاصّة بعد الأحداث المُوجعة التي أدّت إلى انمحاء خصوصيّات الفرد العربيّ المسلم الّذي له ماض حضاريّ عريق، وله قيم إنسانية متوارثة منذ قرون عديدة، وله عادات وتقاليد تشتغل وفق نسق ثقافيّ عتيد يصعب التّنصل منه.

بدأت الرواية العربية الجديدة تطرح بإلحاح مسألة الأقليات داخل المجتمع العربي الإسلامي، بوعي حادّ وشقيّ



وبناء على ذلك، بدأت الرواية العربية الجديدة تطرح بإلحاح مسألة الأقليات داخل المجتمع العربي الإسلامي، بوعي حادّ وشقيّ، خاصة ما يتعلق بالأقليات العرقية واللغوية التي باتت الموضوعات الأثيرة لدى روائيين ينتمون إلى هاته الأقليات، معتبرين الكتابة الروائية واجهة نضالية قد تعيد الاعتبار لإرثهم الحضاري وخصوصياتهم الفكرية التي ذابت ضمن النسق الكلي للثقافة العربية الإسلامية.

وارتباطا بمسألة الهويّة دائما، تعالج بعض الرّوايات وضعيّة المهاجرين العرب، المقيمين، لأسباب اضطراريّة متعدّدة، في بلدان أجنبيّة، فتفصل في تصوير الذات الفرديّة، وهي تناضل كيْ تحافظ على قيمها الثقافية الأصيلة من جهة، وكي تندمج من جهة أخرى، في القيم الجديدة التي يتميّز بها البلد المستقبل، وبين هذا وذاك، تبرز الرّواية توتّر النّسق الثقافيّ للمهاجرين، ومعاناتهم، وهم يسعون إلى تكييف هذا النّسق مع نسق بديل مختلف.

### ١. العربي الموزع بين طفولة ماضية ووعي مفارق

تأتي رواية «عواطف وزوارها»[٢] لتعزّز رصيد الرّوائي التونسي الحبيب السّالمي، ومشروعه السّردي العميق الذي يسلّط الضوء على قضايا متميّزة واستثنائية من الهويّة العربيّة، بلغة سرديّة قريبة من المتلقي، وبحبكات متتاليّة، تجعل الإثارة مفتوحة، طيلة فصول المحكيّ الرّوائيّ، دون أنْ تفرّط في التلقائيّة التي تشدّ نسيج الموضوعات السّردية، والمغزى الذي تتشيّد على أساسه العوالم الروائيّة، حيث يظلّ الرّوائيّ، كما في متونه الأخرى، مهووسا بصورة المثقّف العربيّ الذي يعيش في بلاد الغربة، وهويّته الموزعة بين ذاكرة المكان الأصل الموشومة في طفولة بائسة، وماض مهلوس، وحياة يومية تسير على مقاس ما يمليه منطق العبث التي تتشبّع به الذات، وهي تداري خيباتها المتلاحقة في

١- الماضي (شكري عزيز): أنماط الرّواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، ع ٣٥٥، سبتمبر ٢٠٠٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ص. ١٢٤
٢- السالمي (الحبيب): عواطف وزوارها، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠١٣



تبرز الرّواية العربية توتّر النّسق الثقافيّ للمهاجرين، ومعاناتهم، وهم يسعون إلى تكييف هذا النّسق مع نسق بديل مختلف



الحب، والعمل، والعثور على الجوانب الضائعة من الجسد والذات. يكتب السالمي، بناء على ذلك، من منطقة الارتياب والتساؤل والبحث عن الحقيقة المحفوفة بالالتباس والتعدّد. ومن ثمّ تكون الكتابة المبدعة وسيلة للتعرف على كينونته المحاصرة بعلائق للاستلاب وسطوة البضائع وضوضاء التواصل.[٣]

تتشكّل هاته الرواية من خمسة وثلاثين فصلا، كلّ فصل مستقل بعنوانه، لكنّه مرتبط بما دونه من فصول عبر نسيج سرديّ متواصل، وغير مهادن، حيث تتوالد الأحداث والشّخصيّات، خالقة بذلك، حركيّة النّص، واتّساعه، وانفتاحه.

**١.١. لفيف من الشّخصيات العربية المهزومة:**

تتأسّس عوالم الرّواية على شخصيّات متنوعة المراجع والهويّات، حيث تشكل كل شخصية من الشخصيات المتفاعلة فيما بينها، كيانا خاصا بها، ولغة مستمدة من خصوصية الانتماء القطري، وذاكرة تتشبث بها مثل العلق. فالشخصية- السّارد الذي يدعى المنصف، أستاذ تونسي، غادر بلده، ليستقر في باريس، ويتزوج امرأة فرنسية تسمى بياتريس، رُزق منها ببنت تدعى سونيا. وعواطف المصرية، طليقة رجل جزائري يدعى بوعلام، ما لبث يطاردها، ويحاصرها تحت ذريعة حماية ابنته. ورياض المثقف الفلسطيني الأنيق، المتحرّر، الذي لا يشغل باله بالقضية الفلسطينية ولا بالبطولات الوهمية، بل الأكثر من ذلك فهو مثليٌّ. مريم عشيقة السارد المنصف السابقة، والتي لم يعد يربطها به غير صداقة وطيدة، المرأة التونسيّة المطلّقة التي تقبل على الحياة بنهم وتحرّر، صادمة بجرأتها، وتفاعلها مع المواضيع السريّة الساخنة، تبدي كراهية شديدة للعرب، وتعشق الغرب. بياتريس، زوجة المنصف، الفرنسية المحافظة، تمنح حرية لزوجها كي يعيش ليله في حضن عشيقته عواطف، خارج قفص الزواج، مما يجعل طبقة الجليد تكبر بينهما، إدريس الفنان التشكيلي المغربي الذي يبيع لوحاته ليصرفها في ليالي ماجنة مع أصدقائه، المنصف، رياض، مريم، وعواطف، تارة في مقاهي وبارات باريس، وتارة أخرى في شقة عواطف أو شقة رياض، وهو رجل لوطيّ يدخل في علاقة ملتبسة مع رياض. يقول السارد مشخّصا صدمة انكشاف طبيعة هاته العلاقة: «كان للخبر وقع الصّاعقة على مريم.

ماذا؟... فلسطيني مخنث!غاي! موش معقول!

صاحت باندهاش، لما هاتفتها في صباح اليوم التالي، لأخبرها بما شاهدته بالصّدفة في حمام شقة عواطف».[٤]

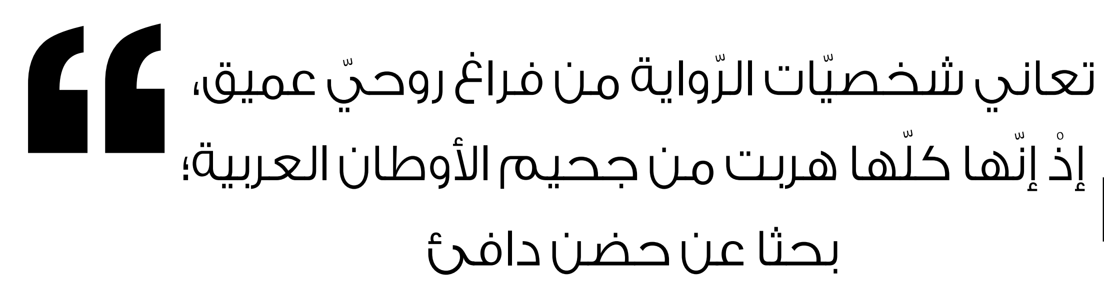
إن هؤلاء الأشخاص، يتحركون في الرواية، وهم مثقلون بهوياتهم المرجعية، وبماضيهم الجريح الذي يمنع عنهم شمس باريس، فيعيشون حياة معقّدة، موزّعة بين الانغماس في الحاضر وثقافة المكان، والوفاء لروح ثقافة تسكن الأعماق. كما أنّ لغة الانتماء والتّفاضل القطريّ، سرعان ما كانت تحتدم بينهم على هامش نقاشاتهم الليليّة، لتصل، أحيانا، سخونة حادّة، قبل أن تعيدهم الحميميّة والمجون إلى وضعهم الغامض من الاشتباك اللّذويّ... وفي غمرة هذا التّفاعل المُلتبس، الذي يتوزّعه المدّ والجزر، نلفي مفارقة صادمة، إذ لا مشترك يجمع بنهم سوى مغامرة الجسد، وتجريب كافّة المتع الممكنة، وكأنّ الإقبال على الشّهوات الممكنة والمستحيلة، ما هو سوى قناع لتوريّة

---

٣- برادة (محمد): فضاءات روائية، فضاءات روائية، منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص.٩

٤- عواطف وزوارها، مصدر مذكور، ص.١٢٣

الخيبات المتلاحقة، والخسارات المزمنة، والندوب العالقة بأرواحهم الجريحة، يقول الرّاوي؛ مبرزا لحظة الإحساس بالنّقص لدى الشّخصية الرّئيسة، وهو في ديار الغربة: «لقد سبق أن أوقفتني الشّرطة للتثبت من هويّتي، خصوصا في الأعوام الأولى من إقامتي في فرنسا. لكن كانت تلك المرة الأولى التي أسأل فيها عن المخدّرات والسّلاح الأبيض. لم أنفعل. لكنّي أحسست بشيء من الإهانة، كنتُ أتصوّر أنّ هذا النّوع من الأسئلة لا يُطرح إلّا على المجرمين واللّصوص والنّشالين والأوباش، بيد أنني سرعان ما تجاوزت إحساسي هذا. فلا شيء في شكلي أو في بطاقة هويتي يدل على الشّكوك. بقيتُ متسمّرا في مكاني لبضع ثوان أتابع بنظري سيارة الشرطة، وهي تبتعد».[٥]





تعاني شخصيّات الرّواية من فراغ روحيّ عميق، إذْ إنّها كلّها هربت من جحيم الأوطان العربية؛ بحثا عن حضن دافئ

### ١. ٢. خواء عاطفي يهدّم كيان الشخوص:

تعاني شخصيّات هذه الرّواية من فراغ روحيّ عميق، إذْ إنّها كلّها هربت من جحيم الأوطان العربية؛ بحثا عن حضن دافئ، وكلّها تحمل معها جروحا، وندوبا من الطفولة والماضي، وكلّها تعيش خيبات وفشل، سواء في حياتها الاجتماعيّة، حيث أغلبها تعجز عن خلق توازن في الأسرة، والحفاظ على تماسكها، فالسّارد الشخصية، «المنصف»، لا يجد ذاته في بيته وحضن زوجته، فيسقط في شراك المتعة المحرّمة، والخيانات المتكرّرة مع كل من مريم التونسية، وعواطف المصرية، اللتين ستصيران صديقتين بوساطة من المنصف نفسه، ناهيك عمّا سببه له هذا الوضع، من شعور دائم بالخوف وانعدام الثقة، وإحساس بالخطيئة والذنب، يقول السّارد- الشّخصية مصوّرا حالة الانشطار التي يعانيها: «كنت أحيط حياتي الخارجية بكثير من السريّة، أو إنْ شئنا الدّقة، كنتُ أحرص حرصا شديدا على أن أفْصل فصْلا تامّا بين حياتي الفرنسيّة– أي تلك التي أحياها مع بياتريس وأصدقائها وصديقاتها الفرنسيّين- وبين حياتي العربية. لم يحدث أن دعوت أصدقاء عربا إلى البيت، وقدمتهم إلى بياتريس وسونيا»[٦]. والأمر نفسه ينسحب على الشخصيات الأخرى التي تمارس علاقاتها الجسديّة في تحرّر من الاشتراطات الاجتماعية، وكأنها تمارس تمرّدها، وانتقامها من ذواتها، عبر هذا الانخراط في تسيّب عاطفيّ وشهوانيّ لا حدود له، وإن كان السّارد يقع ضحيّة لتأنيب الضّمير، من خلال لحظات التفكير في الموت وما بعدها، والمؤجّجة رمزيّا عبر رسائل الأخت، وتذكّر الفترة العصيبة لرحيل الأمّ.

إن العلاقات الملتبسة بين هاته الشّخصيات، والتي يشكل الجنس محورها، يجعل الكائن الآدميّ مفرغٌ من ماهيته الوجودية، فهي شخصيات، في أغلبها، شاذّة، ومثلية، تمارس عنفا قويّا على الجسد، خاصّة بالنّسبة إلى إدريس ورياض. فالمحكيّ الروائيّ لا يصوّر شخصيّاته إلا في وضعياتها المأزومة، في محاولة للقبض على لحظات هاربة، في اللّيالي السّاهرة، بعيدا عن انشغالاتهم اليومية، دون أن تكشف الوظائف الإيجابية التي ينخرطون فيها بالنهار، وكأنهم كائنات هامشية لا دور لها في الحياة. ويعدّ قلق الانتماء، بالنسبة إليهم، دليلا على عدم الرّضى عن الذات، مثلما يعدّ دليلا على الإحساس بالقهر وخيبة الأمل، لذلك، تحسّ الشّخصيّة الرئيسة بأنّ العيش في الغربة يؤدّي إلى كبت أحد عناصر هوية الشخصية الأكثر صلة بالفطرة والنّقاء، فهي المفاتيح التي تمنح الجمال والخصوصيّة لشخصيتها.[٧]

ويتماشى هذا الإجراء التقني الواعي مع منطق السخرية المريرة التي تغلف عملية السرد، منطق العبث الذي عصف بإرادة الشخوص، فيجعلها تبحث، بدل يومياتها المضيئة، عن برامج تعويضيّة مفارقة لا تليق بهويتهم الأصيلة، ولا بموقعهم، كأفراد لهم كينوناتهم، وماهياتهم، وتاريخهم المشترك الذي لا يبدو، في

٥- المصدر نفسه، ص. ٢٣٩

٦- عواطف وزوارها، مصدر مذكور، ص. ١١٧

٧- ماجدة (حمود): إشكالية الأنا والآخر، منشورات عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص. ٨٩





تتّسم رواية «ليال بلا جدران» لحسن المددي بخصوصيّات متفرّدة، تنزاح بها عمّا سبقها، وتُشرْعن قيمة تناول موضوعة الهجرة من زوايا مختلفة

النص، سوى من خلال الالتحامات الجسدية الملغومة التي تداري حقيقة معاناتهم الباطنيّة، جرّاء ماض أليم. فبوعلام الذي هاجر إلى فرنسا، بعد أن قتل المتطرّفون أخاه، وهدّدوه بالذبح، يظلّ يطارد زوجته، وعشاقها بعد الطلاق، ومريم المرأة المستقلّة التي تتظاهر بالقوّة، تعاني من فوبيا تهديدات ابنها كريم، الذي يطالبها بقطع علاقتها مع عشيقها الفرنسيّ؛ انسجاما مع العقيدة، ناهيك عن كلّ من إدريس الذي يطارد سرابا خفيا وراء الجسد واشتهاءاته الملغزة، واللوحة ومتاهاتها المتعرجة في فضاء باريسيّ ملتوٍ، ورياض المثقف الفاشل، المتحلّل من كلّ مسؤولياته تجاه الوطن والقضيّة، وكأنّه رجل مقطوع من شجرة، لا وصْل له سوى بجسد دون هوية، جسد لا يعرف هل هو أنثى أم ذكر! إنّ وهم هويّة مفردة وانعزالية أكثر إثارة للشّقاق من عالم متّسع من التّصنيفات المتعدّدة والمتنوّعة، التي تسم العالم الذي نعيش فيه بالفعل، والضعف اللذين يكمنان في صورة هوية منفردة لا اختيار فيها؛ هو الإفقار الهائل لقوة وقدرة تفكيرنا الاجتماعي والسياسيّ. إن وهم المصير المُقدّم ينتزع منّا ثمنا باهظا.[٨]

## ٢. العربي، الغربة، وسلطة العودة

تنتمي رواية حسن المددي، الموسومة بـ«ليال بلا جدران»[٩] إلى نوع الرّواية الذي ينحاز إلى متخيّل البادية والهجرة، وما يتعلّق بهما من إشكالات اجتماعية ونفسية. ومع أن هذه الرّواية ليست الأولى التي تعالج هذه الثيمة، مغربيا، إلا أنّ الأسلوب الذي صيغت به حبكات النّص، وطبيعة الشخصيات التي أثثْت المتن السرديّ، وطريقة توصيف العوالم والعلاقات، وما التبس بهما من وقائع وأحداث، فضلا عن الرّؤية المسْتحكمة في علاقة السّارد بالعالم الرّوائي، والمسافة الفاصلة بينه وبين الشّخوص، جعلت «ليال بلا جدران» تتّسم بخصوصيّات متفرّدة، تنزاح بها عمّا سبقها، وتُشرْعن قيمة تناول الموضوعة من زوايا مختلفة، وبأساليب جديدة.

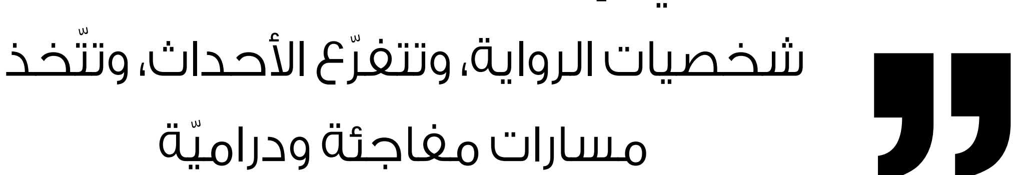
تنبثق أحداث العوالم الرّوائية في هذا النص؛ من قرية بئيسة في الجنوب المغربيّ، تعاني من التهميش والهشاشة، وتعيش على الترقب والانتظار لصيْف قد لا يكون دوما كريما، لتتوسّع، من خلال أفق يفتحه قدوم أحد المعمّرين إلى القرية بغرض تهجير عمّال من المنطقة إلى فرنسا لتشغيلهم في مناجم الفحم، ومصانع السيّارات. ومع تناسل الأحلام، وكِبر المطامح، وتبدّل الأفضيّة، وتنامي الإحساس بالغرْبة والفراغ، تتفرّع الأحداث، وتتّخذ مسارات مفاجئة ودراميّة، متّصلة ومفصلة، لكنّ مثيرة وآسرة.

### ١.٢. حياة بدوية قاسيّة:

تُغرقُ الرواية في توصيف واقع القرية المحبط، وتشخّص نفسيّات الشخصيّات التي تعيش على مضض في فضاء معزول عن كلّ أشكال التّمدن، بعيدا عن كلّ مسوّغات الحياة، خاصّة مع تتالي سنوات عجاف، وتراجع المحاصيل الزّراعيّة الّتي تعيش عليها السّاكنة، وغضب الوادي المخترق لها، الذي يأتي على البلاد والعباد، مخلّفا مأساة اجتماعية يستحيل وصف بشاعتها.

٨- صن (أمارتيا): الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٥٢، يونيو ٢٠٠٨، ص. ٣٢

٩- المددي (حسن): ليال بلا جدران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠١٤



وتزداد مأساة السّكان، مع هيمنة أعوان السّلطة وذوي النّفوذ الذين لا يد تعلو على أيديهم، حيث يتهيّأ لهم، بفعل دعم السّلطة، إلى استغلال النّاس، وتسخيرهم مثل العبيد في أملاكهم التي تتضخّم، يوما بعد يوم، وبسط عنجهيتهم وظلمهم عليهم.

لقد تحالفت الظروف الطبيعية القاسية؛ وتجبّر ممثلو السلطة ضد كرامة الإنسان، فضاقت أمامه أفق الاختيارات؛ فما تبقى له سوى أمرين: انتظار مطر إما يأتي شحيحا أو كارثيّا، أو الهجرة إلى ما وراء البحر؛ بحثا عن حياة أفضل. لكنّ هاته الحياة لم تكن أحسن، كما تخيّل أهل القرية الذين لم يكونوا يرون في المهاجرين إلا الصّورة التي يظهرون فيها بالقرية صيفاً، مزدهين بسيّاراتهم الفارهة، والعملة الصعبة التي راكموها من وراء عملهم الشاقّ في مناجم الفحم، في مغامرة حافلة بالمخاطر، وأحاسيس الغربة، والعذاب، المذلة، والاستلاب والضياع... في أرض تخيّم عليها عواصفُ البرد، ونزعات العنصريّة، وروائح الموت. تقول الرّواية، على لسان الحاج إيدر، مبرزة حقيقة العيش في بلاد المهجر: «المشكل أنّ الشباب المغربيّ الآن، لا يرى المستقبل إلّا في الهجرة إلى أوروبا... إنهم يملؤون فرنسا... يعملون في سرية تامة ويزاولون أعمالا خطيرة وأخرى قذرة حاطّة بكرامة الإنسان، وبأجرة هزيلة... المؤسف أن أغلب هؤلاء يحملون شهادات جامعية».[١٠]

تبدأ الرّواية محكيّها بلحظة اسْتقرار، حيثُ الرّوتين يُخيّم على قرية آيت همّان، وحيثُ يقنع أهلها بما يتصيّدونه من عطايا الأرض والسّماء، دون مطامح ولا أحلام، لكنّ زيارة الأجنبيّ «موغا» قلبت القرية رأسا على عقب، إذ أصبح كلّ الشباب يحلمون بنعيم يتهيّأ لهم من رحلة الشّمال الغامضة التي أغراهم بها هذا الأجنبيّ، فبدأ كثيرون يطرّزون لأنفسهم وذويهم أحلاما قرمزيّة. وهنا تبدأ الحبكة السّردية، حيث تنتقل كاميرا الرّاوي، مقتفية أثر ممّن حالفهم الحظ في ربح رهان العبُور إلى فرنسا، بعد اجتياز مجموعة من الاختبارات الجسديّة والصحيّة، خاصة الشّخصيّتين المدعوّتين؛ مبارك البياض، وإبراهيم الخضار اللّذين كبر أملهما في تحقيق حياة الرّفاه، من خلال تضْخيم رصيدها الماديّ، وتحسين وضعيّتهما الاجتماعيّة، ولو كان ذلك على حساب كرامتهما، وحقوقهما في العيش الكريم، وجاء ذلك على لسان إحدى الشخصيات في النّص (إبراهيم الخضار): «إنني أشعر بالغربة هنا وهناك. إننا نضحك على أنفسنا. لم نعد مغاربة حقيقيين، ولن نكون أبدا ربع فرنسيين. إننا ضائعون وتائهون هنا وهناك. كلما فكرت في وضعي، وأنا بعيد عن أهلي ووطني سنة كاملة، أشعر بكراهية شديدة لنفسي».[١١]

لكنّ جمع الأموال، والعودة إلى البلدة بسيارات ورصيد مادي لم تسعفهما في حلّ كل مشاكلهما. بالعكس، فقد تعقدّت أمورهما أكثر من ذي قبل، وغرقا معا في وحل الأزمات النّفسية والاجتماعيّة، حيث فشل «البيّاض» في بناء بيت زوجية دافئ، يلجأ إليه من وعثاء القهر والهجرة، عقب إصابته بمرض نفسيّ أزّم علاقته مع زوجته الأولى الّتي هربت مع عشيقها الأول المعلم؛ وخيانة الزّوجة الثانية له مع فقيه القرية، لينتهي به المآل إلى مرض عضال يؤدي به إلى موت بشع. أمّا إبراهيم، فلم تكن عاقبته أهون، لولا تدخل ابنه الذي أصبح أستاذا جامعيّا، وانتشله من ضياع محقّق، حيث تخلّى عن زوجته وأسرته، وارتبط بامرأة أخرى اسمها جاكلين، غير أن شجارا مع فرنسيين تحرّشوا بجاكلين، زوجته الفرنسية؛ دفاعا عن الشرف، أدّى به إلى قتل أحدهم خطأ، ممّا أودى به إلى السجن مدة عشرين سنة.

---

١٠- المصدر نفسه، ص. ٢٦٣

١١- المصدر نفسه، ص. ١٢٣





> انتصرت الرواية لقيم الهويّة، حينما أنهت دراما الصّراع بحفل جمع الشمل بالقرية، وعودة المهاجرين إلى أسرهم وذويهم

وإذا كان البرنامج السرديّ لشخصيّة «مبارك البياض» - الرّجل العنيف، الذي دفعته عصبيّته، واعتداده بنفسه، إلى ظلم الكثيرين، ممّا عقّد علاقته بكلّ أصدقائه وذويه، وكلّ سكان القرية- قد باء بالفشل، وانتهى نهاية تراجيديّة، فإنّ بروز شخصية جديدة، هي شخصية «عمر الخضار» الذي سيكافح، ويكسر كلّ الحواجز التي تعوق طريقه من أجل تحقيق حلمه في الدراسة، بمساعدة أمر حديديّة، وقفت وقوف الرّجال في وجه بِحار المشاقّ الّتي وضعها فيها تخلي زوجها إبراهيم عنها، وعن مسؤوليته في إعالة أسرته، ليُعمّقها تربّص مبارك البيّاض، ونزوعاته الجنسية العدوانية، إذْ تمكن «عمر» من استكمال دراسته، وتحسين وضعية أسرته، ثم البحث عن والده، وانتشاله من جحيم الضياع والغربة القاسيّين، ليجتمع شمل الأسرة، وتستعيد القرية أبناءها، بعد أن ضيّعهم سراب الغربة الواهم.

نجد، استنادا إلى صنافة الفواعل الموظفة في هذا النص الروائي، تعارضا بين جبهتين من الشخصيات: جبهة تدافع عن قيم الخير، وتتمثل في أمّ العيد، وإبراهيم الخضار، والحاج الطيب، وأحمد الإدريسي، والروداني، والحاج إيدر، وعمر... وجبهة تتأبط الشرّ، وتدافع عن القيم المضادّة للإنسان؛ ومنها: مبارك البياض، شيخ القرية الحاج العربي، الحاج المختار، مسيو موغا... وظل الصراع بين هاتين الجبهتين قويا، طيلة تفاصيل النص، ومساراته السردية، لكن النصرة كانت، في النهاية لجبهة قيم الخير، واندحار مأساوي لقيم الشرّ في شخص البيّاض، ومن يحذو حذوه. مثلما أن الرواية انتصرت لقيم الهويّة، حينما أنهت دراما الصّراع بحفل جمع الشمل بالقرية، وعودة المهاجرين إلى أسرهم وذويهم، مفضلة بذلك، الصمود في الوطن، والعيش في البساطة، والنّضال من أجل تحسين الدّخل، على هجرة الأوطان؛ وجمع الأموال على حساب الشرف والعزة ودفء الأسرة، وكأنها تلهج ضمنيا بفكرة: «قطران بلادي أفضل من عسل البلدان». يقول الراوي في هذا الصدد، على لسان الحاج الطيب: «لقد زهدت أوروبا في المهاجرين بعد ما بنتْ بهم اقتصادها الذي خرج من الحربين العالميتين هشّا ومهْزوزا...كان هؤلاء المهاجرون مجرّد آلات استنفدت طاقاتها، فرُمي بها إلى فضاء المتلاشيّات، وعادوا إلى بلادهم حاملين أمراضا مزمنة لا علاج لها».[١٢]

### ٢.٢. سردٌ متنامٍ وشخصيات مفارقة:

اعتمد الروائيّ، في تقديم عالمه، على أسلوب السرد الكرونولوجيّ الذي يتوالد من خُطاطة بسيطة، منطلقا من حدث- حافز ليختلق، فيما بعد، بورة تصدّع؛ تغيّر مجرى الأحداث، فنهاية تعيد التوازن للمحكيّ. وهو في كلّ ذلك، يتنصّل من همّ الاجتهاد في ابتكار وضعيات تجريبية يصبّ فيها سيولته السردية، بل ترك الأحداث تتنامى رويدا رويدا، وكأنه لا يتدخل في صنْعها، معتمدا على التبئير الداخليّ الذي يتيح للرّواة الاطّلاع على دواخلهم، ونواياهم، وتقديم حالاتهم للقارئ بالتفصيل. وهذا ينسجم مع الغاية من الكتابة، والمتجسّد في تعريّة واقع هشّ للقرى المغربية المهمّشة البعيدة عن المرافق الملائمة للحياة الكريمة، فحجم الرسالة وثقلها الذي يضغط على الباث؛ يفوق الرّغبة في التفكير الخطابيّ، فقد كان يكتب، وهو في غاية الانفعال مع القضيّة التي حفّزته على الكتابة، إلى درجة أنّه يكتب بها وعنها، في آن، تاركا المجال لمشاعره، وأحاسيسه وانفعالاته، للتدفّق دون هوادة، طليقة في تحلّل تامّ من الوعي التجريبيّ، ذلك أن الوعي الفكريّ للباث يتغلّب، في النّص، على الوعي الفنيّ، ممّا جعل النّص الرّوائي ينصرف إلى تشخيص الوضع النّفسيّ والاجتماعيّ للشخصيات، في انفعالها وتفاعلها مع التّحولات التي عصفت بحياتها، متخفّفا من كلّ تطريزات وتحْليات البلاغة الرّوائية المفرطة.

---

١٢- المصدر نفسه، ص. ٢٨٠





> تعتبر الرواية صرخة في وجه المسؤولين عن الشأن العامّ إلى ضرورة الانتباه إلى الأسلوب الإقصائيّ الذي تدبّر به التنمية البشرية والاقتصادية

كان همّ الروائيّ تقديم عالم منكص إلى القارئ بأبسط الأدوات، وبأسهل جهود التلقي، حرصا على توصيل المعنى. وبما أن الكاتب جاء إلى الرواية من عالم الشعر الذي أمضى في مقارعة أدواته وتجاربه عقودا من الزمان، مقتنعا أن الرواية هي الجنس الأدبي القادر على استيعاب التدفق الانفعاليّ الجمعي، عكس الشعر الذي يظل لصيقا بالشّعور الفرديّ، فقد تسللت إلى الرواية بعض خصوصيّات الكتابة الشّعرية، وظلّت بصمة الشاعر حاضرة لدى الرّوائيّ عبر اللّغة التي تنغل بالمجاز والاستعارة، والإطناب والإحالة والتلميح وغيرها... كلّ ذلك جعل للقراءة متعة لا تُضاهى، بفعل الانسيابيّة في الحكي، وجرّ المتلقّي إلى التّفاعل مع العمل، ودعوته إلى التعاطف مع الشّخصيّات، والاصطفاف بجانب المظلومين منها.

وفي كل ذلك، لم يكن الرّوائي محايدا، بل كان يميل، بشكل واضح، إلى مؤازرة الشخصيات المسحوقة، والوقوف إلى جانبها كي تصل إلى أهدافها، عبر منحها طاقات خلّاقة، وكفاح صخريّ، حتى تتجاوز العقبات التي تجدها في طريقها الطويل، خاصّة بالنّسبة إلى أمّ العيد وابنها عمر الخضّار، مثلما بدا تفاعله الوجدانيّ مع قضية قرية آيت همّان، الغارقة في وحل الإكراهات الاجتماعية، والضائعة في متاهة التهميش والهشاشة.

وتعتبر الرّواية بمثابة رسالة إلى العالم ، ومن يهمّهم الأمر فيه، لأن يتحرّكوا من أجل إنقاذ البشر، وما ارتبط به من قيم في هذه النّواحي المجهولة من الكون، مثلما تعتبر صرخة في وجه المسؤولين عن الشأن العامّ إلى ضرورة الانتباه إلى الأسلوب الإقصائيّ الذي تدبّر به التنمية البشرية والاقتصادية، حيثُ تعطى الأهمية لمناطق على حساب مناطق، ليستمرّ التركيز الذي كرّسه المعمّر منذ ما يزيد عن قرن من الزمن.

لقد ضغطت هاته الرّسالة على النّص، وتبأّرَت سرديا، لتعاضد كلّ الأساليب الفنيّة من أجل خدمة هذه الدلالة، كما أنّ الأحداث كانت تتوالد نصيّا، باعتبارها محفزات ومولدات تُضْهِرُ الحكاية الأساس، وتزند نارها كي تتقدّم وتتوسّع دون أن تعطي أهميّة للطرق التي تجتاح بها البياض، فتتنامى عفويا، وتسيل القصة مثل نهر جامح وهادر.

**٢. ٣. أسناد مرجعية تؤطر عوالم المحكي الروائي:**

تزخر الرّواية بمعطى ثقافي مرجعي غني، حيث إنّها تغلّب البنية التوصيفية للعناصر الإثنوغرافية المشكّلة للثقافة المحليّة في بعدها الجهويّ، ذلك أنّ المغرب؛ تتعايش، ضمن أبعاده الجغرافية، تنويعات ثقافية متعددة، وإن كانت تتقاسم أشياء كثيرة، لكنّها، في غمرة هذا التعدّد، تظل محتفظة بخصوصياتها المميزة. والرواية هنا، تستعرض البنية الثقافية والذهنية لسكان الجنوب، الذين يغلب عليهم الطابع الأمازيغي، لكنهم يتعايشون مع كل الطبقات الاجتماعية والثقافية دون تلميح لأيّ نوع من التعصب. ذاك أن الصراع المتمثل نصيا، ليس بين الأعراق واللغات، بل هو أساسا، مع الواقع الهش، والتهميش الجارح، والطبيعة الصعبة، والفقر المدقع... ذاك هو الطاعون الذي يفتك بالقرية، فضلا عن سيادة قيم متخلفة ما تزال تتحكم في العقليات والذهنيات البدوية.

تنتصر الرواية للمرجعية المغربية، وتجعل المعطى الإثنوغرافي المغربي مركزياً، بحكم أن المادة السردية التي اشتغل عليها السارد، تنهل من المتخيل الشعبي المغربي لقرية من الجنوب اسمها (آيت همان)، سواء من حيث الشخصيات التي أثثت الفضاء الروائي، وصنعت أحداثه، أو الأسامي التي ألصقت بها (إبراهيم الخضار،



تتخذ رواية «جينوم» من إشكالية الهوية والبحث عن الجذور قضية أساس، تتفرع عنها أسئلة راهنة لا تقل عنها أهمية

خدوج، مبارك البياض، الشريف، عبد السلام، مولاي الحاج، أم العيد، المختار، كلثوم... الحسين الروداني، محمد السبتي، الطاهر الورزازي)، حيث يكنى الشخص بطبيعة مهنته، أو اسم قريته التي ينتمي إليها، أو من حيث الطقوس الحياتية الاحتفالية التي تقام بالقرية؛ مثل أعراس الزواج، وأساليب التطبيب والاستشفاء، وطرائق التدريس في الجوامع والكتاتيب، أو احتفالات جمع المحاصيل الزراعية...)، أو الأغاني الشعبية التي يردّدها البدو (يا ربي يا سيدي، واش عملت أنا ووليدي، ربيته بيدي، وداتو بنت الرّومية، يا وليدي ياه...)، أو من حيث الطبْخات والأكْلات الواردة في النّص (الكسكس...) أو الأمثال والأقوال المأثورة التي تأتي على لسان الشخصيات؛ من قبيل: (الفقيه الذي ننتظر بركته دخل إلى الجامع ببلغته)... وغيرها من التوصيفات الدقيقة للمجتمع المغربي، بطبيعته الجغرافية، والثقافية، والاجتماعية التي تجعل المركزية المغربية غالبة على النص الروائي، حتى لما توضع في مواقف المقارنة مع النموذج الفرنسي؛ الذي بدا بالرّغم من تطوره اقتصاديا، حاملا لقيم مزيفة، تشتغل ضدّ الإنسانيّة، وتحرّض على الاستعباد والعنْصريّة والإباحيّة...

ولم يكتف الرّوائي بذلك، بل يوردُ شهادة شخصيّة ذات مرجعية جزائرية، اسمها «رابح مولود» الذي راح يعدّد مزايا المغاربة وتضحيّاتهم، ومواقفهم الشجاعة في مناصرة قضايا الوطن والدين والأمة: (المغاربة رجال بكلّ معنى الكلمة... أنا عملت معهم في الكفاح الوطني المشترك... لقد كان رجال المقاومة المغاربة لا يفرّقون بين المغرب والجزائر في معركة التحرير. كانوا يقدّمون أرواحهم فداء للجزائر، كما كان الجزائريون يضحون من أجل المغرب... أنا أعرف العديد من قادة الثورة الجزائريين نشأوا في فاس، ووجدة، والقنيطرة، والدّار البيضاء، ومراكش وأكادير، وغيرها من المُدن المغربيّة...).[١٣]

## ٣. الذات والهوية الموزعة

تنتمي رواية «جينوم... مزامير الرحيل والعودة»[١٤]، للروائي المغربي زكرياء أبو مارية الفائزة بجائزة كتارا للرواية العربية في دورتها الأولى عام ٢٠١٥، بالدوحة، إلى الجيل الجديد من الروايات العربية التي تنتصر للقضايا الراهنة للإنسان العربي، وهو في أحلك المنعطفات التاريخية، حيث تتخذ من إشكالية الهوية والبحث عن الجذور قضية أساس، تتفرع عنها أسئلة راهنة لا تقل عنها أهمية، منها الكفاح المرير للشعب المغربي ضد المستعمر الفرنسي الغاشم من أجل نيل حريته، وتورط الذات في مصائر ملغومة تقودها إليها بشكل عرضي، رغبتها في الانعتاق أو البحث عن مخرج، فإذا بها تعلق في شرك أكثر إحكاما، الخيبة في الحب والحياة، اضطهاد المهاجرين الذين قادتهم ظروفهم المزرية إلى فرنسا للعمل في أوضاع غير إنسانية، ليتم إعدامهم بطريقة همجية ورميهم في نهر السين...

### ٣.١. قلق هوياتي:

يستبد بعامل الذات في هاته الرواية، قلق هوياتي قاهر، يجعل الفتاة شامة تدخل تحدي البحث عن جذورها الغامضة، وتستتبع آثار الذاكرة من خلال تلميحات والدتها التي تغطي على الأمر، وتحجب عنها الحقيقة خوفا، وحرصا عليها من الإفلات من بين يديها، مثلما باتت تترصد صوت ذاك الغريب المغربي الذي يباغتها كل مساء، حتى أصبح بالنسبة إليها، صوتا من الكيان.

١٣- المصدر نفسه، ص. ١٨٨

١٤- أبو مارية زكرياء: جينوم، مزامير الرحيل والعودة، منشورات كتارا، الجائزة العالمية للرواية العربية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦





لم تكن الرواية معنية بالتقدم في المحكي، بقدر ما كانت معنية أكثر بأثر وقائع معينة على الحالة النفسية للشخصيات



وكانت شامة، البنت ذات الأصول المغربية الفرنسية التي تجهل والدها بناء على تصميم مسبق من والدتها الفرنسية ابنة المعمر الذي عاش ملاكا كبيرا في المغرب إبان فترة الحماية، تربط، بشكل غامض، ربما بتأجيج من حدس الانتماء ورائحة الجذور، بين ما يحدث معها من طمس لكينونتها الاعتبارية بالتستر على هوية والدها البيولوجي لداعي الأنانية والعماء الأيديولوجي، وما وقع لأولئك الجزائريين من مأساة الإعدام البشعة رميا في نهر السين بلا رحمة، وبدون احترام خصوصية الإنسان ولا حقوقه.

وباتت متاهة البحث تتسع أمام شامة-العامل الذات كلما كبرت، وكأنها سؤال الحياة نفسها، الذي كلفت الإجابة عنه، عبر مساحة النص الروائي، عمرها السردي الافتراضي كاملا، قبل أن تقرر العودة، بعد رحيل كل من كانت ترتبط بهم هناك في فرنسا وأمريكا، إلى الدار البيضاء المغربية، استجابة لسؤال الانتماء الغامض الذي بات يؤرقها كحاجة بيولوجية.

لا يؤثر الإشكال الرئيس في المتن الروائي على عامل الذات (شامة) وحده، بل ينعكس أثره على كل مكونات العالم الروائي بما فيه باقي الشخصيات، واجتهد الروائي لتكون مؤثثات هذا العالم كلها متضامنة ومنسجمة لتؤدي الخطاب ذاته؛ فينخرط جون أقرب الشخصيات لشامة في هذه المتاهة، بل ويكون ضحية لاختياراتها، بعد أن يكونا معا قد راهنا بمستقبل علاقتهما العاطفية من أجل إخلاء السبيل لها كي تحقق مرادها من الرحلة المتاهية إلى أمريكا، والاندماج في تلك الحركة السرية؛ ضدا على القيم التي تؤمن بها الشخصية الرئيسة: الإرادة والقناعات الداخلية والمواقف الشخصية.

**٣. ٢. سرد معكوس:**

يستغل الروائي تقنية الاسترجاع أو ما يسمى في الأدبيات السردية بـ(الفلاش باك) في تشييد عالمه الروائي، حيث يبدأ بالنهايات، ثم يتتبع خيوط لعبته السردية بشكل معكوس، واضعا متلقيه فيما يشبه الانتظار القاسي، وتستغرق الرواية صفحات طويلة، قبل أن تبدأ في كشف خباياها، مستندة إلى عمليتي التشويق والالتفاف. وقد نجح أبو مارية في اختياره، بالرغم من حجم النص، وامتداد سيولته الحكاية على مدار طويل ومتعرج.

وقد ساعد الروائي في ذلك، لجوؤه إلى تقنية أخرى لطالما كانت توأما عتيدا للسرد، التي بدأت الرواية التجريبية الحديثة، خاصة منها نمط النوفيلا، تتخلص منها تدريجيا، لكن في هاته الرواية يحضر الوصف أكثر مما يحضر السرد؛ بمعنى أن فعل الحركة بطيء ولا يساير السيرورة الوصفية التي تهيمن تماشيا مع الغاية من الخطاب الروائي، وهي تصوير بشاعة الحالة التي تكون عليها الشخصية المؤرقة بإشكالية فقدان الهوية، إذ استغرق المتن بياضا متواصلا لكشف المتاهة السيكولوجية العصيبة التي أُقحمت فيها شخصية «شامة» الموزعة بين الهويتين الفرنسية والمغربية.

لم تكن الرواية معنية بالتقدم في المحكي، بقدر ما كانت معنية أكثر بأثر وقائع معينة على الحالة النفسية للشخصيات، تفاعلا مع محيطها العام، لذلك، فقد توقفت بإسهاب عند الحالات الشعورية، والتعبيرات الانفعالية، لكل من شامة التي عاش معها قصة هويتها، وصورة والدها الغامضة، وميلها الغريب للمغاربيين، وتعاطفها مع أولئك الذين أُعدموا في نهر السين ظلما... وكذلك جون الذي جعلته جراحه المتواصلة مع الحب، والحياة، والشعور المؤلم بانتكاسة القيم البشرية إلى أن يصبح قسا أو أبا بإحدى الكنائس المسيحية، ثم ليختار العقيدة الإسلامية التي يجدها اختصارا لكل الديانات السماوية، وتتويجا لها، الشيء الذي يورط علاقة انجذابه لشامة

> تعاني ذات الفرد العربيّ المسلم في هذا المتن الروائيّ اغترابا داخليا فظيعا؛ سواء داخل البلد الأصليّ أو في بلدان المهجر

وانجذابها إليه في أكثر من وازع المحبة، لتصبح الهوية الملتبسة غصنا آخر مشتبكا في هذه العلاقة الحميمية التي ظلت مشدودة إلى الطهر، وكأنها عزاء عن مسيرة المحن، وسيناريوها الفشل العلائقي المتردي، ونكوص القيم التي شهدها ويشهدها العالم من حولهما. ولعل هاته المشاعر المتلاطمة والمتناقضة لم تكد تسلم منها أية شخصية ساهمت في تنمية أحداث العالم الروائي؛ بما في ذلك أمر شامة، وعشيقها القديم المغربي المختار الذي تسميه الرواية «مو» اختصارا على لسان سوزان.

اعتمد الروائي تقنية الراوي المشارك، الذي يقوم بمهمتيْ السرد والفعل، الشيء الذي غلّب استعمال ضمير المتكلم طيلة أطوار النص، وهو الأنسب لمحكي مغرق في الذاتية والنفسية، فإشكالية الهوية تجثم على الفرد جوانيا، وينعكس أثرها عليه، قولا وفعلا. لذلك، كانت شامة تصف نفسها بما يشبه البوح أو الاعترافات، وهي تقف عند انفعالاتها أكثر ما تقف عند سيرورة ومجاري الأحداث التي تبدو لا قيمة لها أمام نكوص داخلي يجعل كل الأشياء الجميلة في الخارج معتمة وغير ذات معنى.

**٣.٣. جراح مضاعفة:**

يصادف شامة، مثلما يصادف جون، وهما في إطار انهماكهما المستغرق في البحث عن حقيقتيهما الخاصتين، انكشاف عوالم جحيمية عاشها غيرهم، أو ربما من هم أقرب إليهم من هذا العالم الذي يحتويهما فعليا: تتكشف لهما عواصف الظلم التي يشنها الغرب على المستضعفين في الأرض بداعي الاستغلال الجشع، تحت مسميات متعددة وملغومة كالحماية والانتداب وتقديم المساعدة ورفع البؤس، بينما الاسم الحقيقي هو الانتهاك والاستعمار والغصب وغيرها من الصور البشعة التي أنستهما حياتهما السابقة المسروقة، وتاريخهما الموؤود. ناهيك عن تلك المأساة التي شهدها نهر السين، والتي لم تفارق بشاعتها مخيلة كل من شامة وجون.

هنا، تلتبس الحقائق في الرواية، وتتقاطع المصائر، وبينما يسعى كل من جون وشامة لاستعادة طهرهما، بالتوازي، مع يقينيتيهما الهوياتية، يباغتان بكون الأمر ليس بالسّهولة المتصوّرة، وبكونهما مطالبين بالتضحية بقيم رفيعة تشدهما إلى صفائهما الداخلي، وبكون كل صورة يمكن تشكيلها عن الهوية تظل ناقصة وشائهة ما لم تتوفر للإنسان، في هذا العالم، شروط الإسهام في بلورة إنسانيته بالشكل الذي ينسجم ووعيه بمقومات الحياة وغاياتها في الوجود والحياة.

## تركيب

تفضي القراءة التحليليّة الأفقية لتمظهرات ذات الفرد العربيّ المسلم في هذا المتن الروائيّ إلى استخلاص فكرة أساس مفادها كون هذه الذات، كما تتجلى، من خلال الشخصيّات الرئيسة، تعاني اغترابا داخليا فظيعا؛ سواء داخل البلد الأصليّ أو في بلدان المهجر، لسبب وجيه مفاده أنّها لا تجد لا هنا ولا هناك، الأرضية الخصبة التي تتجسد فوق بساطها أحلامها وأمانيها، وفق المنظور الذي تؤسس له، فتضيع في متاهة البحث عن ذات أخرى تشيّد على ضوء المعطيات الجديد، وفق مقاس جديد تفرضه المتغيرات القيمية والجغرافية. لذلك، تتّخذ الشّخصية داخل المتون الرّوائية، بناء على الصّورة الكليّة المتجليّة من خلال فعل التتبع القرائيّ، وإعادة تركيب الأجزاء المنتظمة نصيّا، عبر لغة المحكيّ الرّوائي، (تتّخذ) صورة مشوّهة تحيد عن المنْظومة القيميّة التي يفترض أن تضمن توفّر النّسق الكلّي المنسجم للهويّة الثقافيّة للإنسان العربيّ المسلم، لأنّها صورة معدّلة لتركيبة مهجّنة من القيم غير المتناغمة لا

> تمثل موضوعة «المنفى» أو «الاغتراب» أحد أهم مؤرقات الإنسان وقضاياه المقلقة في العصر الحديث

تراعي منطق الاختلاف، ولا تحترم أفق التّعايش، فهي صورة مصمّمة، وفق معادلة مركزيّة الغرب، وهامشيّة ما دون ذلك من جغرافيّات ثقافيّة، ومنْها العرب والمُسلمون.

تشكّل الروايات المتناولة بالدرس، على اختلاف توجهاتها الدلالية واختياراتها الخطابية والشكلية، مادة مهمّة حول مقومات الخصوصية الفردية للإنسان العربي، كما تتمثلها هاته الذات نفسها، ما دام الروائي، سواء كان مقيما في وطنه الأصليّ أم مقيما في مجتمعات برانية، ينتمي بالقوة إلى جغرافية ثقافية زرعت فيه قيما، وحفرت فيه مقومات هوياتية، ونحتت في جلده وروحه تقاليد وعادات وطقوس وسلوكيات، مهما حاول التملص منها، تظل مترسخة في كيانه لا تزول أبدا.

وتلوح، في الأفق النصيّ لهاته المتون السردية؛ مظاهر جديدة لنكوص الإنسانية، وأسئلة باتت تتهدّد الوجود البشريّ وكينونته، مقارنة مع المنجزات الروائية التي عرفتها العقود الزمنية السابقة؛ مثل القلق الوجوديّ، وتغلغل مشاعر الرهاب والخوف، وسطوة العنف والترهيب، واسترخاص الدم والروح البشريين، والقسوة على الجسد والذات بكلّ مقوّماتها، بما في ذلك؛ استصدار حقّها في الوجود والحياة. فبدل مواجهة الشخصية الرئيسة للخصوم، وتركيزها على مجابهة التحديات المتكالبة عليها من كلّ المناحي، تجنحُ إلى خلاص استسلاميّ عنيف، من خلال تصفية الهوية المتعددة لهاته الذات، عبر مهاجمة مكوّناتها، بدءا بالانتحار وانتهاء إلى محاربة كلّ تجليات الجمال في الكون، مرورا بانتهاج قيم البشاعة مسلكا لردود أفعال ارتكاسية أو انتقامية أو نقدية تبتعد عن منطق المحاججة والدبلوماسية، وتأسيس الصّراع على مقوّمات حضارية يضمنها العقل والعلم والجدل المعرفيّ، بعيدا عن منطق التعصّب والعنف والحرب، لأنها سلوكيات لن تنتج سوى قيم مماثلة، ولن تزيد الوضع إلا نزيفا وتعقّدا.

تمثل موضوعة «المنفى» أو «الاغتراب» أحد أهم مؤرقات الإنسان وقضاياه المقلقة في العصر الحديث، فمع أن العالم صار قرية صغيرة بفضل مكتسبات التكنولوجيا، فما يزال الفرد يلقى صعوبة في التنقل الحر في الجغرافيات الممكنة، خاصة مع تفاقم الهوة بين الشمال والجنوب، وسيادة الفكر المتطرف، وتنامي الإحساس المفرط بالعبثية في ظل هيمنة المادية الفاحشة، وانتصاب مشكل الهوية بوعي مفارق.

قد يكون قدر الإنسان أن يعيش خارج الوطن الذي ولد فيه، وانبثق من رحم تربته، فيظل وجدانه متعلقا بتلك الجغرافية البعيدة على مستوى المسافة، لكن القريبة على مستوى الروح، ويظل الفكر معذبا بين ذاكرة حبلى بمشاهد من تلك التربة المنغمسة في الكيان، وجسد مرهون في تضاريس أخرى مختلفة، لغة وطبيعة وثقافة. وقد يكون من حظ هذا الإنسان أن يمتلك ناصية الكتابة، وموهبة الإبداع بها، فتكون صلة وصل أخرى بينه وبين تلك الجغرافية التي تسكن الروح، فيضمنها أحلامه ومعاناته وتمثلاته واستيهاماته عن الوطن الأصل والوطن المستقبل، وما بينهما من تشابه أو اختلاف، فضلا عن مكابدات الذات الممزقة بين الهنا والهناك، فتنعكس تلك المشاعر والأحاسيس في منجزاته الإبداعية على اختلاف تمظهراتها ومستوياتها.

ومن أهم الأسئلة التي تخامر ذهن المتأمل لهذا الموضع: أي دور تلعبه الكتابة، على اختلاف تجلياتها، في تجسير الصلة بين وطنين مختلفين؟ وهل يمكن اعتبار الكتابة نشاطا تعويضيا، بمعنى ما، لهذا الحرمان من الوطن؟ لكن أما يزال مفهوم «المنفى» مفهوما إجرائيا ملائما في عصر انمحت فيه الحدود بين الجغرافيات، حتى أننا بتنا نتحدث عن الهوية الكوكبية بدل الهوية الوطنية!؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف تصور المنجزات الكتابية في «المنفى» الوطن المستقبل وثقافته!؟ وكيف نفسر الاختلاف على مستوى التمثيلات بين كاتب اختار «منفاه» وكاتب فرض عليه هذا





هل ما زال مفهوم «المنفى» مفهوما إجرائيا ملائما في عصر انمحت فيه الحدود بين الجغرافيات، حتى أننا بتنا نتحدث عن الهوية الكوكبية بدل الهوية الوطنية!؟

الوضع!؟ وما انعكاس هذا الوضع على جغرافيا الأحاسيس وتصادمها أو اتفاقها في كون يتقزم تدريجيا أمام هيمنة التكنولوجيا المعلوماتية والفكر الاقتصادي العولمي؟!

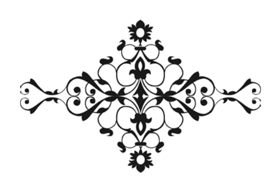
واستنادا إلى هذا التصور، تمت مقاربة الموضوع في ملف بمجلة «ذوات» من زوايا مختلفة بغاية الاقتراب منه، وتفكيك بعض إشكالاته الفكرية والأدبية من خلال تحليل نصوص ومنجزات أدبية ذات صلة، نستعرضها كالتالي:

في المقاربة الفكرية، أطر المفكر العراقي، الدكتور ناظم عودة موضوعة «الكتابة والهجرة» من الناحية الأنثروبولوجية، حيث انصرف في الشق الأول من مقالته، إلى تتبع مراحل تشكل أنماط الهجرة في أبعادها الإنسانية المتعددة، وأثرها على التراكم الحضاري البشري، ومساهمة هذا الحراك، ضمن الجغرافيات المتعددة، في خلق دينامية ثقافية تطورية، انعكست بالإيجاب أو السلب على الوضع الإنساني. وفي الشق الثاني، عالج الإشكال الإيتيمولوجي لمفردة «الهجرة»، متوقفا عند الدلالات المتعددة التي تطرحها المقومات المعجمية غير المتطابقة الموظفة للدلالة على هذا الحراك البشري من قبيل: الهجرة، الدياسبورا، الشتات، الرحلة، المنفى، المهجر...

في المقاربة الثقافية، سعى الباحث المغربي الدكتور عبد الفتاح الفاقيد إلى تفكيك العلاقة الملتبسة بين الذات والآخر في المنجز الأدبي العربي، متناولا مجموعة من النصوص التي تسلط الضوء على هاته الثنائية، انطلاقا من زاوية التوتر والتعايش، ورؤيا الرفض والقبول.

وعلى المستوى السيكولوجي، عرضت الدكتورة سهير المصادفة، الباحثة المصرية المتخصصة في الفلسفة، تجربتها النفسية المعقدة إبان إقامتها في روسيا، باعتبارها امرأة كاتبة، نشأت في مجتمع مصري محافظ، مبينة الأثر البليغ لهجرتها إلى الديار الروسية، وإقامتها في بلد الشكلانيين الروس على تشكل موهبتها، وهجرتها إلى ذاتها، بعيدا عن حصار الآخرين، وحصار ذاتها المسورة بالتقاليد والأعراف.

وفي حوار الملف، اخترنا الاقتراب من عوالم الروائية السورية الكردية مها حسن، التي رافقتها إشكالية المنفى بمعنييها المجازي والحقيقي منذ طفولتها الأولى، حيث رضعت حليب جدة منفية تهرب من مضايق العنصرية، كما عاشت تجربة المهجر منذ عقد وما يزيد، لنكتشف معها أحاسيس الكاتب العربي البعيد عن وطنه، وأرض ذكرياته، وتربة تشكله، ونرصد معها صور تمثلها لتجارب المهجر المعيشة داخل وطنها الثاني «فرنسا»، وأثر هاته التجربة على حياتها، وعلى منجزها الروائي والأدبي عموما.



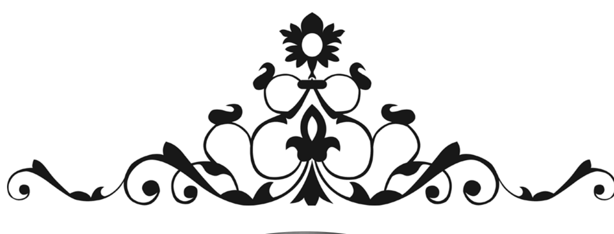


## المصادر والمراجع


- أبو مارية زكرياء: جينوم، مزامير الرحيل والعودة، منشورات كتارا، الجائزة العالمية للرواية العربية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦
- برادة (محمد): فضاءات روائية، منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣
- المددي (حسن): ليال بلا جدران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠١٤
- ماجدة (حمود): إشكالية الأنا والآخر، منشورات عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٩٨، مارس/آذار ٢٠١٣
- الماضي (شكري عزيز): أنماط الرّواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، ع ٣٥٥، سبتمبر ٢٠٠٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.
- السالمي (الحبيب): عواطف وزوارها، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠١٣
- صن (أمارتيا): الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٥٢، يونيو/حزيران ٢٠٠٨



بقلم:
ناظم عودة *
كاتب وباحث عراقي





# الكتابة والهجرة: مقدمة أنثروبولوجية

* دكتوراه في النظرية والفكر النقدي الحديث، كاتب وشاعر عراقي مقيم في السويد، عمل في جامعات عراقية وعربية كالجامعة المستنصرية ببغداد وجامعة الجبل الغربي في ليبيا، وهو عضو في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب واتحاد الأدباء في العراق واتحاد الكتاب والمؤلفين في السويد، من مؤلفاته: جماليات الصورة، من الميثولوجيا إلى الحداثة - دار التنوير، ٢٠١٣م، لأصول المعرفية لنظرية التلقي - دار الشروق - الأردن (١٩٩٧)، تكوين النظرية، في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر(٢٠٠٩)....



تعدّ موضوعتا «الكتابة» و«الهجرة» من الموضوعات الغنية، بما تثيرانه من ارتباطات ذات أبعاد سياسية، واقتصادية، وأنثروبولوجية؛ فهي تحظى باهتمام متزايد، قد يتوارى حيناً، لكنه يظهر بقوة حيناً آخر؛ وتتمتّعُ بجاذبية كبيرة لدراسات ما بعد الكولونيالية التي اعتبرت الهجرةَ إفرازاً حتمياً لسياسة الحقبة الاستعمارية التي مارستْ أسلوبَ القوة، والهيمنة الثقافية بقمع الثقافات الأصلية من التعبير عن ذاتها، وممارسة حقها في الاختلاف، وجَعْلها هامشاً يدور في فلك مركزية ثقافة الاستعمار، وتفسيراته، ومفاهيمه، وتقييماته، وسردياته، وإكراهاته النظرية في الوصف، والتحليل، واعتبار الثقافات الأصلية غير مؤهلة للتطور؛ ومعيقة له في الوقت نفسه.

ولذلك، فإنَّ الحقبة الاستعمارية وما بعدها، قد أفرزتَا مجتمعاتٍ كسيحةً فاقدةً لشروط الهوية، مادامت تحيا بمقتضى ما يسميه بيل أشكروفت: «الخبرة الكولونيالية»[١] وشروطها، وما خلَّفتْهُ من تأثير كبير في تأسيس هياكل نظم التربية، والتعليم، والنظم الاقتصادية التابعة/ الخاضعة، والنظم السياسية الاستبدادية التي سوف تؤسس مجتمعات ما بعد الكولونيالية، وتديرها بأسلوب التابع Subaltern [٢] الخاضع للقوى الإمبريالية عن طريق معاهدات التبعية ومواثيقها. ولذلك، فإنَّ الاستعمار والأنظمة التابعة أو بالأحرى الخاضعة له، قد خلقت ظروفاً اقتصادية، وسياسية، وثقافية في غاية السّوء، كانت الهجرةُ إحدى نتائجها.

> تعدّ موضوعتا «الكتابة» و«الهجرة» من الموضوعات الغنية، بما تثيرانه من ارتباطات ذات أبعاد سياسية، واقتصادية، وأنثروبولوجية

ويشكل موضوع الهجرة، أكثر الموضوعات المثيرة للاهتمام بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا من ناحية التأثر والتأثير في الثقافة. فقد اتخذت الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology الهجرةَ وعمليات الانتقال، موضوعاً أساسياً ينطوي على خِصْب كبير، فهي تتعامل مع المهاجر؛ بوصفه كائناً ثقافياً يحملُ معه إلى البلد المضيف منظومة ثقافية متكاملة لا تنضب من الذخيرة اللغوية، والرموز، والأساطير، والأمثال، والاستعارات، والكنايات، والحكايات الشعبية، وغير ذلك.

وتحاول الأنثروبولوجيا الثقافية أنْ تقوم بمقاربة متعددة الأبعاد حول الاختلافات الثقافية Cultural differences ونموّ أشكال جديدة نتيجة عمليات المصاهرة الثقافية، وتطرح أسئلةً حول الكيفية التي تكون فيها ثقافة البلد المضيف عرضة للتغيير والتلاقح بفعل الهجرة بوصفها حركةً اقترنتْ، عَبْرَ التاريخ، بتفكيك البنى التقليدية، وتحريك المياه الراكدة في الاقتصاد، والسياسة، والثقافة في العديد من المجتمعات.

إنَّ مفهوم المجتمعات المهاجرة، لم يكن مفهوماً حديث النشأة، وإنما اقترن بالنشاط الاستعماريّ القديم، وبإقامة المستعمرات القديمة، وبنمطها التقليديّ، وبتسمياتها المختلفة. وقد أطلقت اللغةُ اليونانية

١- يقول بيل أشكروفت: "لقد تشكلتْ حياة ما يزيد على ثلاثة أرباع شعوب العالم من خلال الخبرة الكولونيالية". ينظر: الردّ بالكتابة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص١٥

٢- أُخِذَ مفهوم التابع subaltern من إحدى مقالات غرامشي المكتوبة في ١٩٣٤ بعنوان: على هوامش التاريخ: تاريخ الجماعات الاجتماعية التابعة: On The Margins of History: History of the subaltern social Group ويستعمل غرامشي: تابع، بالتبادل مع: خاضع Subordinate وأداتي Instrumental وهذا مناسب إلى حدّ كبير لوصف تنوع الجماعات الخاضعة للاستعمار، والمستغَلَّة، والمصنَّفة من قبله بأنها في مرتبة أدنى. واستعملتْ سبيفاك المصطلحَ في ترجمتها كتاب جاك دريدا: علم الكتابة، متأثرةً في ذلك بأفكار جماعة دراسات التابعين التي تستعمل المصطلح لكتابة تاريخ جديد يحاول وصف "الإسهام الذي يقدمه الناس بأنفسهم، أي مستقلين عن النخبة، وهي الجماعات المهيمنة، خارجية كانت أم داخلية التي احتكرت حتى ذلك الوقت تاريخ النزعة القومية الهندية". ينظر: أساطير بيضاء، كتابة التاريخ والغرب، روبرت يانج، المجلس الأعلى للثقافة، ص٣٢٦. وقد ظهر هذا المفهوم لأول مرة في العام ١٩٨٢، إذ صدرت مجلة بالاسم نفسه بتحرير: راناجيت جحا Ranajit Guha. وأراد عدد من المؤرخين والكتّاب والنقاد الهنود، أنْ يعيدوا كتابة تاريخ الهند من خلال وجهة نظر التابع، لا من خلال وجهة النظر الرسمية أو من خلال السرد الكولونيالي، مشددين في ذلك على الأرشيف الشفاهي للأمة الهندية.





> اخترقتْ مجتمعاتُ المهاجرين في العصر الحديث بنيةَ المجتمعات الحاضنة في البلدان المضيفة، فخلخلتْ تماسكها البنيويّ المحافظ على نمط معين من العلاقات

القديمة على هذه المجتمعات تسمية مجتمعات الشتات: διασπορά/ Diaspora، وهو مصطلح اقترنَ بدلالة سياسية، واقتصادية، وثقافية... فالمجتمعات المهاجرة التي استوطنتْ قرب شواطئ البحر المتوسط قبل الميلاد بقرون عديدة، قد أنشأتْ مُركَّباً حضارياً فريداً في بلاد اليونان القديمة. وصفَ أفلاطون تلك اللحظة بقوله: «نزلنا في شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء»[٣]. فهذه الضفادع، قد أنشأتْ ما يسميه المؤرخون: المعجزة الإغريقية[٤] في الفلسفة والعلم نتيجةً لتفاعل ثقافات مختلفة الأعراق، والملل، والمعتقدات؛ فمدينة إيليا التي اشتهرت بأصالة أفكارها الفلسفية والعلمية، هي مدينة أنشأها المهاجرون في غرب إيطاليا[٥]، وكذلك مدرسة الإسكندرية الفلسفية، التي تميزتْ بنزعة فلسفية غنية بما أنتجَهُ فيلون الإسكندريّ من فكر في تفسير التراث اليهوديّ الدينيّ، وفي مقدمة ذلك التوراة، وما أنتجَتْهُ الفيثاغورية الجديدة، والأفلاطونية الجديدة، وغير ذلك من النزعات الفكرية التي كان لها دور كبير في تأسيس اللاهوت المسيحيّ[٦]. يبيّنُ لنا هذا، التأثيرَ الثقافيّ العظيم الذي نتجَ عن عملية التلاقح، ودوره في ضخّ الحيوية، والنشاط في الاقتصاد والفكر، والأدب، واللغة، والفنون.

لم يتطرّقْ الشعر العربيّ القديم، قبل الإسلام، إلى شيء أبعد من الإحساس الرومانسيّ في تصوير نزعات الشوق، والحنين كما في رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية عاصمة الروم:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دوننا  وأيقنَ أنّا لاحقانِ بقيصرا[٧]

ولم يكشفْ أيّة عملية تفاعلٍ بين الذات والمكان، يمكنها تخطّي الحاجز النفسيّ:

أجارتَنا إنا غريبان ها هنا  وكلّ غريب للغريب نسيبُ

أجارتَنا ما فاتَ ليس يؤوبُ  وما هو آتٍ في الزمان قريبُ

وليس غريباً من تناءتْ ديارُهُ  ولكنَّ مَن وارى التراب غريبُ[٨]

يعبّرُ النصّ عن حالة التململ، وعدم الشعور بالانتماء إلى المكان؛ فهو يفصح عن غربة موحشة، ويتخذُ من الجارة، محفّزاً أسلوبياً لبثّ زفرات الغربة كالتحسّر على الزمن الماضي، وعَقْد علاقة بين الغربة وعدم الانتماء من جهة، والغربة الأبدية (الموت) من جهة أخرى.

لكنَّ دخول المسلمين إلى الأندلس، كان لحظة مواجهة حقيقية ومبكّرة بين الغرب والإسلام المهاجر؛

---

٣- See: Subaltern Studies, Neil Rogall, From Newsletter, London Socialist Historians Group, No Autumn ١٩٩٨, P.٣-٢ Historiography.

٤-فكرة "المعجزة الإغريقية" نشأت في عصر التجديد الذي كان رواده يرون أن العلوم والمعارف الإنسانية ولدت ونشأت في اليونان مع الفلسفة اليونانية في القرن السادس قبل الميلاد، واستمرت خلال الفترة الهلنستية، وتناولت مجموعة واسعة من المواضيع، بما في ذلك الفلسفة السياسية، والأخلاق، والميتافيزيقيا، علم الوجود، والمنطق، وعلم الأحياء والبلاغة، وعلم الجمال (ويكيبيديا).

٥-ينظر: قصة الحضارة، ديورانت، ترجمة محمد بدران، مج٣، ج٧، دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٣م، ص. ٩

٦- أطلق هذا التعبير جورج سارتون في: تاريخ العلم، مجموعة مترجمين، ج١، دار المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص.٢٨٧

٧- ذكرَ جورج سارتون أنّ تلك الهجرات كانت بعد سقوط طروادة بستين سنة، وكانت تلك الهجرات دافعاً لهجرات أخرى أهمها هجرة الدوريين، وهجرة الأيونيين. ينظر: تاريخ العلم، ج١، ص٢٣٧

٨- درسَ إميل برهييه الفكر الفلسفيّ عند فيلون الإسكندريّ بالتفصيل في كتابه البالغ الأهمية: الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندريّ، (القاهرة ١٩٥٤) كذلك تحدّث عنه وعن الأفلاطونية الجديدة في موسوعته الفلسفية في الجزء الخاص بـ: (الفلسفة الهلنستية والرومانية) ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، ٢٠١٦، ص٣٢٤.

فهي مواجهة حضارية وثقافية كرّستْ نمطاً من الكتابات المنفتحة على العلم، والحب، والأدب، والتصوّف. ومع ذلك، ظلَّ مخيالُ الشرق، وسحرُ شمسه نشيطيْن في رسم صورة للشوق، والحنين في كتابات المهاجرين العرب، وشملَ ذلك حتى الأمراء، فقد عبّرتْ أبياتُ عبد الرحمن الداخل عن حالة الانشطار النفسيّ بين مكانين مختلفين:

أيها الراكبُ الميمّمُ أرضي    أقْرِ من بعضي السلامَ لبعضي
إنّ جسمي كما علمتَ بأرضٍ    وفؤادي ومالكيه بأرض[٩]

ثم عادَ بعاطفة أشدّ لوعةً وحنيناً، وقد أثارتْه نخلةٌ ليقول:

تبدَّتْ لنا قربَ الرصافة نخلةٌ    تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرّب والنوى    وطول التنائي عن بَنِيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ    فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي[١٠]

وفي العصر الحديث، اخترقتْ مجتمعاتُ المهاجرين بنيةَ المجتمعات الحاضنة في البلدان المضيفة، فخلخلتْ تماسكها البنيويّ المحافظ على نمط معين من العلاقات، فوضعتْ بصمتها في الطابع الثقافيّ، والاقتصاديّ، والسياسيّ للمدن المتروبوليتانية؛ مثل باريس، ولندن، وستوكهولم، ومدريد، وبرلين، ونيويورك، وغيرها من المدن التي تضمّ خليطاً من الأعراق، والأديان، والأيديولوجيات، فأصبحتْ مكاناً للاختلاف الثقافيّ بين المجتمعات الغربية الحاضنة، وثقافات يحملها مهاجرون غرباء، وهو الاختلاف الذي كانت البلدان المتقدمة المضيفة ذات النزعة المركزية القوية تأملُ انحلاله أو تذويبه بمحلول المركزية الثقافية عن طريق اللغة الحاضنة، ومنظومة القيم الاجتماعية، والقوانين المتَّبعة في تلك المجتمعات، أو من خلال ممارسة سياسة الاندماج، والتكيّف، والاستيعاب، وسوى ذلك من المصطلحات التي هدفها ترويض الثقافات الجديدة، وتذويبها في ثقافة المركز.

لكنّ المجتمعات المهاجرة، لم تستجبْ كلياً لتلك المشيئة فجعلتْ نفسَها، ولاسيما في التقاليد الدينية، طرفاً في صراع هوياتي هو الصراع بين الأضداد، أو بين بنيتَيْن متباينتَيْن أشدَّ التباين. ويبدو، هذا الصراع، أمراً حتمياً وطبيعياً، فإذا اعتقدنا بنظرية صراع الأضداد للفيلسوف اليوناني هيراقليطس الذي كان يقول في شذراته الفلسفية الباقية من كتابه المسمى في الكلّ: «يجهل النّاسُ كيف يكون الشيءُ مختلفاً، ومتفقاً مع نفسه؛ فالائتلاف يقوم على الشدّ والجذب بين الأضداد» وإنَّ «الضدّ هو الخير لنا» و«الائتلاف الخفيّ أفضل من الظاهر»[١١] يمكن لنا أنْ نرى الوجه الآخر لهذا الصراع الخفيّ والظاهر على حدّ سواء بني المجتمعني: الحاضِن، والمهاجِر. فقد برهنتْ هذه المجتمعات على سلامة منطق نظرية هيراقليطس في جدل الأضداد، من خلال صنْع مركَّب جديد سيكون موضوع اهتمام متزايد من الأنثروبولوجيا الثقافية، نظراً للدور الذي تلعبه الاختلافات الثقافية في حياة الدول المتقدمة التي فتحتْ أبوابَها للمهاجرين تحت ذرائع شتى.

تتعاملُ الثقافةُ العربية حالياً، مع المصطلح بارتباك واضح غير قادر على الحسم، ووضْع حدّ لاضطراب المفهوم، والاستقرار على مصطلح شامل يعبّر عن الحالة. فالدياسبورا Diaspora يتضمن دلالتَيْن:

- الشتات اليوناني، ويعني حالة إنشاء مستعمرات في ذروة حاجة اليونانيين إلى استثمار أموالهم في مرحلة تاريخية مزدهرة اقتصادياً، وحضارياً، وثقافياً.

- الشتات اليهوديّ، وهو مصطلح يتضمن الإشارة إلى اليهود في السَّبي البابليّ Babylonian Exile الذي

٩- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط٥، ص٦٥.

١٠- البيت الأول موجود في تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، لكنّ البيتين التاليين وردا في تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي من دون تخريجهما، طبعة دار المعرفة، ٢٠٠٤، ص٨٣.

١١- ابن الأبّار: الحلّة السيراء، تحقيق: حسني مؤنس، ج١، دار المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص٣٦.



ذُكِـرَ في سِـفْر دانيـال[١٢]، ودلالـة نازيـة تتمثـل في سياسـة هتلـر ضـدّ اليهـود.

ولذلـك، فـإنّ هـذا المصطلـح الـذي اسـتعمله الدكتـور عبـد الواحـد لؤلـؤة لوصـف حالـة الشـعر في المهجـر الجديـد في كتابـه: (مدائـن الوهـم، شـعر الحداثـة والشـتات) ٢٠٠٢، لـم يضـع حـدّاً فاصـلاً بـين الدلالـة القديمـة والدلالـة المسـتحدثة. فالشـتات يتضمـن دلالـة التشـتيت والتفريـق الـتي مورسـتْ ضـدّ اليهـود كنـوع مـن الاضطهـاد الديـنيّ.[١٣]

فنحـن إذن، بـإزاء حالـة واحـدة، ومصطلحـات متعـدّدة: فثمـة مـن يسـتعمل المنفى. وهـو، في ظـني، مصطلـح يتضمـن دلالـة سياسـية خاصـة؛ اقترنـت بالكولونياليـة عندمـا قامـت سـلطاتها بنفـي المعارضـين، والوطنيـين، ودلالـة قمعيـة تقـوم عـلى الإقصـاء، والإبعـاد، والطـرد، مارسـتها النظـم الاسـتبدادية ضـدّ معارضيهـا.

> إنّ حالات الهجرة الجديدة ليست كلها بسبب قمع سياسيّ، وإنما لها أسباب اجتماعية، وثقافية أخرى

والحقيقـة، إنّ حـالات الهجـرة الجديـدة ليسـت كلهـا بسـبب قمـع سياسيّ، وإنمـا لهـا أسـباب اجتماعيـة، وثقافيـة أخـرى. أمـا مصطلـح الاغـتراب Alienation فيشـير إلى مرجعيـة فلسـفية، وسـيكولوجية معينـة، فقـد صاغـه هيغـل في: فنومينولوجيـا الـروح؛ بمعـنى أنّ الإنسـان إلـهٌ مغـترب عـن ذاتـه، وأنَّ العالَـمَ «ماهيـة روحيـة»[١٤] تكـون في وضعيـة اغـتراب مسـتمرة. أمـا عنـد كارل ماركـس،[١٥] فـإنَّ النظـام الاقتصـاديّ والتكنولوجيـا الحديثـة جعـلا نتائـج نشـاط الإنسـان في العمـل، والعلـم، والأخـلاق شـيئاً مسـتقلاً وغريبـاً عنـه، وهمـا يمارسـان عليـه هيمنـة كئيبـة عـلى نحـو تـركَ عليـه آثـاراً نفسـية عميقـة جعلتْـه لا يمتلـك ذاتـه وغـير قـادر عـلى التكيّـف مـع البيئـة. فالملكيـة الخاصـة جعلـتْ ثمـارَ العمـل ملـكاً لغـير مـن ينتجُهـا، فكرّسـتْ نمطـاً مـن السـيطرة عـلى النشـاط البـشريّ.

لذلـك، لا أرى هـذا المصطلـح ينطبـق عـلى الحالـة الـتي نريـد أنْ نتحـدّث عنهـا، فهـو لا يقـدّم الوصـف الشـموليّ الأكـثر دقـة، لأنَّ الاغـتراب حالـة طارئـة في الحيـاة الاجتماعيـة، ترتبـط بوضـع اقتصـاديّ معـيّن. أمـا مصطلـح (المهجـر الجديـد) الـذي أقترحُـه، فهـو مشـتقّ مـن كلمـة الهجـرة Immigration الأكـثر تـداولاً في الدراسـات الثقافيـة، والأنثروبولوجيـة، والكولونياليـة، ودراسـات علـم الاجتمـاع والتاريـخ، وهـو أكـثر حياديـة، وابتعـاداً عـن أيّ محمـول إيديولوجيّ. إنـه يتضمـن دلالـة ثقافيـة خصبـة في الفـن، والأدب، والفكـر، ودلالـة إنسـانية، باعتبـاره يشـمل كتابـات مهاجريـن اختـاروا المهجـر بعـد أنْ تعرضـتْ حيواتهـم إلى الخطـر بسـبب الحـروب والكـوارث الاجتماعيـة. وتوصيفـه بــ: «المهجـر الجديـد» هـو لتمييـزه عـن المهجـر القديـم الـذي أسسـتْه كتابـات المهجـر العـربيّ منـذ القـرن التاسـع

---

١٢- المصدر نفسه، ج.١، ص.٣٧.

١٣- الفقرات (٤٥، ٤٦، ٤٧) على التوالي حسب ترقيم برنت، من كتاب هيراقليطس المسمّى: في الكل، وهي تلخّص شطراً من فلسفته في التضاد التي سيكون لها تأثير كبير في الفلسفة الحديثة ولاسيما في فلسفة هيغل وفي الفلسفة الماركسية. الفقرات منشورة ضمن كتاب: فجر الفلسفة اليونانية، أحمد فؤاد الأهواني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٤، ص.١٠٧.

١٤- ينظر تعريف Diaspora في قاموس وبستر Merriam Webster أونلاين، الذي يشير إلى المعاني المختلفة لهذا المصطلح الذي يشمل بالإضافة إلى "السبي البابلّي" هجرة الأقوام الأفريقية بعيداً عن أوطان أجدادهم بعد استعمارها من قبل الأوروبيين. وينظر: سِفْر دانيال، ١/١. يرجى العودة للرابط الرقمي: https://www.merriam-webster.com

١٥- يقول الدكتور عبد الواحد لؤلؤة: "في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، تفاقمتْ ظاهرة غير صحية في المجتمع العربيّ، اتخذتْ شكل الاغتراب عن الوطن والعيش في بلاد غريبة لأسباب ودوافع شتى. وكان من بين المغتربين عدد كبير من الشعراء والأدباء تفرقوا في شتات عجيب في أقاصي المعمورة، وحملوا معهم ثقافتهم التي بدأتْ تتأثر، بدرجات متفاوتة، بثقافات، ولغات بلاد الشتات". ينظر: مدائن الوهم، شعر الحداثة والشتات، دار رياض الريس، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠٠٢، ص.١٠.

عشر.

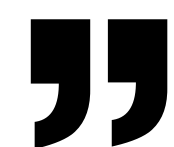
إنَّ الشيء المهم؛ بالنسبة إلى الكتابة في «المهجر الجديد» هو أنها بدأتْ تتأثّر بالحياة الجديدة للمهاجرين، وبنظم المجتمعات الحاضنة. فقد تركَ العامل الاقتصاديّ ظلاله على الكتابات الجديدة متماهياً بالعامل السيكولوجيّ؛ فالمهجر الجديد خلقَ ظروفاً للتفكير في الكيفية التي ينخرط فيها المهاجر في نوع محدّد من سوق العمل طبقاً لإمكانياته ومؤهلاته وخبراته السابقة.

ولذلك، فإنَّ معظم كتابات المهاجرين صوّرتْ لنا سوق العمل بوصفه مجالاً للكفاح ضد جميع أشكال الإخضاعات القهرية التي تفرضها النظم الاقتصادية الجديدة كلياً على المهاجرين. وتفرضها تقاليد العمل الغريبة عنه. وعليه، فقد كان عليه أنْ يتقبّل نفسياً، وسلوكياً أخلاقيات هذا النظام من قبيل: Invisible hand حيث ستكون لهذه «اليد الخفية» إمكانية التنظيم اللاشعوريّ للاقتصاد، وتحقيق التوازن العام عَبْرَ تحقيق المنفعة أو المصلحة الخاصة أو الدافع الشخصيّ self-interest [١٦]. فالكفاح الاقتصاديّ للمهاجرين، كان ثيمة للعديد من الأعمال الأدبية كرواية: الرجل الخراب[١٧]، لعبد العزيز بركة ساكن التي رصدتْ مشكلة من مشكلات العمل، وهي القيام بعمل يتعارض مع التقاليد، حيث ما يزال المكان القديم يمارس ضغطه، وهيمنته. لكنّ درويش، بطل الرواية، كان مجبَراً للقيام بنوع من النشاط الاقتصاديّ الذي سوف يؤسس شكل حياته الجديدة، وسوف يدمّرها في الوقت نفسه، تدميراً كلياً في نهاية المطاف.

إنّ أسلوب الاقتصاد النيوليبراليّ، الذي تزامن ظهوره مع الموجات الجديدة من الهجرة، ينظر إلى الهجرة بوصفها ظاهرة اقتصادية في المقام الأول، فيسعى إلى استثمار طاقات المهاجرين المتعطشين للعمل، واستغلال معتقداتهم المشتركة كالعادات، والقيم، والمواقف، في تنمية العمل، وتحقيق الأرباح، وتحفيز النموّ الاقتصاديّ، وتحسين المؤشرات الاقتصادية. لهذا، كان توجّهُ البلدان المتقدمة التي تعاني من الركود،



الشيء المهم بالنسبة إلى الكتابة في «المهجر الجديد» هو أنها بدأتْ تتأثّر بالحياة الجديدة للمهاجرين، وبنظم المجتمعات الحاضنة



وبعض المشكلات الاقتصادية، منذ بداية التسعينيات، هو استقبال أعداد كبيرة من المهاجرين الجدد لغرض دعم سوق العمل، وزيادة النموّ، وتحقيق المكاسب الاقتصادية.

وهكذا، أصبحت «الكتابة الجديدة» للمهاجرين تحاول أنْ تصوّر نمط الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، وتقاليدهما، وقوانينهما في المهجر، وتصوّر مشكلة الاندماج Integration والانتماء، وعلاقتهما مع الكينونة، فدرويش الذي غيّرَ اسمه إلى (هاينرش) لغرض الاندماج، وعملَ: «مخرّياً للكلاب» لدى سيدة عجوز، بقيَ في داخله (درويش)، وعاشَ لحظات عنيفة من الصراع الداخليّ، بسبب الاختلاف بين منظومتين من القيم التي جعلت اندماجَه مستحيلاً؛ نتيجة الحواجز، والعوائق التي تخلقها الاختلافات الثقافية، وتَحُولُ دون اندماجه.

إن السلوك الاقتصاديّ للمهاجر، لا تُحدّده الرغبة أو المؤهلات الذاتية، وإنما ثمة نظام نيوليبراليّ يفرض

١٦- ينظر كتاب: فنومينولوجيا الروح، هيجل، ترجمة: ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص. ٥١٣.

١٧- تحدّثَ ماركس عن الاغتراب في المخطوطات الاقتصادية والفلسفية ١٨٤٤، إذ يعيش الإنسان اغترابه في "الدولة البورجوازية القائمة على أساس الملكية الفردية". ينظر كتاب: الموسوعة الفلسفية العربية، ج.١، معن زيادة، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص.٨٣.



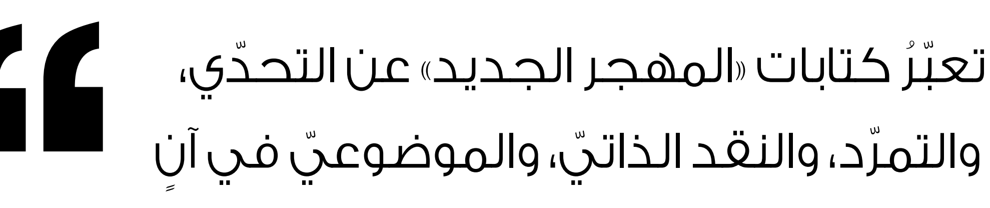
فيه القطاعُ الخاص أو الشركات، والمؤسسات غير المملوكة للدولة شروطها القاسية، ولذلك، فإنَّ الطبقة الأكثر تضرراً من ذلك هم الكتّاب، والمثقفون وأساتذة الجامعات الذين لم يجدوا البيئة المناسبة لاقتحام سوق العمل الخاضع بشكل كبير لسياسة القطاع الخاص الذي يبحث عن الفائدة، والمنفعة، والأرباح في المقام الأول.

كلّ ذلك تركَ تأثيراً كبيراً في الرؤية التي تحملها كتابات المهجر الجديد، فكانت انعكاساً صادقاً لأحاسيس الحنين، والوحدة، والغربة، والحزن الذي ينمّي شعوراً وجودياً مسكوناً بالقلق، والتوتر الدائمين، وبالتالي، صيغ نمط من الكتابة قادر على تَمثّل حالة الكينونة القلقة. ولذلك، فإنّ هذه الكتابة، اختلقتْ ما أسميتُه في دراسة أخرى: الفضاء المستعاد الذي هو استعادة متخيّلة للفضاء الأصليّ من خلال خلْق سلسلة تخيلات، وتصورات ذات توهّج عاطفيّ مشحون؛ يُستعادُ، من خلاله الزمانُ والمكانُ القديمان، والتجاوب معهما وجدانياً عبْرَ استحضار الصور، والأشخاص، والأفكار، والوقائع، والتقاليد، والقوانين، والفنون، والآداب، واللغة المحكية، والموروث الشعبيّ.

واستنادا إلى ذلك، فإنَّ «الاستعادة» هي طوق النجاة أو طريقة لخلْق عالَم متخيَّل والعيش فيه وجدانياً. فأصبحت لغة الكتابة تمتصّ ذلك الشعور، وتعكسه كمرآة مخدوشة عبْرَ فعل الاستعادة.

إنّ الكتابة الجديدة، تناولت الاختلافات الثقافية والحضارية بين الشرق والغرب بالطريقة الرمزية التي عالجها الطيب صالح في: موسم الهجرة إلى الشمال[18]، ثم بطريقة أكثر تركيزاً على الجوانب النفسية، والتقاليد الاجتماعية في رواية الحبيب السالمي: روائح ماري كلير. فمنذ أنْ كتب الطيّب صالح روايته المميزة أصبحت






موضوعة الصراع الحضاريّ بين الشرق، والغرب تتبدى في التفاصيل العادية للعلاقات الشخصية بين أبطال الرواية العربية المعاصرة، ولاسيما تلك التي كُتِبَتْ في المهجر الجديد[19].

وعلى الرغم من إرث الشعور الثقيل والكئيب بالغربة الذي صوّره المتنبي:

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان[20]

إلا أنّ المهاجر الجديد، بدأ يتشاركُ المكانَ، واللغة، وامتزاج الدم مع السكان المحليين، ولذلك، كان الحيّز الثقافيّ الذي تنطلق منه الكتابة الجديدة أكثر غنى وتفاعلاً مع الثقافة، والتكنولوجيا، والاتصال بالأفكار،

١٨- هذان مصطلحان من مصطلحات آدم سميث الذي يُعدّ أحد آباء الاقتصاد الليبراليّ الكلاسيكيّ، ذكرهما في كتابه "نظرية الشعور الأخلاقيّ: The theory of moral sentiments" فهو يعتقد أنّ الحرية الاقتصادية للأفراد تمتلك، ذاتياً، القدرةَ على التنظيم، وتحقيق المصلحة، وهذا من شأنه أنْ يحقق التوازنَ بين المصلحة الخاصة، والمصلحة العامة.

١٩- عبد العزيز بركة ساكن: الرجل الخراب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠١٥.

٢٠- الشمال ليس مجرد كلمة ذات دلالة جغرافية في رواية الطيب صالح وإنما هو كما يقول جورج طرابيشي: "شمال الفتوحات الكولونيالية والاستعمار والامبريالية، شمال الرأسمالية الغربية". ينظر: شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، ط٤، ١٩٩٧، ص. ١٤٤. ومصطفى سعيد، بطل الرواية، المولود في سنة اجتياح القوات الانكليزية للسودان والمفعم برمزية روحانية متجذرة في حضارة الشرق سوف يصطدم بمادية متجذرة في حضارة الغرب. ولذلك، يعتبر رمزاً ثقافيّاً أكثر مما هو شخصية حقيقية، فهو يصرخ في قاعة المحكمة: "هذا المصطفى سعيد لا وجود له، إنه وهم، أكذوبة. (ص. ٣٦). وأجاب في قاعة المحكمة عن سؤال المدعي العام:

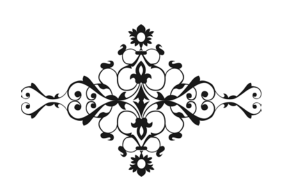
- هل قتلتَ جين مورس؟

- نعم، قتلتها عمداً. (الرواية، ص. ٣٦)



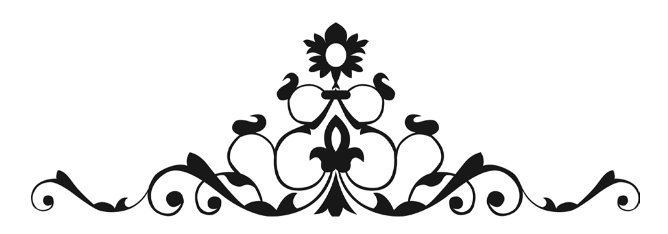
والنظريـات. فالمـكان الجديـد، اسـتحدثَ إشـكاليات أخـرى أصبحـتْ تشـكل تحدّيـاً لهـذه الكتابـة الـتي حاولـت، في الـسرد، عـلى وجـه الخصـوص، أنْ تكشـف عـن وعـي آخـر لإدراك العلاقـة المعقّـدة مـع الغـرب، مـن خـلال اسـتثمار عامـل الحريـة لإعـادة قـراءة كل الملفـات، والموضوعـات الـتي لـم يكـن تناولهـا، وكشـف خباياهـا- سـابقاً- أمـراً ممكنـاً.

لذلـك كلـه، فهـي كتابـات تعـبّرُ عـن التحـدّي، والتمـرّد، والنقـد الـذاتيّ، والموضوعـيّ في آنٍ. وبسـبب ذلـك، أصبـح هـذا النمـط مـن الكتابـة موضـع اهتمـام علـوم عديـدة منهـا: النقـد الثقـافيّ، الأنثروبولوجيـا، السياسـة، السوسـيولوجيا، التاريـخ، والاقتصـاد.





بقلم:
د. عبد الفتاح الفاقيد *
أكاديمي وباحث مغربي





# الأنا في مرآة الآخر ثنائية القبول/ والرفض

* باحث وكاتب مغربي، دكتوراه في السيميائيات السردية، ومهتم بالبحث في الفنون والعمارة التقليدية، له عدد من المقالات المنشورة بمجلات ومنابر محكمة داخل المغرب وخارجه، وشارك في عدد من الندوات الوطنية.



**إضاءات أولية:**

تعدّ ثنائية شمال/ جنوب أكثر الثنائيات جدلا داخل ثقافتنا العربية، والتي تبلورت ضمن سياق وعي خطاب النهضة بوضعية تخلفنا. وامتد تأثير الثنائية إلى المخيال العربي الذي أضحى يحتكم إليها في تمثله لذاته وللعالم، وهكذا تعددت، استنادا إلى هاته الثنائية، الحلول بحجم اتساع دائرة الخلاف. ولا عجب من تحول الثنائية إلى موضوعة تستلهمها الأجناس الأدبية لبناء عوالمها السردية والتخييلية، وقد كانت الرواية أكثر الأجناس رصدا لآثارها، وتحولاتها داخل نسقنا الاجتماعي، والفكري.

في ضوء ما سبق، قاربنا ثلاث روايات اهتمت بتخييل ثنائية شمال/ جنوب، روايات اختلفت زوايا نظرها، وطرائق تناولها الفني، والأسلوبي، إلا أنها انشغلت برصد التحولات البنيوية التي مسّت علاقة العربي بذاته، وبنظرته للآخر؛ لحظة انتقاله من صدمة اللقاء إلى لحظات الرغبة في الاندماج، رغبة اصطدمت بسطوة التقاليد، وثقل الموروث الثقافي، ونظرة «الغير» الملتبسة والعدائية أيضا. قصدنا إذن، استنباط المتغيرات التي حالت دون تحقيق المصالحة مع الآخر، رغم كل المحاولات الجادة لردم هوة الاختلاف، والتباين. ولتكن رواية «من يُبكي النوارس؟» نقطة انطلاقنا.



تعتبر ثنائية شمال/ جنوب أكثر الثنائيات جدلا داخل ثقافتنا العربية، والتي تبلورت ضمن سياق وعي خطاب النهضة بوضعية تخلفنا

**رواية «من يُبكي النوارس؟»: (ثنائية الاندماج/ والتبرير):**

دشنت رواية «من يبكي النوارس؟»[١]، منعطفا حاسما داخل مشهدنا الإبداعي، وذلك لاعتبارين:

أ ـ السياق التاريخي: صدرت الرواية ضمن سياق تاريخي إشكالي اتسم بغليان المنطقة، وانتفاضة الأقصى؛ وأزمة الخليج العربي؛ وسقوط نظام صدام حسين وإعدامه؛ واغتيال الحريري؛ وظهور الإسلام الراديكالي الذي تبنى العنف خيارا استراتيجيا؛ وهجوم القاعدة على البرجين (...). أحداث جسام وسعت حجم الشرخ، وعمّقت أحاسيس الانكسار على امتداد الجغرافيا العربية المحكومة بالقمع والاستبداد، وازداد سواد الصورة في مرآة الآخر، وتحولت الهوية إلى جريمة لا تغتفر، وارتفعت أصوات الإدانة، والتشكيك في الرموز الثقافية، والتاريخية، والدينية، ولم يبق أمام خطابنا العربي إلا التحصّن وراء بلاغة التبرير، بحثا عن براءة مستحيلة.

ب ـ السياق الفني والاستيطيقي: انشغلت رواية «المنصوري» بتخييل مأزق هوية المثقف العربي في مرآة الآخر، تخييل تمّ باحترافية إبداعية، وجمالية تنأى عن السرد التاريخي، والتناول الأطروحي، وتحاول جعل محكيات النص قادرة على تصوير تجربة مجموعة مهاجرين ينحدرون من أقطار مختلفة، ويتقاسمون الأمل، والطموح، لكنهم وجدوا أنفسهم يلهثون وراء البحث عن براءة مفترضة. وقد تمّ صوغ أحداث، انطلاقا من زاويتين فنيتين:

أ ـ استلهام النفس التقليدي مع رد الاعتبار للمحكي أو القصة؛

١ـ زهرة المنصوري، من يبكي النوارس؟ مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦





> تعرض رواية المنصوري تجربة شباب مهاجرين يعيشون وضعية القلق الوجودي المحكوم بأحاسيس الاغتراب وخيبة الأمل

ب ـ استثمار تقنيات السرد الحديثة، كالتعدد الصوتي والتهجين اللغوي؛ وتناوب الصيغ السردية، والضمائر النحوية؛ والحوار المعروض والمسرود؛ وإدماج خطاب الذاكرة في شكل محكيات ميتا سردية (...). وفتحت هاته التقنيات البنية السردية أمام تعدد المداخل القرائية، ودفعتنا إلى اعتبار النص كلية دلالية، والتعامل مع الشخصية باعتبارها وحدة دلالية تتناسل من خلال الجمل التي تقول أو تُقال عنها.[٢]

عموما، تعرض الرواية تجربة شباب مهاجرين يعيشون وضعية القلق الوجودي المحكوم بأحاسيس الاغتراب وخيبة الأمل. ولتقريب الدلالة، أقترح تقسيم الأحداث إلى لحظتين متتاليتين:

١- لحظة الحلم بالعودة، الحلم المستحيل لأسباب يتداخل فيها الاجتماعي بالاقتصادي والعاطفي، ومن المقاطع الدالة على تلك الرغبة، المقطع الوارد على لسان عبد العزيز هاشم في صيغة ملفوظ الحالة يقول: «آه بلادي، عَصَرَ الحنين وجداني، وملأ الشوق أعماقي... تعذبني الغربة والبعد... غياب السبعة عشر حولا لا يزيدني إلا تمسكا بالعودة... حضورك الدائم في الذاكرة بقدر ما ينعش مشاعري فهو يشلّ قدرتي على التفاعل مع الغير، والانفتاح على الآخر...» (ص٥، ص٦)[٣]، ويتكرر على المضمون نفسه على لسان مروان: «وطني، ما أبعد المسافة التي تفصلني عنك!! قطعت كل تلك الكيلومترات كي أصل إلى هنا... لكن ترى هل يوجد شيء يستحق هذا الاغتراب؟ وهل ما نربحه يوازي ما نتركه هناك؟» (ص ٧)، ويحسم صوت السارد، الداخل الحكائي، في مسألة العودة قائلا: «تنهدت زينب، وأحست بالحسرة على السنين التي قضتها في الغربة، فهل جنت فعلا ثمرة شيء أو سبرت غورا؟ استغربت سلوك المغادرين للأوطان، وهي منهم، فهم يعيدون ذويهم بالعودة السريعة، ويقسمون بأن الغرب للدراسة وليس للاستقرار. لكن العودة تظل حلما، وقد ينتظرها الأهل عمرا». (ص ٤٦)

نستنتج أن تكرار الملفوظات السردية من أجل الرغبة نفسها، خلق تنويعا بنيويا، ودلاليا أسهم في توسيع، وتثبيت حلم العودة مع استحالة تحققه، بإجماع من الأصوات السّردية، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي سفّهت الأحلام، ومسخت شخصية العربي في صورة «دراكولا» سفاك الدماء.

٢ ـ لحظة التحول من الرغبة في الاندماج إلى وضعية الدفاع عن الهوية، حيث تم توظيف محكيات الحبّ من مثل: محكي ألكس مع مريم؛ ونادين غاني مع مارسيل بطرس؛ والفلسطينية نجوى الألفي مع كريستوفر الأمريكي...وهي محكيات خلقت تضعيفا سرديا[٤]، وأسهمت في جعل الدلالة تنمو مثل بذرة، وليس مثل خط[٥]، لأنها لم تعكس إلا تجربة واحدة بصيغة الجمع.

من زاوية إضافية، نسجل حضورا بارزا لمحكي الذاكرة، وتم إدماجه في شكل بنيات ميتا- سردية؛ اضطلعت بوظيفتين مزدوجتين:

١. الوظيفة السردية: يعتبر محكي الذاكرة، والمقاطع المسترجعة، عبارة عن بنيات سردية تدخل في تشكيل معمارية النص، وتوسيع نواته التركيبية.

٢- Hamon PH. Sur un statut sémiologique Du personnage: in Poétique du récit. Seuil .١٩٧٧.P.١٢٥

٣- تحاشيا للتكرار، سأورد توثيق المقاطع الروائية المستشهد بها، داخل المتن التحليلي.

٤ـ Dallenbac (L): Claude simon. Ed. les contemporains.seuil.١٩٨٨. P ١٢٨

٥ ـ رولان بارت، درجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة المعرف، الجديدة، ص٤



٢. الوظيفة الشعرية: ويسميها «لوسيان دالنباخ» «الوظيفة المتعالية»[٦]، إذ تتعالق محكيات الذاكرة، بشكل مباشر أو بشكل ضمنيّ، بالدلالة العليا للنص، وتختلف طبيعة التّعالق باختلاف المقاصد، فقد تأتي لغايات التوضيح، وإضاءة الجوانب الخفية من ماضي الشخصيات وكشف مواقفها الفكرية والوجدانية، وأحيانا يتمّ توظيفها للكشف عن حقيقة ما من جهة السّلب، أو البرهنة بالخلف على حدّ تعبير المناطقة.

وعليه، أضحت محكيات الاسترجاع، داخل النص، آلية سيكولوجية؛ تلجأ إليها الأصوات السردية للتخفيف من جموح لا شعورها، وتتمكن من استعادة توازنها الذاتي، لأن التذكر غالبا ما «يعبر عن استمتاع الجسد الموشوم بالتوتّرات والضغوطات»[٧]، من قبيل تلك التي كانت وراء نكوص الشخصيات وتحصنها بالماضي، في أفق امتلاك القدرة على إنتاج خطاب تبريري قادر على إثبات براءتها.

تعيد رواية «روائح ماري كلير»، تخييل صورة المهاجر الذي يؤمن بقيم الغرب ظاهريا، ولكنه لا يرى، في مرآته، إلا صورة ماضيه



**رواية «روائح ماري كلير»: (البحث عن صورة الأم):**

ارتباطا بما سبق، نقارب رواية التونسي الحبيب السالمي «روائح ماري كلير»[٨]، التي شكلت علامة فارقة على المستويين، الأسلوبي والثيماتيكي، إذ تفتح باب القراءة أمام خيارات تحليلية متعددة؛ اخترنا منها السّند السيكولوجي، اعتقادا منا بإجراءاته المنهجية والابستمولوجية المساعدة في تفكيك علامات النص، ورموزه.

تفعيلا للمقاصد نقول، إن محكيات النص قد وصلتنا عبر سارد من داخل الحكاية. إنه صوت محفوظ، الشاب الذي هاجر إلى فرنسا لإنجاز الدكتوراه، والمنحدر أصلا، من قبيلة «المخاليف» التونسية، وهو من تولى سرد تفاصيل المعاشرة concubinage التي جمعته بالفرنسية ماري كلير، معاشرة امتدت بين لحظتين متقابلتين، زمن الوصال، ولحظة الانفصال. وعلى امتداد المرويات السردية لتفاصيل العلاقة، سيكتشف القارئ حجم التناقض، والتباين الفاصلين بين نموذجين ثقافيين مختلفين جذريا، تناقض ظل يشوّش على التجربة إلى أن انتهت بالفشل، وفشل معها المسار السردي أيضا.

بهذه التفاصيل، صورت الرواية شخصية السارد، الصوت العربي المهاجر، والحاصل على الدكتوراه في الأدب العربي، امتهن التدريس وخدمة الفنادق، هروبا من حكام يحجزون «جوازات كل الذين يعودون إلى تونس، بعد فترة طويلة من الإقامة خارجها للتأكد من أن عقولهم لم تتلوث، وأن حبهم للوطن لا يزال صادقا» (ص ١٦). وتقوده الصّدفة إلى لقاء ماري كلير، والعيش معا، وعبر التفاصيل اليومية، نكتشف حقيقة الاختلاف بينهما في المواقف، والسلوك، والتفكير. وعبر التقدم في التجربة، تتجلي بصمات شخصية السارد المريضة، وتطفو عقده النفسية، واللاشعورية، إذ بقدر ما يسعى إلى التحرر، والاندماج في ثقافة الآخر، بقدر ما تتجلى ملامح ازدواج شخصيته من خلال: تفضيله المعاشرة على الزواج؛ وشرب الخمر؛ وأكل لحم الخنزير. ولكنه يعيش في الوقت نفسه سجين تقاليده العربية، فكانت المعاشرة سبيلا لفضح درجة الاختلاف بينهما في الوظائف الرمزية.[٩]

٦ـ Dallenbach (L): Le récit spéculaire, Essai sur la mise en abyme. Ed. seuil ; ١٩٧٧. P ٣٤

٧ـ جان لاكان، التحليل النفسي والطب، مقال منشور في: رسائل المدرسة الفرويدية بباريس، العدد ١. مارس. ١٩٦٧. ص٤٧

٨ـ الحبيب السالمي، روائح ماري كلير، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩

٩ـ كاترين كليمان، التحليل النفسي، تعريب: د. محمد سبيلا، حسن أحجيج، سلسلة ضفاف، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠



أضحت محكيات الاسترجاع، داخل النص، آلية سيكولوجية؛ تلجأ إليها الأصوات السردية للتخفيف من جموح لا شعورها، وتتمكن من استعادة توازنها الذاتي

لقد استثمرت الرواية، لتصوير وضعيات التناقض، والازدواجية، تقنيات فنية، وسردية مختلفة منها: إدماج محكي المونولوج الذي يعكس جوهر ذات السارد، لأن الذات لا توجد إلا «بين عناصر اللغة التي تتكلّمها»[١٠]، وعبر اللغة، نكتشف التناقض الكائن بين الظاهر والباطن، دليلنا على ذلك المقطع السردي التالي الذي يقول فيه السارد: «الشيء الوحيد الذي يزعجني هو الذهاب إلى المطعم، فأنا لم أفهم إلى حد الآن، كل هذا الاحتفاء الجماعي بالطعام، الذي من المفروض أن يتناوله الإنسان بتواضع، بل؛ وبشيء من الاحتشام، لأنه نعمة ربي كما تقول أمي» (ص. ٣٢)، وفي الوقت الذي تعتني فيه ماري كلير بأظافرها، يهمل تقليم أظفاره دون أن ينتبه إليها.(ص. ٩)

إن شخصية «ماري كلير» مُحبّة للحياة، لذلك، تصرّ على الاحتفال بأعياد الميلاد، في مقابل لا مبالاة السارد، ونزعته التشاؤمية من مناسبة تقرّب الإنسان «كل عام من الموت» (ص. ٩١)، أضف إلى ذلك، ارتيابه في صحة تاريخ ميلاده، وهو المنحدر من بنية اجتماعية لا تهتم بضبط تواريخ ميلادها. وفي الوقت الذي تعتبر فيه «ماري» العطلة كلمة ذات وقع عجيب، وسحري ترادف متعة السفر، يرى معاشرُها العربيّ، في العطلة، معادلا لـ «التوقف عن العمل والبقاء طوال النهار في البيت للاستراحة أو التجول في الشوارع ومشاهدة الأفلام والتفرج على الناس في الحدائق العامة». (ص. ١٣٨)

تزداد ملامح الشخصية وضوحا مع محكي الذاكرة والحلم، محكيات تأخذ، على حدّ تعبير لاكان، شكل استعارات سردية تعكس في بعدها التأويلي نزعة القلق، والعنف، حيث يقول السارد؛ مسترجعا بعضا من ممارساته السادية: «كنت أحفر بيدي الأرض الندية بحثا عن الدود.. أنصب تحت أشجار الزيتون فخاخا للسمان، والقنابر، والزرازير، وعندما أقبض عليها أشويها على الجمر بعد أن أنتف ريشها، واقطع رؤوسها الصغيرة بشفرة حلاقة صدئة (...)، أبول في حفر صغيرة، فتخرج منها عقارب سوداء، وصفراء، أطاردها، فتركض في كل الاتجاهات، وهي تحرك ذيولها، باحثة عن حفر أخرى، تختفي فيها أو صخور تحتمي بها، أحاصرها ثم أصبّ عليها شيئا من الكاز، وأشعل فيها النار، وأظلّ أراقبها، وهي تقاوم إلى أن تلسع نفسها، وتموت بسمها...». (ص. ٣٦)

لقد جسّدت محكياتُ الاسترجاع إذاً، جزءاً من النسيج السردي، وعملت على توطيد صور التناقض الفاضح بين الشخصيتين: فذاكرة ماري كلير لم تكن تسترجع إلا السناريوهات المشرقة؛ تعبيرا منها عن رغبة لاشعورية في الحفاظ على تناغمها السيكولوجي، وعلى علاقة الاتصال بين لحظتين فارقتين من حياتها «تصبّ الأولى في الماضي، والثانية في الحاضر»[١١]، خلافا لذاكرة السارد التي كانت تسترجع الذكريات المهينة، والعسيرة، والمؤلمة[١٢]، فلم يكن التذكر، بالنسبة إليه، وسيلة لتحقيق المصالحة مع ذاته، وتطهيرها من رواسب الماضي، بل تحُول إلى آلية للتقوقع لحماية الذات من التلاشي، والضياع.

١٠ـ كاترين كليمان، التحليل النفيسي، تعريب: د. محمد سبيلا، حسن أحجيج، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص٣٧

١١ـ Bergson (H(. L'énergie spirituelle. La conscience et la vie. Ed PUF. Paris. P١٠٢

١٢ ـ Freud (s(. Ma vie et la psychanalyse. Idées. Gallimard. P٣٧





تعمل رواية الحبيب السالمي على تبرير مسار المثقف خلال مرحلتين تاريخيتين، وضمن الثنائية المستعصية نفسها: الانفتاح، والحوار، والصراع مع الآخر

على هذا النحو، تعيد رواية «روائح ماري كلير»، تخييل صورة المهاجر الذي يؤمن بقيم الغرب ظاهريا، ولكنه لا يرى، في مرآته، إلا صورة ماضيه، وهو ما جعل شخصيته تعاني الاختلال، فيما شكل حبه لماري كلير مجرد تعويض لصورة الأم البيولوجية التي حرمه الموت من عاطفتها، وحُرم من العمليات الإيروسية التي «تتحكم لذى الأم، والطفل في التعبير عن المتعة»[١٣]، وهو ما جعله ينتيئ برائحة عرق ماري الممزوج بالعطر، ويطيل التأمل في جسدها، وحركاتها المثيرة التي ساعدته على الانتعاظ، وبلوغ النشوة، وحررت عقله من قيود التقاليد البدوية، وساعدت جسده البكر، عبر الفعالية الرمزية[١٤]، على الممارسة الجنسية، بعدما ظل عنينا جراء عقدة الإخصاء داخل بنيته البدوية ذات النظام الأبيسي.

لقد تحولت صورة ماري كلير إلى نسخة مطابقة لصورة الأم، إذ إنه على يديها، سيعرف ولادته الثانية، كما يعترف بذلك قائلا: «كأن جسدي يولد من جديد. أحسّه يتخلص من كل ما كان يكبله ويشله، والحرمان الذي تراكم في طوال أعوام أشعر به يذوب كالثلج، إلا أن المثير حقا هو أني صرت أرى جسدي بشكل مختلف، أتلمسه بدون أي إحساس بالحرج، أنظر إليه بدون خجل، أتحدث عنه بجرأة، وبدون مواربة». (ص ٨٣)

لاشك إذن، أن معرفة السارد لذاته تمّت عبر الآخر، لكنّ إيمانه اللاشعوري بسمو، وتفوق صورة الغربي، جعله مستلبا أمام شخصية «ماري كلير» يسعى لإرضائها فقط، محتميا بماضيه وذاكرته، ازدواجية عمّقت من زلاته، وارتباكه، وحجم أخطائه في حقها.

وعليه، يمكن القول، إن بطل رواية «روائح ماري كلير»، صورة مناقضة لبطل «موسم الهجرة إلى الشمال»[١٥]. وبالرغم من هذا التباين إلا أن رواية الحبيب السالمي تحمل، في اعتقادنا، المقاصد نفسها التي استنبطها الناقد المغربي محمد برادة ولخصها في: «تبرير مسار المثقف خلال مرحلتين تاريخيتين، وضمن الثنائية المستعصية نفسها: الانفتاح، والحوار، والصراع مع الآخر، ومن جهة ثانية، استيعاب الموروث الاجتماعيّ، الدينيّ، والثقافي، ومجاوزته باتجاه بلورة أطروحة تركيبية تجعل الاستئناف ممكنا في عالم سريع التبدل».[١٦]

### رواية «في قلبي أنثى عبرية» ثنائية الصراع الديني:

تقوم رواية «في قلبي أنثى عبرية»[١٧] على خاصية انشطار المحكي وتكسير الخطية السردية باعتماد تقنية سينمائية تقوم على صيغة التناوب في تصوير المشاهد، والسيناريوهات التي تبدو متباعدة، وفي وضعية استقلال تامّ، مع وجود حوارية بين السجلات التاريخية والدينية، وهو ما جعل أسلوب الرواية يوغل في التّصدع، ويهدد الدلالة العليا بالتوتر، والانقطاع، ومن أهمّ التقنيات الموظفة داخل المنجز الروائي؛ تقنية التوازي الحكائي الذي اتّخذ شكل صراع بين محكيين مركزيين:

---

١٣ـ كاترين كليمان، التحليل النفسي، ص. ٧٠

١٤ـ استعرنا مفهوم الفعالية الرمزية من ليفي ستروس ويعني به "الفعالية الرمزية التي تعني تأثير الرمزي على الجهاز العضوي" نظر: كاترين كليمان، التحليل النفسي، ص٦٣

١٥ـ الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة لبنان، ١٩٦٦

١٦ـ محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد، كتاب دبي الثقافية، الطبعة الأولى، مايو ٢٠١١، ص. ١١٧

١٧ـ خولة حمدي، في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، الطبعة العاشرة. ٢٠١٣



تأسس المنجز الروائي على قاعدة تعدد المحكيات، وتباين الأصوات السردية، وهو منجز يثير انتباه المتلقي إلى خصوصياتها الشكلية



المحكي الأول: محكي الطفلة المسلمة «ريما»، التي تبناها «يعقوب» رب أسرة يهودية من أصول تونسية، وفاء لذكرى والدتها، وأحبها أكثر من أبناء صلبه، لكنه تخلى عنها مضطرا؛ تحت ضغط زوجته اليهودية المتعصبة؛ التي تعللت، في تخلصها من البنت «ريما»، بالحرص على حماية عقيدة أبنائها. ويمكننا تفسير أسباب فشل المحكي في البداية المتشددة لـ»ريما»، وتصلب مواقفها الدينية التي أسقطتها في ثنائية الحب/ والنفور، فهي تحبّ «يعقوب»، وتخاف عليه، لكنها تنفر من هويته اليهودية، كما يتّضح ذلك، في الحوار المعروض:

« ـ أنا خائفة عليك، لا أريد أن تذهب إلى النار.
ـ (...).
ـ ولكن يا صغيرتي... ألم نتفق أن لك دينك... ولي ديني. ونحن نؤمن بإله واحد؟.
ـ (...).
ـ من الذي قال ذلك؟ هل هو الشيخ؟
ـ بل القرآن هو الذي يقول ذلك». (ص ١٨)

نتيجة لذلك، دبّ الخلاف، والنفور في علاقة «ريما» بأسرتها، وبأبيها الذي قرر إبعادها إلى لبنان، لتعيش متنقلة بين الأسر اليهودية، تعاني القهر، والاضطهاد، والتحرش الجنسي، لينتهي المسار السردي بالفشل، وإقفال دائرة المحكي مع نهاية «ريما» التراجيدية.

المحكي الثاني: هو محكي تواصل إلى نهاية المنجز الروائي، محكي «ندى» الفتاة اليهودية، الذي قلب المحتوى الدلالي[18]، إذ تعكس ندى صورة اليهودية المنفتحة، المؤمنة بقيم الاختلاف، ومشروعية الانتفاضة (ص ٢١)؛ لم يكن الاختلاف الديني حاجزا أما حبها لأحمد المسلم، المنخرط في المقاومة اللبنانية ضد الكيان الإسرائيلي. أسلمت عن قناعة، وبعد تفكير عميق. وارتهن نجاح المسار السردي بعودتها إلى أحمد، بعد غيابه الطويل، بسبب فقدانه الذاكرة. وتم إقفال الدائرة السردية، بعد سلسلة من التحولات الإيجابية تمت بإسلام أشدّ الفواعل (الخصوم) تعصبا، ومعاكسة لنجاح المسار السردي، ويتعلق الأمر بكل من «يعقوب» وزوجته «تانيا»؛ و«سونيا» والدة ندى.

لقد تأسس المنجز الروائي على قاعدة تعدد المحكيات، وتباين الأصوات السردية، منجز يثير انتباه المتلقي إلى خصوصياتها الشكلية[19] الدالة في مستواها السطحي على التفكك، والاستقلالية. أما على المستوى العميق، فتمتد شبكة التواصل السردي، ويتحقق الانسجام على أساس استراتيجيات عدة منها، وحدة الصوت السردي داخل المحكيين، وحضور الشخصيات نفسها، ووحدة الزمان، والفضاء، وإعادة تكرار تخييل الثيمة نفسها، وهو ما يجعل التوازي الحكائي: «عاكسا لأبعاد الاتفاق الكائن بين مجموعة من الأفعال والأحداث المتعددة»[20]، ولتقريب علاقات التواصل السردي، نعتمد الإجراءات التصورية للبلاغة النوعية للسرد، إذ قاربت

١٨- De beaugrand and Dressler: Introduction to text linguistics. Longman. London and New york.١٩٨١. P.٥١

١٩- Krysinski.)V(. carrefour des signes. Ed. Mouton. Paris. ١٩٨١. P. ٤١

٢٠ـ idem. P. ٥٢

المحكيات المنشطرة باعتبارها استعارات بنيوية[٢١] تسهم في توسيع معمارية المحكي الإطار وتقديم «إضاءة فعلية لبناء هوية الخطاب الروائي».[٢٢]

ومنه، نعتبر تعدد المحكيات استعاراتٍ واقعةٍ تحت وصاية السّرد، والدلالة الكليّة للنص، والقائمة هنا، على تجسيد الصّراع الكائن بين الصورة، والصورة المضادة؛ أي الإسلام/ واليهودية. فالرواية صوّرت الإسلام على أنه دين الحق، والعدل، والتسامح، والحوار، والمساواة. ومن المحكيات التي عكست تلك الصورة المشرقة، بشكل مصغر، محكي «ريما»، فهي رمز لاضطهاد المسلم، وإذلاله، حيث تتأكد هاته الوضعية من خلال المقطع الحواري الدائر بين يعقوب، وعاملة المصنع الذي يوضح حقيقة التمثل السالب الذي يحمله اليهودي عن الإسلام، والمسلمين. (ص ١١٤ ص ١١٥)

لقد دفعت، نصاعة مرآة الإسلام، بعض الشخصيات (يعقوب، زوجته تانيا؛ ندى؛ وسونيا) إلى اعتناق الإسلام، بعد ما كانوا أشد كراهية له.

أما اليهودية؛ فتم تصويرها على أنها دين التعصب؛ والبخل؛ والكراهية؛ دين يحط من كرامة المرأة، وحرمانها حتى من لمس التوراة «بسبب نظرية النجاسة الأبدية للمرأة عند اليهود» (ص ١٠٦ و١٠٧). وتعكس محكيات اليهود، في الرواية، صور التعصب. فـ«تانيا» مثلا لم تمنعها أمومتها عن كراهية ريما، ونفيها حفاظا على معتقد أبناء صلبها، ولم يتردد زوج راشيل في التحرش بالطفلة ريما، وتعذيبها، بينما يأتي محكي سونيا ليعمق صورة كراهيتها للمسلمين، والمسيحيين أيضا، إذ رغم «زواجها من رجل نصراني، إلا أن رواسب من النفور تبقت في نفسها من النصارى، ورغم ما تدعيه من الانفتاح والتفهم، فهي تنفر من كل من يختلف معها في العقيدة». (ص ٥٧)

تبعا لما سبق تسجيله، نحصر وظائف التعددية، والتنوع الصوتي في وظيفتين:

١. الكشف: تم عبر إجراءات تضعيف المحكيات، والأصوات السردية التي تعكس الصورة الإيجابية للإسلام، في مقابل الصورة السلبية لليهودية.

٢. التناقض: اضطلعت هذه الوظيفة بتشتيت الوحدة المجازية للمحكي الإطار في سبيل تنظيمه استعاريا.[٢٣]

وظيفتان أسهمتا في انسجام النص، ومد شبكة تواصله السردي. ولن نبالغ إذا صرحنا بنجاح خولة حمدي في تحويل صورة الإسلام إلى مرآة صقيلة تنعكس على صفحتها عصبية الآخر «اليهودي»، وتمثله السلبي للمختلفين عنه.

٢١ـ Ricardou.) j(. Problème du nouveau Roman. Seuil. ١٩٦٧. P. ٣٧

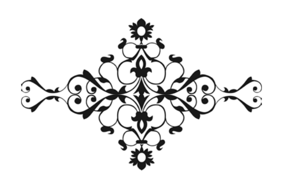
٢٢ـ Dominique (M). La fenêtre et le miroir. Paris. ١٩٩٢. P. ١٨

### المصادر والمراجع العربية:


- بـارت. رولان. درجـة الصفـر للكتابـة، ترجمـة محمـد بـرادة، الشركـة المغربيـة للناشريـن المتحديـن، مطبعـة المعـرف، الجديـدة.
- برادة. محمد. الرواية العربية ورهان التجديد. كتاب دبي الثقافية. الطبعة الأولى. مايو ٢٠١١
- حمدي. خولة. في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، الطبعة العاشرة. ٢٠١٣
- السالمي. الحبيب. روائح ماري كلير، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩
- صالح. الطيب. موسم الهجرة إلى الشمال. دار العودة. لبنان. ١٩٦٦
- ـ كليمـان. كاتريـن. التحليـل النفسـي، تعريـب: د. محمـد سـبيلا، حسـن أحجيـج، سلسـلة ضفاف، منشـورات الزمـن، مطبعـة النجـاح الجديدة، الـدار البيضـاء، ٢٠٠٠
- لاكان. جـان. التحليـل النفسـي والطـب، مقـال منشـور في: رسـائل المدرسـة الفرويديـة بباريـس، العـدد ١. مـارس/آذار ١٩٦٧
- المنصوري. زهرة. من يبكي النوارس؟ مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. الطبعة الأولى. ٢٠٠٦
- هيجـل. فريديريـك. مقدمـات فلسـفية. الـدرس الثـاني، الترجمـة الفرنسـية. م. كانـدلاك. منشـورات مينـوي. ١٩٦٣


### المصادر والمراجع الأجنبية:


- Bergson (H(. L’énergie spirituelle. La conscience et la vie. Ed PUF. Paris.
- De beaugrand and Dressler. Introduction to text linguistics. Longman. London and New york.١٩٨١
- Dominique (M). La fenêtre et le miroir. Paris. ١٩٩٢
- Dallenbach (L): Le récit spéculaire, Essai sur la mise en abyme. Ed. seuil; ١٩٧٧
- Dallenbach (L): Claude Simon. Ed. Les contemporains. seuil.١٩٨٨
- Freud (s(. Ma vie et la psychanalyse. Idées. Gallimard, paris, France, ١٩٦٨
- Hamon (PH(. Sur un statut sémiologique Du personnage: in Poétique du récit. Seuil. ١٩٧٧
- Krysinski. (V(. carrefour des signes. Mouton. Ed. Paris.١٩٨١
- Ricardou. ( j(. Problème du nouveau Roman. Seuil. ١٩٦٧





بقلم:
د. سهير المصادفة *
كاتبة وباحثة مصرية



# الكتابة والمنفى
## منفية من جنسي... منفية إلى جنة الكتابة

* دكتوراه في الفلسفة، وروائية مصرية من أعمالها: ديوان "هجومٌ وديع"، ديوان "فتاةٌ تجرِّب حتفَها"، رواية "لهو الأبالسة"، رواية "ميس إيجيبت"، رواية "رحلة الضباع"، رواية "بياض ساخن"، رواية "لعنة ميت رهينة".

في أوائل تسعينيات القرن العشرين، قررت أن أهاجر إلى بلد بعيد، وأظل هناك إلى الأبد لأكتب، كنت قد قرأت: «أجنحة متكسرة»، و«النبي»، و«الأرواح المتمردة» لكاتب المهجر الشهير: «جبران خليل جبران»، وكنت مفتونة به، فارتبطت الكتابة لديَّ آنذاك بالمهجر أو المنفى كما نطلق عليه الآن، وقلت لنفسي أيضًا: مع مكانة الكاتب المالية والأدبية في العالم العربي، لن أستطيع أبدًا مواصلة الكتابة، وإنجاز مشروعي الإبداعي، علاوة على كل ما لاقيته، طوال فترة دراستي الأولى ومنذ المرحلة الإعدادية، حيث عرفت جيدًا أنني ابنة ثقافة عربية تكافح، منذ قرون لتجاوز عادات، وتقاليد تحاصر المرأة، وتزدريها، وتحدد لها أدوارًا يمكننا إحصاؤها على أصابع اليد الواحدة، لن أنسى أبدًا سخرية مدرس العلوم في العام الأوَّل من هذه المرحلة، وكنت أقرأ خربشاتي، وبعض الأبيات الشعرية لرفيقاتي، فقال لي ولهنَّ: هل أسمعكنَّ قول «ابن أبي الثناء» في الإصابة في منع النساء من الكتابة؟

وانطلق بحماسٍ، وبصوت مقرئ القرآن في المدافن يقول: «أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئًا أضر منه بهنَّ، فإنهنَّ لما كنَّ مجبولات على الغدر، كان حصولهنَّ على هذه المَلكة من أعظم وسائل الشر والفساد، وأما الكتابة فأوّل ما تقدر المرأة على تأليف الكتابة بها، فإنه يكون رسالة إلى زيد، ورقعة إلى عمر، وبيتًا من الشعر إلى عزب، وشيئًا آخر إلى رجل آخر، فمثل النساء، والكتب، والكتابة، كمثل شرير سفيه تهدي إليه سيفًا أو سكير تعطيه زجاجة خمر، فاللّبيب من الرجال مَن ترك زوجته في حالة من الجهل، والعمى؛ فهو أصلح لهنَّ وأنفع».[١]

> في أوائل تسعينيات القرن العشرين، قررت أن أهاجر إلى بلد بعيد، وأظل هناك إلى الأبد لأكتب

كنتُ لا أعرف أيّامها ما معنى الوهابية التي انتصرت على هوية مصر الإبداعية والفنية، منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين، وكنت أتابع فحسب، التغير المجتمعي الكبير: تحجيب الفنانات اللاتي أحببتهنَّ، شكل الجامعة التي دخلتها، وتحول ألقاب النساء التي كانت: «مدموازيل»، و«آنسة»، و«مدام»، و«هانم» أو «أستاذة»، و«دكتورة» إلى لقب: «الحاجة» لمَن هم بعد الثلاثين من أعمارهن، أو «أختي» للفتيات الصغيرات، وتكاثر أشباه مدرس العلوم ذاك، وقتها عرفت أنهم جميعًا، ينتمون إلى مذهب محمد عبد الوهاب[٢] المتطرف، وعرفت أنهم حتمًا سيسقطون، بعد حين، مهما واصلوا نجاحاتهم في محو هوية مصر. ومع أوّل فرصة جاءتني، سافرت إلى موسكو لاستكمال دراستي، وإعداد نفسي لأظل في الخارج.

قرأت بهوس كلَّ الأدب الروسي الكلاسيكي، ومشيت في الشوارع التي مشى فيها دوستويفسكي، وتشيخوف، وجوجل، وبولجاكوف، وبوشكين، وكنت قد جهزت ديوانين للطبع هما: «هجومٌ وديع»، و«فتاةٌ تجرِّب حتفها»، وبدأت في كتابة أولى رواياتي: «لهو الأبالسة»، ولكنني توقفت بعد انتهاء الفصل الأوَّل من الرواية،

١- مقولة قديمة لخير الدين نعمان أبي ثناء الألوسي، وردت في مخطوطة كتبها سنة ١٨٩٨م، حول "الإصابة في منع النساء من الكتابة".

٢- محمد بن عبد الوهّاب بن سليمان التميمي (١١١٥ - ١٢٠٦هـ) (١٧٠٣م - ١٧٩١م): عالم دين سني على المذهب الحنبلي، يعتبره أتباع دعوته من مجددي الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، حيث شرع في دعوة المسلمين للتخلص من البدع، والخرافات وتوحيد الله، ونبذ الشرك. ولد في العيينة، وسط نجد سنة ١١١٥ هـ الموافق من عام ١٧٠٣م، لأسرة ينسب إليها عدد من علماء الدين، كان جدُّه سليمان بن علي بن مشرف من أشهر العلماء في الجزيرة العربية في عصره. تعلم القرآن الكريم، وحفظه عن ظهر قلب وعمره عشر سنين، وقرأ على أبيه في الفقه، وتذكر مصادر الترجمة أنه كان مشهوراً حينئذ بحدة ذهنه وسرعة حفظه وحبه للمطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام. سافر إلى مكة والمدينة لتحصيل المزيد من العلم عبر منهج التلقي عن مشايخه. والتقى في سفره بالعديد من العلماء، ودرس على يد الشيخ عبد الله بن سيف والشيخ محمد حياة السندي، فأخذ عنهم بقية علومه، ثم توجه إلى الأحساء فأخذ عن شيوخها، وزار البصرة وبغداد؛ حيث اطلّع على علوم التصوف وفلسفة الاستشراق، وأنكر على كثير من العلماء ما سمعه من العلوم التي لا تتفق مع الإسلام - حسب فقهه للإسلام - وشرع في الدعوة إلى العودة إلى الإسلام، كما فهمه العرب الأوائل. توفي في العيينة عام ١٢٠٦هـ



وفتحت نافذتي على الثلج المتراكم أمامها في ليلة رأس السنة، وأخذت ــ حرفيًّا ــ أتشمم هواء البرد القارس، علَّني أستطيع اقتناص ذكرى لرائحة نسمات برد ديسمبر في مصر، ولكنني لم أشمّ شيئًا، بل شعرت ببرودة في دمي، وبرودة النص على طاولتي، وكأنه أصبح جثة هامدة، صارت ذاكرتي صفحة بيضاء، وكنت لا أرى أمامي إلا الثلج، وهو يعيد تشكيل نفسه إلى ما لا نهاية، اختفت أصوات الباعة الجائلين، وضجيج شوارع القاهرة التي لا تنام، وأبواق السيارات المزعجة، وصوت الأذان المتكرر خمس مرات في اليوم، ونواقيس الكنائس، ومذاق رياح الخماسين؛ وهي تكاد تقتلع جسدي النحيل من الأرض اقتلاعًا، صهيل أجساد المارين الحار الذي يدفعهم دفعًا إلى المشاجرة طوال ساعات النهار.

ظللت أنظر حولي كما لو كنت أشاهد فيلمًا طويلًا صامتًا، وانقطعت عن مواصلة كتابة روايتي الأولى، وانهمكت أكثر في تعلم اللغة الروسية، والاندماج في مجتمع جديد، ومحاورة مَن تركوا بلدانهم قسرًا أو طواعية من أجل الفن والكتابة، حدثوني وقتها عن إثراء الذكريات بالابتعاد عنها، واستعادتها مرة ثانية حيَّة، وعن تلاقح اللغات، والحضارات، والحدود، وعن سموّ الكاتب عن الانغماس في تربة واحدة ليصير شجرة راسخة لا تتحرك، عن مقارنة الكاتب في المنفى ــ الذي يشبه نسرًا محلقًا في الآفاق ينظر إلى الكرة الأرضية من علٍ ــ بمجرد كاتب يشبه نخلة لا ترى إلا ما يحيط بها مهما كانت سامقة، ممَّا يجعله أسير معطياته الفقيرة التي ستحدد رؤاه، عن مجد الكاتب المنفي الذي عرف مبكرًا أن الإنسان واحدٌ في الكون الفسيح، أحزانه، وأفراحه، وأحلامه، وتوقه إلى المحبة، والجمال، والسلام واحدة، ولذلك، فالكاتب المنفي أفضل وأرحب رؤية، وأكثر تسامحًا، حيث تخلص من الشوفينية، ويقين التميز المُخل، وعجرفة المحبوسين في مكان واحد إلى الأبد.

> كنت أعمل كلّ يوم على نفي نفسي من جنسي كامرأة، وأكافح من أجل الحصول على غرفة تخصني وحدي لأكتب



كنت، دون أن أشعر، أعمل كلّ يوم على نفي نفسي من جنسي كامرأة، وأكافح من أجل الحصول على غرفة تخصني وحدي لأكتب، وفقًا لنصيحة الكاتبة الرائدة العظيمة «فرجينيا وولف»[٣] تقول في كتابها البديع: «غرفة تخصُّ المرء وحده»[٤]: «لو عشنا قرنًا، وأصبح لنا خمسمائة من الجنيهات في السنة لكل منا، وغرفة لكل منا، ولو أصبحت لنا عادة الحرية والشجاعة أن نقول بالضبط، ما يدور في خلدنا، ولو هربنا من غرفة الجلوس المشتركة، ورأينا البشر لا في علاقاتهم بعضهم بعضًا، ولكن في علاقتهم بالواقع، وكذلك علاقاتهم بالسماء، والأشجار أو كائن ما كان أو أنفسهم... لو واجهنا الحقيقة أننا نمضي وحدنا بلا ذراع نستند إليه، وأن علاقتنا هي عالم الحقيقة، وليس عالم الرجال، والنساء، فسوف تحين الفرصة، وتفيق الشاعرة الميتة التي كانت أختًا لشكسبير، وترتدي جسدًا».[٥]

ولكي أحقق ذلك، كنت أتنازل يومًا بعد يوم، عن جزء من تكويني كامرأة، تخلَّصت من رغبة الأنثى أن يدللها رجلٌ ما بالأساور، والعقود، والرحلات، ودعوات الغداء والعشاء بالخارج، والسفر أو حتى الكلمات الحلوة، حيث اكتشفت أنني أنا الكاتبة، صاحبة الكلمات، تخلّصت من عادة الأنثى العربية بالنوم حتى الظهيرة؛ حفاظًا على راحتها وجمالها، وأخذت أعمل دون كلل أو ملل، وأنا ألقي على قارعة الطريق كل ما يعوقني من إرثي النسويّ، وبعد سنوات، وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام الحقيقة: لقد نفيت نفسي عن جنسي كامرأة، وأصبحت منبوذة من مجتمع ذكوري متجهم، أعضاؤه من النساء والرجال على حدٍّ السواء،

٣- فرجينيا وولف (١٨٨٢ ــ ١٩٤١)، كاتبة إنجليزية شهيرة، ومن أهم رواد الأدب الحديث في القرن العشرين.

٤- فيرجينيا وولف: "غرفة تخصُّ المرء وحده"، ترجمة، سمية رمضان، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ٢٠٠٩م. ص. ٢٠٩

٥-A room of one's own، مقالة مطولة نُشرت عام ١٩٢٩





> عرفت، منذ وقت مبكر أنه لا بديل أمامي إلا القفز بخطوات واسعة في كل مجالات المعرفة

صرت غريبة عن بنات جيلي وقريناتي في كل المراحل الدراسية، فأنا أقرأ طوال الوقت، وأسافر بعض الوقت لاكتشاف العالم من حولي، ولا أدع شيئًا يمرّ بسلام أمامي، دون أن أستوقفه، وأتأمله جيدًا، فتثور مشاعري إزاءه، وأكتب دون توقف، وأعمل، في الوقت نفسه، حتى يكون لي مبلغ شهري أعيش منه، أيضًا وفقًا لنصيحة «فرجينيا وولف».

يؤكد الناقد الألماني «ماونتير»: «إن الاستخدام الفني والإبداعي للغة هو من أهم ما يميز الرجال، أما النساء فهنّ استخدمن فقط، وكررن ما صنعه الرجال، ويرجع ذلك إلى أن المرأة دائمًا ما تحصل على تعليم أقل، وتكتسب مهارات أقل من الرجال».[٦]

ولا أملك ــ مثلي مثل «فيرجينيا وولف» ــ إلا موافقته نسبيًّا، حيث تساءلت «فرجينيا وولف»: «ولماذا لم تستطع الأمهات تعليم بناتهنّ، مثلما فعل الآباء مع أبنائهم ؟».

خرجت المرأة لتتعلم، وتعمل، وتكتسب تجارب ومهارات، وتستمتع بحريتها منذ أقل من قرن من الزمان، والحقيقة أنها حققت الكثير في فترة زمنية قصيرة، مقارنة بقرون طويلة امتلك فيها الرجل حريته كاملة غير منقوصة، فدرس الطب، والفلك، والرياضيات، وفنون الحرب، ومارس القتل، والعشق، والحكم، والغزو، والكر، والفر، وقضم قشرة الأرض، واخترق قبة الفضاء، ونام في الغابات وحده ليالٍ طوال، فتعلم أسماء الأشجار، والنباتات، والطير، وخرج للصيدّ؛ فرأى كيف تنعكس الشمس كل ثانية من وجودها في السماء على قرون الوعل بألف طريقة وطريقة، وأنجب عشرات الأطفال من عشرات النساء، وتركهم خلفه مع أمهاتهنّ لتعتني بهم، وتخدمهم طوال الوقت، حتى يشتد ساعدهم، فيغزون السير وراء آبائهم ويواصلون اكتشاف العالم، وتابع ظلال الحيوانات، والزواحف تحت ضوء النجوم والقمر، واعتزل الحياة في أحد الكهوف ليفكر في شؤون الكون، ويطرح ما يؤرقه على القمر، والشمس، والجبال، وعرف ملمس الهواء عند الجَزر، ورائحته عند المد، وركب الأمواج، ودخل بيوتًا غريبة عنه دون أن يسأله أحدٌ: «لماذا؟»، واختبر حلاوة المعرفة، وصلابة الوحدة، وجاب الصحارى، وتاه فيها مجرّبًا الحدَّ الفاصل بين الحياة والموت.

عرفت، منذ وقت مبكر، أنه عليَّ قطع هذه القرون التي قطعها الرجل في سنوات، وأنه لا بديل أمامي إلا القفز بخطوات واسعة في كل مجالات المعرفة. أرفع رأسي عن ملاحقة جغرافيا الأرض، وتاريخها، ومذاهبها الفلسفية، وناسها الذين مروا من هنا، ولم يعيشوا، ولم يتمكنوا حتى من الشكوى، أتحسّس رأسي بعد نشر كل عمل، وأحمد الله أنها ما زالت في مكانها، أتابع ما يكتبون عن إنجازات المرأة ككاتبة، فأجد أحد الكُتَّاب الشباب قد كتب على صفحته بأحد مواقع التواصل الاجتماعي متسائلًا باستنكار: «وهل تستطيع المرأة الكتابة، ولماذا لا نجد بين النساء فيلسوفة مثلًا؟» تتوقف عيناي أمام كلمة: «فيلسوفة»، وتزكم أنفي رائحة شواء لحم بشري آتية من القرن الخامس الميلادي، هل أرى صحراء النطرون بالقرب من مكتبة الإسكندرية؟ هل هو المكان الذي تأتيني منه تلك الرائحة؟! بزغت بالفعل شمس فيلسوفة في القرن الرابع الميلادي، كان

٦- دينا محمد عبده: "الأدب النسوي في مرآة النقد الثقافي الروسي"، مجلة العربي، العدد ٧١٣، (الكويت)، أبريل ٢٠١٨، ص ٨٤

اسمها «هيباتيا»[٧] (٣٧٠ ــ ٤١٥م)[٨]، وهي ابنة الفيلسوف الفيثاغورثي: «ثيون»[٩]، قالوا إنها كانت متفوقة على كل فلاسفة عصرها، حيث نقَّحت شروح أبيها في علم الفلك، وكتبت تفسيرات، وشروحًا لكتاب القوانين الفلكية لبطليموس، وشروحات لكتاب المخروطات لأبولونيوس البرجي، قالوا: إن الدارسين كانوا يأتون إلى محاضراتها في معهد العلوم التابع لمكتبة الإسكندرية من كل أنحاء الإمبراطورية، بعضهم يقول: لبراعتها، وعلمها، وأسلوبها العبقري في الشرح، وبعضهم يقول: لجمالها. ولكن الأسقف «سيريل»[١٠] اعتبر أن الفلسفة سحر وفسوق آنذاك، كما أنه تساءل بدهشة: لماذا، وهي امرأة لا تقرّ في بيتها؟! فحرّض عليها الكنيسة، ومصير «هيباتيا» معروفٌ للبشرية بأسرها[١١]، وسيظل صليبًا على صدر حرية المرأة، وحرية الفكر، والفلسفة أيضًا.

دون شكٍّ، صهلت خيول عربتها؛ مرتعبة عندما أوقفوها، وأنزلوها من العربة، مزقوا ملابسها عن جسدها الجميل، وسحلوها عارية في الصحراء، ثم أطار أحدهم رأسها، وانهال بقية قطيعهم في تقطيع أعضائها، ثم أشعلوا فيما تبقى منها النيران لتُحرق «هيباتيا»، وتختفي إلى الأبد، مع كل آثارها الرياضية، والفلسفية والفلكية، وكأنها لم توجد على الأرض يومًا.

ماتت «هيباتيا» على طريقة مزحة مصرية سمجة على شكل دعوى: «يا رب تموت عاريًا، ومذبوحًا، ومحروقًا، ومقطعة أعضاؤك»، أو بطريقة تراجيدية؛ لتُخلد أسطورتها، وتظل جرحًا مفتوحًا في أرواحنا التي تتوق إلى الانعتاق، بل لتكون فزّاعة لأية امرأة تحاول الخروج على طواغيت المجتمع البطريركي.

> كان الخيار محدّدًا أمامي، منذ البداية بصرامة:
> أن أعيش الحياة أو أن أكتبها، واخترت أن أعيش
> الحياة لأكتبها

أصبحت غرفة مكتبي ــ التي أنفقت جهدًا، ووقتًا طويلًا في تأثيثها لتخصني وحدي ــ هي منفاي الاختياري، وأخذت أدرّب نفسي تدريبات قاسية لأستغني عن الانخراط الكامل في متع الحياة، وأوّلها العلاقات الاجتماعية، والمناسبات العائلية التي لا نهاية لها، اختفيت من حفلات الزفاف، والختان، والجلوس مع نسوة اخترن السير إلى جوار رصيف الحياة دون خوض مغامرة عبور الطريق أو اختبار حتفهنّ عشقًا وولعًا بمحاولة طرح أسئلة وجودية كبرى أو النوم في العراء دون سندٍ ودون اتكاء على تمثيل ضعف سامهنّ سوء العذاب.

---

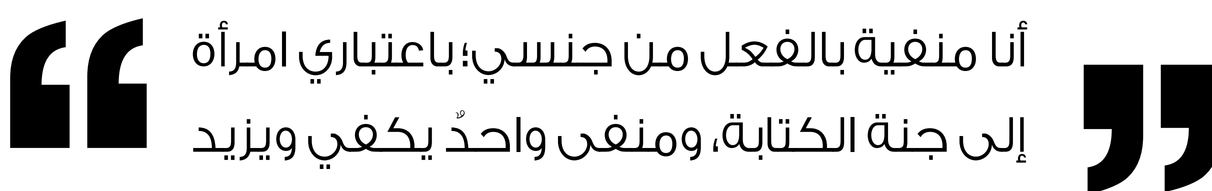
٧- هيباتيا السكندرية (٣٥٠-٣٧٠ تقريبًا - ٤١٥) هي فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وتعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفة، وعلم الفلك. كانت هيباتيا تتبع المدرسة الأفلاطونية المحدثة الفلسفية القديمة، لذا فكانت تتبع النهج الرياضي لأكاديمية أفلاطون في أثينا، التي مثّلها إيودوكيوس الكنيدوسي. تأثرت هيباتيا بفكر أفلوطين، الذي كان يفضّل الدراسة المنطقية والرياضياتية بدلاً من المعرفة التجريبية، ويرى أن للقانون أفضلية على الطبيعة. عاشت هيباتيا في مصر الرومانية، وماتت على يد حشد من الغوغاء المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر والإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية. ترى كاثلين وايلدر أن مقتل هيباتيا يعد نهاية للعصر الكلاسيكي القديم، كما لاحظ ستيفن غرينبلات إن مقتلها أثر بشدة في انحدار الحياة الفكرية الإسكندرية.

٨- Charles, R. H. The Chronicle of John, Bishop of Nikiu: Translated from Zotenberg's Ethiopic Text, ١٩١٦. Reprinted ٢٠٠٧, Evolution Publishing.

٩- ثيون Theon من كبار علماء الإسكندرية القديمة أيام ازدهارها. عاش في حدود القرن الرابع الميلادي. كان ثيون أستاذ الرياضيات، والفلك في مكتبة الإسكندرية، وآخر علمائها العظام درس ابنته هيباتيا الرياضيات، والفلك. وكان أعظم شارح للكتاب الفلكي الشهير (المجسطي) الذي ألفه بطليموس في القرن الثاني. وأكمل ثيون ما وضعه بطليموس من الكسور الستينية، وله نظرية (اضطراب الاعتدالين) التي ظلت مدة طويلة، على خطئها، حيث تناقض نظرية تقدم الاعتدالين الصحيحة.

١٠- كيرلس الأول (٣٧٦ - ٢٧ يونيو ٤٤٤ م) البابا السكندري والبطريرك الرابع والعشرون، والملقب "عمود الدين ومصباح الكنيسة الأرثوذكسية". كان ابن أخت ثاوفيلس (بابا الإسكندرية ٢٣) وتربي عند خاله في مدرسة الإسكندرية، وتثقف بعلومها اللاهوتية والفلسفية اللازمة للدفاع عن الدين المسيحي والإيمان الأرثوذكسي، أرسله خاله إلى دير القديس مقار في البرية، فتتلمذ هناك، على يد المعلم صرابامون، وقرأ له سائر الكتب الكنسية، وأقوال الآباء، وروض عقله بممارسة أعمال التقوى مدة من الزمان.

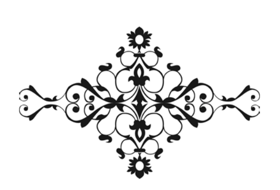
١١- قام حشد من الغوغاء المسيحيني ربما بقيادة مجموعة "أُخوة مسيحية"، قاموا بالإمساك بهيباتيا من عربتها وقتلها بوحشية، حيث قاموا بتقطيع جسدها إربا وحرق قطع منه خارج أسوار المدينة. تذكر دراسات حديثة أن موت هيباتيا كان نتيجة للصراع بين فصيلين مسيحيين، أوريستيس (المعتدل)، والذي كان يحظى بدعم من هيباتيا، وكيرلس الأول. ووفقا لكاتب المعاجم وليام سميث "فإنها اتهمت بكثير من الأُلفة مع أوريستيس، حاكم الإسكندرية، لتنتشر هذه التهمة بين رجال الدين، الذين حملوا فكرة أنها أوقفت الصداقة بين الحاكم أوريستيس ومطرانهم كيرلس الأول".

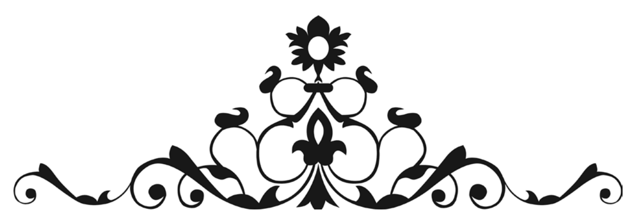

كان الخيار محدّدًا أمامي، منذ البداية بصرامة: أن أعيش الحياة أو أن أكتبها، واخترت أن أعيش الحياة لأكتبها، أمرّ بتجارب، ومشاهد، وأماكن من أجل الكتابة، بل باتت تفاصيل يومي تدشينًا لكتابة جديدة، وبتّ أشكّ أنني أتنفس من أجل الكتابة، وأعي في الوقت نفسه، أنني أتحول يومًا بعد يوم، إلى عبدة للسيدة/ الكتابة، وكل حالات «قفلة المبدع»، التي تعرضت لها خلال مشواري الأدبي كان سببها هذا السؤال: ولماذا؟ على أية حال، لا أتوقف عن الكتابة، عن المكوث طويلًا في هذه الغرفة، عن ملاحقة مصائر شخوص متخيلين، وأحلام تبدو حقيقية، عن التجول بين طبقات التاريخ لأعود معفرة بحزنٍ قرمزي، وبعض علامات الإنسان، مذ خربش بأظافره على جدران الكهوف، وحتى رموز الميديا الحديثة، عن اصطيادي لأصواتٍ لا نهائية احتفظ بها الأثير بترتيب غير كرونولوجيّ، مذ جرّب الإنسان آهته الأولى، وزمجرة بهجته لاندهاشه من فرط ضآلته، وشراسة الوحوش، والظلام، وحتى استقامة آهته في حروف شكّلت أغانيه، وقصائده، وملاحمه، ورواياته، عن فرحي، وأنا أقرأ وجوه الناس في المدن البعيدة لأجدها فعلًا واحدة، عن المحبة والفقد، وغروب حضارات بتيجان ملوكها، وذهبها، وتماثيلها، ونقوش أحجارها، وولادة حضارات جديدة من العدم، عن وقوفي طويلًا أمام العبارة لأستنطقها لكي تحاصر هذا الكون الفسيح، وحكايات مَن سكنوه، عن أسئلتي لسرب نمل يعمل بكدٍّ حول أصص الورد: إلام مسعاكَ؟! عن رؤى تتناحر في روحي، كما لو كانت كريات زجاجية ملونة في علبة يلهو بها طفل طائش؟! ولكن «القفلة» تمر، وأعود إلى منفاي مرة أخرى أكثر رضوخًا، بعد أن أكون قد اجتزت تجربة جديدة، وعنيفة، وكبرى، أكتشف، فيما بعد، أنها أيضًا، كانت لصالح الكتابة.

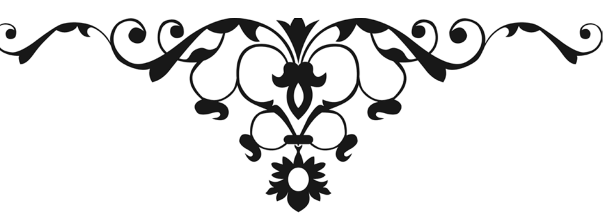
عندما رفع نائب من نواب مجلس الشعب ــ وهو من جماعة الإخوان المسلمين ــ طلب إحاطة لمصادرة روايتي: «لهو الأبالسة»[١٢]، بدعوى أنها تدعو إلى الرذيلة، والتجديف في الدين، أصابني هلعٌ حقيقي، ولاحت أمامي كلمة: «المنفى» بخط أحمر ثقيل، ولكن طلب الإحاطة سقط، وألغيت الدعوى؛ بمصادفة تاريخية عجيبة؛ إذ تم حلّ مجلس الشعب نفسه عام ٢٠١١، ونجوت، نجوت، وتنفست بعمقٍ وأنا أقول لنفسي:

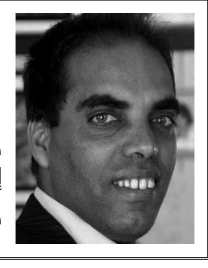
ــ «أنا منفية بالفعل من جنسي؛ باعتباري امرأة إلى جنة الكتابة، ومنفى واحدٌ يكفي ويزيد».



١٢- سهير المصادفة: لهو الأبالسة، دار مريت، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢









حاورها:
إبراهيم الحجري
كاتب وباحث من المغرب

# الرّوائية السّورية مها حسن لمجلة «ذوات»: تجربتي في المنفى، عمّقت علاقتي مع بلدي الأول

خلقت مها حسن لتكتب، أو بالأحرى، تحكي بلغة الإنسان الكوني لا بصفتها امرأة، حتى لو اعتبرت قضية المرأة جزءا من أطروحتها السردية التي تناضل من أجل تحقيقها، وتشتغل ليل نهار، قراءة وكتابة، وسفرا، لتظل طاقتها السردية الخلاقة حاضرة باستمرار. لذلك، فهي لا تكتب روايات عادية، بل تطرح أمام القارئ ملاحم إنسانية ضخمة، تراهن على الانتماء الكوني للبشر، وتحرص على أن تظل لبنات راسخة ضمن مشروع ثقافي له رسالته الثابتة، وتصوره المؤسس مع سبق الإصرار والترصد.

ترسبت محنة الغربة إلى أحاسيسها وهي بعد طفلة في مدينتها حلب، بعد أن استشعرت مشانق التضييق تخنق أنفاس الفكر والأدب والفنون، لتطاردها تلك المشاعر بعد حين لما بدأت الكتابة، فوجدت نفسها تعيد دراما الجدة وقصتها مع الغربة والنفي، حينما هربت من المضايقات بوصفها كردية، وكأنها تنتقم سرديا لمأساة هؤلاء الذين تكتب عليهم مصائر لم يختاروها، فتواصل رحلتها مع الكتابة، خارج جغرافيا الوطن، متأملة، من بعيد، تشكل صورة تلك الهوية، هوية الوطن الكسير، ضمن جغرافيا وطن أرحب، منحها كل شيء من أجل أن تكتب، وتسافر، وتحيا الحياة الكريمة التي تلامس تطلعاتها، دون أن تنسى أنها هنا، تحمل رسالة الإنسان المغترب داخل الوطن وخارجه، ودون أن تتنازل عن تصورها للكتابة والإنسان، متنصلة من كل أشكال الأيديولوجيا، والبراغماتية، والشوفينية الضيقة، والتعصب الفكري المنغلق!

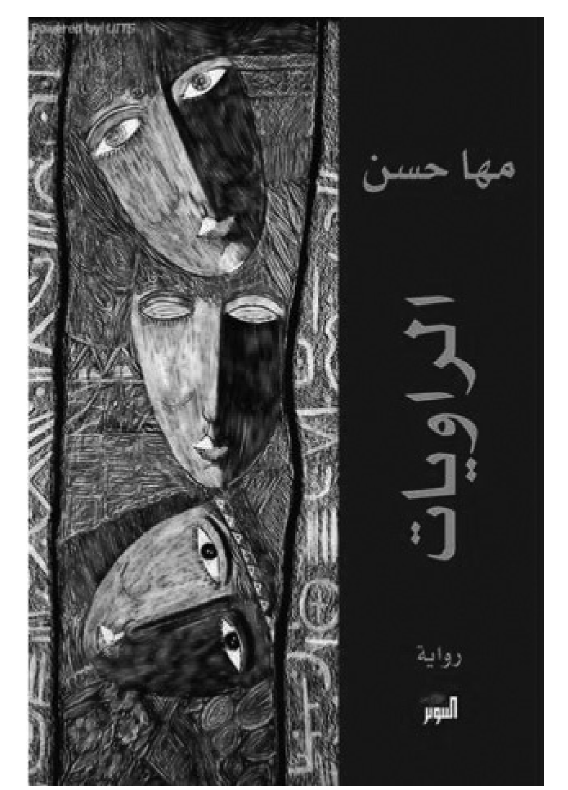
هنا، في هذا الحوار، الذي تخص به مجلة «ذوات»، تتحدث عن تصورها لموضوعة الكتابة والمنفى، انطلاقا من تجربتها باعتبارها كاتبة سورية كردية تعيش منذ زمن بعيد خارج وطنها الأم، منتمية إلى جغرافيا إنسانية منفتحة، تختلط فيها الجنسيات، والهويات، والأعراق، والبيئات... دون أن تعكر مزاج الإبداع لديها، بل تكاد تكون ذاك الأوكسيجين المغذي للاستمرارية، والتميز، والإنتاج الغزير.

مها حسن، قاصة وروائية سورية مقيمة في باريس/فرنسا، ولدت في حلب عام ١٩٦٦، وحصلت على ليسانس في الحقوق من جامعة حلب. من بين أعمالها الروائية، «اللامتناهي- سيرة الآخر» (عام ١٩٩٥)، و«جدران الخيبة أعلى» (٢٠٠٢)، و«تراتيل العدم» (٢٠٠٩)، و«حبل سري» (٢٠١٠)، و«بنات البراري» (٢٠١١)، و«طبول الحب» (٢٠١٢)، و«الراويات»، و«نفق الوجود» (٢٠١٤)، و«مترو حلب» (٢٠١٦)، و«عمتِ صباحًا أيتها الحرب» (٢٠١٧)، و«حي الدهشة» (٢٠١٨)... فازت بجائزة هيلمان/هامت الأميركية عام ٢٠٠٥، كما أنها وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر للرواية العربية مرتين (٢٠١١) و(٢٠١٥) من خلال روايتيها «حبل سري»، و«الراويات».

لم يعد المنفى مغلقاً، وكذلك، لم يعد الوطن مفتوحاً. تغيرت مواصفات الأوطان، والمنافي في الآونة الأخيرة








*** تشكل قضية البعد عن الوطن جزءا لا يتجزأ من نسق الاختيارات الفكرية والجمالية ضمن الممارسة السردية لديك؛ فهل يمكن اعتبار الكتابة تعويضا معنويا عن الفقد، وإقامة استعارية ضمن وطن أصلي من صنع المتخيل؟**

بدأت الكتابة داخل الوطن، ولم تكن سردية المنفى قد دخلت حياتي بعد، ولكنني كتبتُ ردّاً على إحساسي بالغربة في مجتمعي ذاته. وكانت رواية «الغريب» لألبير كامو أول رواية أجنبية أقرأها، وشعرت آنذاك، بأنني ألمس جوهري. في لفظة: الغريب، أو الغربة، وجدت بعضاً من هويتي. الهوية هي أيضاً، الاختلاف، وليست فقط، نقاط الاشتراك مع الآخر، وأنا أسستُ هويتي على الاختلاف، لهذا أحسستُ بالاغتراب النفسي والفكري مبكراً. أما المنفى الجغرافي، فهو مجرد فضاء مرئي، وقد يتحول أحياناً، إلى وطن. وفي روايتي «حبل سري»، أولى رواياتي المكتوبة بعد مغادرتي للوطن، تبدو بقوة مسألة البحث عن الهوية، وطرحت تعاريف جديدة، من وحي معاناة بطلتي الرئيسة «صوفي بيران» عن الوطن. ككردية؛ وُلدت، من الأساس، بإحساس الفقد، وكسورية، لم أشعر أيضاً، بالانتماء إلى بلدي، وأنا فيه. لهذا، أعتقد أن الكتابة هي وطن مُختار ومصنوع؛ وفق مقاييس ذاتية تساهم فيها المخيلة، والذكريات؛ واللغة.




*** ما رأيك في مفهوم «المنفى»؟ وهل ما يزال يمتلك راهنية في زمن تعالت فيه الأصوات المنادية بالهوية الكوكبية؟**

المنفى مفهوم شديد التعقيد والتغيّر، وفي المرحلة الراهنة، وخاصة بعد موجات النزوح الكبيرة بسبب الحروب، وانتقال مجموعات بشرية بأعداد مذهلة إلى بلدان جديدة، صار، من الضروري، الاشتغال على المنفى ضمن كتابات تفكيكية مطولة. لم يعد المنفى وصفاً جاهزاً ينطبق على الجميع، لأن هناك طبقات للمنفى. أنت تذكر أنّني في روايتي «حبل سري» الصادرة عام ٢٠١١ اشتغلتُ على هذه التيمة. وتطرقت لجيلين من النساء، جيل الأم التي عاشت المنفى في فرنسا، وابنتها المولودة في باريس، والتي ذهبت إلى سوريا لتعيش منفى مختلف ومعاكس لمنفى أمها. في آخر ندوة لي في بلجيكا، تحدثت عن مفهوم يخصني دعوته بمدرسة المنفى. المنفى تجربة مفتوحة وجديدة ومتقلّبة، يمر المنفي، خلالها بعدة أطوار، ولا ينتهي أبداً إلى إيجاد صيغة ثابتة ونهائية لتعريف حيواته، وتجاربه العديدة، في البلدان الأصلية، ثم في البلاد الجديدة.

أما الحديث عن الهوية الكونية أو الكوكبية، فبرأيي هو نتاج كل تلك الهويات المتحصّلة من خبرات المنفى، بمعنى هو تجميع للهويات الصغيرة والبدئية، التي لا يمكن للإنسان حذفها من حياته، بوصفها أحد أهم مؤسسات خبراته الشخصية، ومشاعره، وعلاقته بالعالم.

## أسستُ هويتي على الاختلاف، لهذا أحسستُ بالاغتراب النفسي والفكري مبكرا

*** يمـارس المنفيـون خـارج حـدود تربتهـم أنشـطة إبداعيـة مختلفـة: تشـكيل، شـعر، مـسرح، سـينما، فكـر، سرد... في نظـرك، أي هاتـه الأجنـاس أقـرب إلى التعبـير عـن حالـة الاغـتراب عـن جغرافيـا الانتمـاء؟**

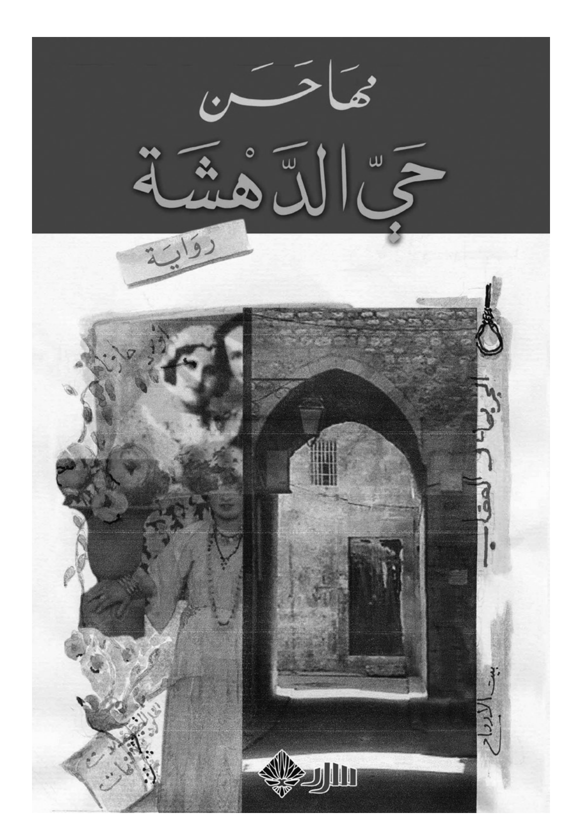


يتعلـق الاختيـار بالوسيلة الإبداعيـة الـتي يمكـن لأحدنا التعبـير عـن عوالمـه عبرهـا. ولا أعتقـد أن الأمـر يتعلـق بالاختيـار، بـل غالبـاً، بالموهبـة مـن طـرف، وبالإجـادة مـن طـرف آخـر. ولا أعتقـد، كذلـك، بـأن المنفـى هـو المسـبب للتعبـير عـن الاغـتراب أو الانتمـاء، إلا إذا كانـت هنـاك مصاعـب في البلـد الأول، تجـبر المبـدع عـلى تأجيـل إبداعـه، فيسـاعده المنفـى في اكتشـاف ذاتـه وتطويـر خبراتـه.

*** هنـاك مـن يختـار منـافي اختياريـة لأسـباب متعـددة، حـتى لـو توفـرت شروط موضوعيـة للإقامـة الكريمـة داخـل الوطـن، مـا رأيـك في هـذا الاختيـار؟**

أظـن أن المنفـى هـو تيمـة العـصر، والإنسـان الراغـب في اكتشـاف عوالـم أخـرى، يجـد اليـوم فرصـة التنقـل والعيـش في أمكنـة أخـرى غـير تلـك الـتي وُلـد فيهـا بسـهولة أكـثر مـن قبـل. حـتى في الغـرب، هنـاك فنانـين تركـوا بلادهـم الثريـة والمليئـة بالحريـات، للعيـش في بـلاد أخـرى، واكتسـاب خـبرات جديـدة. نذكـر عـلى سـبيل التمثيـل لا الحـصر: «فـان غـوغ» الـذي جـاء مـن هولنـدا ليعيـش في فرنسـا، أو «رامبـو» الـذي تـرك فرنسـا وذهـب إلى اليمـن، أو «مـاري نديـاني» الفرنسـية الحاصلـة عـلى جائـزة الغونكـور الـتي اختـارت العيـش في ألمانيـا، وكذلـك، «تزفيتـان تـودروف» القـادم مـن بلغاريـا للعيـش في فرنسـا.

هنـاك إغـواء خـاص يملكـه هـذا المـكان السـاحر الـذي يسـميه البعـض بالمنفـى، والـذي ارتبـط بالنبـذ أو العقـاب؛ فمثـلا: خـلال التجربـة السـوفييتية، كان (النفـي) أحـد أشـكال العقـاب. أظـن أن هـذا المفهـوم، قائـم عـلى الحرمـان والإبعـاد، والـذي يتـوازى مـع مفهـوم عقـابي آخـر، هـو الحرمـان مـن السـفر، أو الإقامـة الجبريـة، هـذان المفهومـان المتوازيـان المتعارضـان، عـبر العقـاب بالإبعـاد أو العقـاب بالمنـع مـن الخـروج، همـا وسـيلتان اسـتبداديتان لقمـع الإنسـان عـبر ترهيبـه بالطـرد مـن المـكان أو بإجبـاره عـلى البقـاء في المـكان. مـا أردت قولـه، أن الإنسـان عامـة، والكاتـب أو المبـدع خاصـة، تـوّاق للاكتشـاف والتغيـير، لهـذا فـإن حرمانـه مـن الترحـال هـو عقـاب لكتابتـه، كمـا أن حرمانـه مـن العـودة، عقـاب مماثـل. نحـن نحتـاج لحريـة الخـروج والعـودة، للتعلّـم مـن الآخريـن، وتعليمهـم أيضـاً، لـم لا... حـين نقـدم ثقافاتنـا المتنوعـة المجهولـة مـن قبـل الآخـر، مـن حـق الآخـر علينـا، أيضـا، أن يتعـرّف علينـا. وهـذه نقطـة أجدهـا اليـوم دقيقـة ومهمـة، هنـاك جهـل كبـير بالعالـم العـربي، وهنـاك تنميـط لصـورة العـربي، مرتبـط بشـكله القديـم: الخيمـة والجمـل، وشـكله الحديـث: إرهـابي ولـص. قـد يكـون الآخـر مسـؤولاً أيضـا عـن عـدم معرفتنـا، بسـبب كسـله المعـرفي، والـدور المرعـب للإعـلام في تسـويق قضايـا ملتهبـة تـبرر وجـوده، وهنـا يـأتي اشـتغال المثقفـين والمبدعـين، عـبر الاحتـكاك والتواصـل مـع بـاقي الثقافـات، لإغنـاء نفسـه، وإغنـاء الآخريـن، وتكسـير الصـورة النمطيـة




الظالمة التي تحصر أحدنا ضمن تعاريف عقابية تشبه، تماما، أحكام الإعدام النفسية، والمحاكمات الجماعية الخاطئة، بل العمياء.

*** كيف تقيّمين تجربتك في المنافي، نفسيا، اجتماعيا، اقتصاديا...؟ وهل يستطيع المبدع العربي عموما إيجاد شروط أدنى للعيش الكريم في الجغرافيات المستضيفة؟**

المنفى منحني فرصاً كبيرة وثمينة للاطلاع على حيوات وتجارب جديدة، لم يكن بإمكاني التعرف عليها لو بقيتُ في بلدي الأول. كانت لدي محاضرة في الفترة الأخيرة، التقيت فيها بالجمهور الفرنسي. وبعد المحاضرة، تعرفت إلى نيكول، سيدة مسنّة، ولا يبدو عليها العمر، عاشت تفاصيل الحرب العالمية الثانية، ووجدتها في أحد شخوص رواياتي القادمة. أنا أتعلم في كل يوم في هذا المنفى، هناك، دائما، لقاءات جديدة، وخبرات تمنح ذهني الحيوية، وتثري كتاباتي.




إن فرنسا التي أعيش فيها منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، هي بلدي، حيث حقّقت لي أهم شرط للكتابة والإبداع، وهو الحرية. أنا كائن حر هنا، ليس بالمعنى السياسي أو الأيديولوجي، ولكن بالمعنى النفسي. لدي أصدقاء، ومعارف، وعلاقات غنية تقوم كلها على الحرية والحوار. أعتقد أن المبدع العربي، يستطيع إيجاد بيئة خصبة لإبداعه عبر منتجه، ويستطيع نيل احترام وثقة الآخر، عبر هذا الإنتاج. أنا لا أرى في المنفى وجهاً أسود، أو تعبيراً عن الأسى، المنفى، بالنسبة إلي، قطار متحرك يعبر في مشاهد مختلفة، ويتيح رؤى وآفاقا متعددة. يختلط أيضاً، بمشاهد الوطن، الذكريات، العائلة، مع شرط الأمان. أنا أشعر بالطمأنينة، هنا في فرنسا، الأمر الذي يجعل الناس، كما أعتقد، يدفعون حياتهم من أجل لحظة أمان.

*** كيف يكون طعم كتابة الوطن من خلال ما تختزنه الذاكرة البعيدة؟ وهل يسعف المخزون الذاتي في رسم صورة واضحة حول وطن بعيد؟**

تصبح الكتابة، عبر المسافات، أكثر نضجاً. إن المنفى (يُفلتر) الصور والأفكار. يغربل الذاكرة، وينتقي المهم منها، والمفيد للنص الإبداعي. إن أجمل كتاباتي، بالنسبة إلي، هي التي جرت في المنفى، ولكنها تتحدث عن الوطن. مفهوم الوطن اليوم صار واسعاً بالنسبة إلي، لم يعد مفهوما جغرافياً أو دموياً أو إثنياً: المواطنة الجديدة تعني اقتسام الحريات والحقوق. تعنى الاحترام والمساواة، وهكذا، فأنا ابنة أي وطن يدعم حقّي في التعبير، وحريتي في الاختيار، وأتقاسم هذا الوطن مع شركاء مختلفين باللون، والديانة، والتاريخ الأصلي للشعوب. الوطن الجديد هو الإنسان الذي يحترم الإنسان، ووطن المبدع، هو أي مكان يحقق له حرية الكتابة والإبداع.



> المنفى منحني فرصاً كبيرة وثمينة للاطلاع على حيوات وتجارب جديدة، لم يكن بإمكاني التعرف عليها لو بقيتُ في بلدي الأول

*** كثيرون كتبوا عن المنفى من داخل أوطانهم، وكثيرون كتبوا عن أوطانهم من المنافي، أليس في الأمر مفارقة؟**

هي ليست مفارقة، المنفى ليس هو المكان الجغرافي، المنفى هو الأشخاص، والعلاقات، والنظام الاجتماعي والثقافي. يمكن لأحدنا أن يعيش في بلد وُلد فيه، لكنه يشعر فيه بالغربة، وعدم التآلف أو الانسجام، لهذا يمكنه الكتابة عن المنفى من داخل الوطن، والعكس صحيح أيضاً، يمكنك الكتابة عن الوطن، من داخل المنفى، حيث الذاكرة هي الوطن المُنتقى، والذي لا يمكن لأحدنا مغادرته بمغادرة الجغرافيا. أستطيع أن أقول؛ وبكل ثقة، بأن تجربتي في المنفى، عمّقت علاقتي مع بلدي الأول.

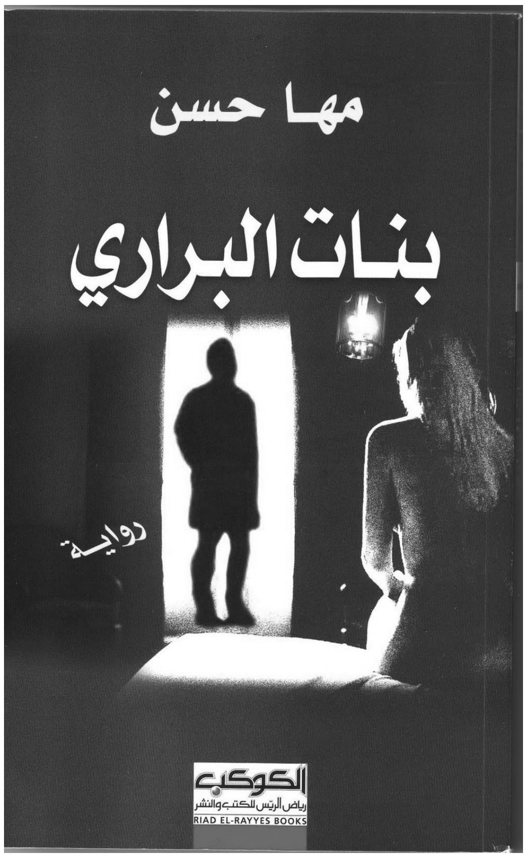
لقد كنت أتجاهل بعض المسائل المعقدة، حين كنتُ في سوريا، بينما اقتربت منها عبر المنفى، كقضايا قتل النساء بدافع الشرف. كنت أتعالى عن هذه القصص، وأعتبرها اشتغالات نسوية لا تليق بي ككاتبة لها توجّهات إلى حد ما وجودية. لقد رأيت عبر المنفى، قضاياي التي تركتها في سوريا، لقد عرفت نفسي، ونساء بلدي أكثر، وأنا بعيدة عن المكان، متخلّصة من الضغط العاطفي أو الانحياز الأعمى أو الخوف.

*** تكتبين الرواية بنهم شديد، كأنك خلقت لتكتبي، فهل لحالة البعد القسري عن الوطن الأم دور تحفيزي في ذلك؟**

أنا لا أعيش حالة البعد القسري، ولا أنظر إلى المسألة من زاوية تراجيدية. أنا أقدّر المكان الذي اخترته للعيش فيه، والذي حقق لي الكثير من الاستقلالية في الرأي، وبفضل هذا المكان، أكتب وأعبّر عن ذواتي المتعددة، وعن القضايا التي تشغل الناس، وخاصة النساء في بلدي الأول، وفي البلدان العربية التي تتشابه فيها أوضاع النساء، ومعاناتهن، وتطلعاتهن.

أعتبر نفسي، بتواضع، بمثابة (سفيرة) أو صوت هذه النسوة. أكتب كأنني مسؤولة عن الشعوب المقهورة، مستفيدة من ميزة مهمة كما أظن، أنني ولدت في بيئة بسيطة وعادية، تتيح لي الاقتراب من الناس العاديين، الذين أسعى لأوصل حكاياتهم إلى العالم. لقد هاجرت من سوريا، ولكنني مُنحت فرصة الذهاب إلى بلاد عربية أخرى، لم يكن بإمكاني زيارتها لو بقيتُ في سوريا. هذه الحرية في التنقّل والسفر، خلقت في داخلي مسؤولية إضافية، لأعبّر عن الناس الذين يصادفونني في حياتي العادية، وليس في الحياة النخبوية. على الكتابة أن تذهب إلى المنابع الأولى: البسطاء الذين أحلم بأن أعيش مثلهم، ولهذا أنقل آلامهم ومشاعرهم، التي أنتمي إليها في العمق.

*** أسس بعض المقيمين خارج الأوطان منتديات وجمعيات تنشط ثقافيا، واجتماعيا، وسياسيا لتقديم الدعم الممكن لفائدة منخرطيها بشراكة مع بعض الجهات المدعمة والمحتضنة، ما رأيك في هاته التنظيمات؟ وهل استطاعت أن تفك بعض العزلة عن الكتاب والمفكرين المنتمين إليها؟**




أعتقد أن قدر المبدع أو الكاتب هو العزلة. هذه الأنشطة تبقى فعاليات اجتماعية لا أنظر إليها دائماً بعين الطمأنينة، هناك نوع من (الأيغو) أكثر من الدافع الحقيقي للاقتراب من الآخر والتواصل معه وفهمه، في تأسيس الكثير من هذه الجمعيات. ولا أستطيع، بالتأكيد، حسم موقفي، إذ إن خبرتي ضئيلة مع كل ما هو مؤسساتي، وأنفر، بطبيعتي، من التجمعات المُمَأسسة، وأميل صوب التلقائية.

*** هناك كتاب عرب منفيون لا يكتبون خارج هاته الموضوعة عكسك تماما، فأنت بقدر ما تناولت هاته الموضوعة، خضت في موضوعات إنسانية أخرى ذات بعد كوني يعيشها المقيمون في الأوطان والمغتربون عنها، إلام تعزين هذا الأمر؟**

أعتقد أنني ككاتبة امرأة، مهجوسة بقضايا أخرى غير المنفى، منها مثلاً قضايا النساء، وقضية القمع السياسي ضد الأكراد. لا يمكنني أن أنسى أنني قادمة من بيئة مشتعلة بالمشاكل والأزمات، وقد حاولت الاستفادة من فرصة تواجدي في بيئة حرّة خالية من الرقابة، لأعبّر عن أصوات المهمشين من النساء والكرد وغيرهم من الضعفاء. كما أنني أعتقد أنه من الصعب الانقطاع عن الأزمات الأولى للمكان الأصلي. أعيش في فرنسا، منذ خمسة عشر عاما تقريباً، ولكنني لا أكتب عن مشاكل الفرنسيين، ولا أستطيع التعبير عنهم، بل كل شخوصي هم سواء من القادمين من مناطقنا المحفوفة بالخطر، والخوف، والألم، أو من المقيمين هناك، في تربة الأزمات. أظن أن المنطقة العربية مليئة بالقص، والسرد الهائل المُثري، والمُغري لأي كاتب، وهناك مناطق لا تزال عذراء، ولم يقترب منها أحد سرديا بعد. لهذا كله، أجدني مهتمّة بالاشتغال في تلك الأراضي الخصبة في بلادنا الأولى، مستفيدة من الهواء النظيف المُتاح حولي. يعني: يمكن تشبيه العملية الإبداعية هنا، بعملية التركيب الضوئي للنباتات، أحتاج إلى هواء وضوء أوروبا، بالمعنى المجازي طبعاً، للاشتغال على النبتة الأساسية المأخوذة من أرض المشرق.




*** هل يمكن اعتبار الكتابة صوتا نضاليا ضد كل القوى المستبدة والضاغطة التي تجعل الفرد يختار الرحيل عن التربة التي تخلق فيها ومنها، سواء كانت سياسية أم ثقافية أم اقتصادية؟**

بالتأكيد، الكتابة نضال ضد الثابت الآمن، هي محاولة تعرية، وكشف للعالم، وأمراضه وتناقضاته. مع أنني أتحفّظ على لفظة (نضال)، لارتباطها غالباً بالمشاريع الأيديولوجية، وقد خلعت هذه الانتماءات باكراً، منذ عيشي في سوريا. لكنني في الوقت نفسه، أعتبر نفسي كاتبة ملتزمة، ولكن أيضا، ليس بالمفهوم

> حاولت الاستفادة من فرصة تواجدي في بيئة حرّة خالية من الرقابة، لأعبّر عن أصوات المهمشين من النساء والكرد وغيرهم من الضعفاء

الأيديولوجي أو العقائدي الكلاسيكي المغلق، قد يكون الوصف الأقرب لي، هو التعبير الغرامشي، في عدم الانفصال عن قضايا المجتمع.

أحاول أن أجد توازني بين المحتوى الإبداعي، لتفكيك قضايا الاستبداد؛ أي إنني أحاول الانحياز للإبداعي، حتى لا أقع في الأيديولوجي المباشر. في روايتي «بنات البراري» مثلاً، كتبت عن جرائم الشرف، التي تكون النساء دائماً ضحاياها، لكنني اتبعت تقنية روائية خاصة بي، عبر نصّ فانتازي يطرح إشكالية اللون. هذه الرواية كانت موضوعاً لعدة دراسات، وملتقيات في فرنسا، هناك من أخذها كنموذج للحديث عن الجسد في الرواية العربية، وهناك من اشتغل على تيمة اللون، حيث ألعب على تعدد الألوان في الحكاية، التي تبدأ، منذ لحظة استغراق القرية التي تجري فيها الأحداث، في اللون الأحمر، ليولد جميع مواليد القرية، ويموتون، دون أن يروا لوناً آخر سوى الأحمر، بسبب لعنة دم البطلة المقتولة، ثم تبدأ تحولات الألوان، مع التطور الدرامي للأحداث، لنذهب إلى اللون البرتقالي، حين تقع ابنة البطلة القتيلة في الحب، لتبدأ لعنة الأحمر بالانسحاب تدريجياً. رغبت في طرح هذا المثال، للتبيين بأنني، كروائية، مهووسة بالشكل، والتقنية، واللغة، والمخيلة، مع الاحتفاظ بالخلفية الذهنية أو المعنى الفكري للنص. حتى لا أقع في مطب الإنشاء اللغوي، أو الكتابة الشعاراتية.

*** كيف عالجت رواياتك حالة القلق الوجداني والنفسي الذي ينتاب، في كثير من الأحيان، الإنسان المبعد عن أهله، ووطنه، وتربته، وهويته؟ وأي الأعمال أقرب إلى تمثيل هاته الحالة الإنسانية؟**

أقول دائماً في كتاباتي، وندواتي، أنا ابنة القلق. وُلدت ضمن بيئة اللايقين، وتعلمت طرح الأسئلة، وهذا جعلني في حالة بحث وقلق دائمين، للحصول على إجابات تريحني. لهذا، أعتقد بأن لدي عملين روائيين يعبران عن قلق المنفى والاغتراب؛ أحدهما رواية «حبل سري» التي تشرح الانفصام الوجودي، والشرخ في الهوية الذي تعانيه البطلة القادمة من سوريا. هذه الرواية كانت موضوعاً لبعض الأبحاث الجامعية في فرنسا، ولرسالة ماجستير أيضاً. الرواية الأخرى هي «مترو حلب»، التي يتضح، من خلال عنوانها، حالة التأرجح، والتنقّل، والمغادرة، حيث لا يوجد مترو في حلب، وحيث البطلة التي تعيش في باريس، لا تستوعب أنها في باريس، وكلما أخذت المترو، تظن أنها ما إن ستغادره، حتى تجد نفسها في حلب، وتنتهي الرواية المليئة بالخلط بين المكانين: باريس ـ حلب، بوقوف البطلة في إحدى محطات المترو، لا تصعد في أي مترو، لأنها تنتظر الخط الذي سيأخذها إلى حلب. في هاتين الرّوايتين؛ عالجت الخوف، والشك، والكوابيس والانتماء، والغربة، ولكن ضمن حقبتين مختلفتين، الأولى قبل الحرب، حيث المنفى إلى حد ما كان اختيارياً، والثانية بعد الحرب في سوريا، حيث المنفى كان هرباً من الموت.

*** لو طلبنا منك تصوير برنامجك اليومي؛ باعتبارك كاتبة ومثقفة مغتربة تعيشين في بلد مختلف من حيث اللغة، والعادات، والتقاليد، كيف ترسمين ملمح هذا المسلسل الحياتي؟**

حياتي اليومية منقسمة إلى جزأين أساسيين، وهذا ربما مثال عن التنوع، والتعدد في المنفى. القسم الصباحي من نهاري مخصص بأكمله للكتابة. أكتب ثلاث أو أربع ساعات في الصباح. أكتب باللغة





العربيـة طبعـاً، وأحيانـا بعـض المقـالات بالفرنسـية. أنـا أكتـب في كل يـوم، وأذكـر نفسـي أنـي تركـت بلـدي وحميميـة الأوسـاط العائليـة، لتحريـر كتابـتي وإنقاذهـا، لهـذا أكتـب بشـكل دائـم. بعـد فـترة الغـداء ونـشرة الأخبـار بالفرنسـية، كطقـس يومـي، يبـدأ قسـمي الفرنسـي، أخـرج لملاقـاة أصحـابي. لـدي مـشروع كتـاب مشـترك مـع صديقـين فرنسـيين، نلتقـي ثـلاث مـرات عـلى الأقـل في الأسـبوع للعمـل، والمراجعـة، والتدقيـق. ولـدي عـدد مـن الأصدقـاء أشـتغل معهـم، ضمـن خطـة غـير ثابتـة عـلى تنظيـم نـدوات، ولقـاءات في البلـدة الـتي أقيـم فيهـا. لهـذا، فأنـا في القسـم الفرنسي متواجـدة خـارج البيـت. كأن قسـمي «العـربي» يتحـرك في بيـتي فقـط، حيـث مكتـبي الـذي أدخلـه في كل صبـاح، وأبـدأ يومـي فيـه، وأغـادره في الظهـيرة، حـتى صبـاح اليـوم التـالي. لـدي أيضـا، نشـاطات إضافيـة مـن حضـور النـدوات، والأفـلام، والخـروج للتفسـح قـرب البحـر، حـين يكـون الطقـس مقبـولا، والخـروج مـع كلبـتي للتـنزه في الغابـة... ليـس هنـاك ثمـة برنامـج ثابـت، دائمـا، ثمـة تعديـلات، وتغيـيرات، حسـب الأولويـات، خاصـة أنـي أسـافر، وأتنقـل سـواء داخـل فرنسـا أو خارجهـا. أمـا قسـم الكتابـة الصباحـي، فهـو ثابـت حـين لا أكـون في سـفر.

*** هـل تشـعرين أنـك غريبـة في هـذا البلـد، أو تعتبريـن الوطـن هـو الاختيـار، وقـد تلاءمـت مـع اختيـارك هـذا؟ أم يظـل الحنـين للوطـن الأول؟ وكيـف تعالجـين موضـوع المراوحـة بـين الانتمـاءات أو الأوطـان؟**

لا أعتـبر نفسـي أعيـش في بلـد مختلـف عـني ثقافيـاً. أنـا أنتمـي لهـذا البلـد، ومـن حسـن حظـي؛ أنـي متعـددة الانتمـاءات. فأنـا فرنسـية بقـدر مـا أنـا سـورية. لقـد منحتـي العـادات الفرنسـية، الجديـدة عـليّ، حريـة التفكـير، والتعبـير. لـدي عائلـة فرنسـية هنـا، عائلـة زوجـي، أهلـه وأولاده، وحفيدتـه الـتي كانـت تناديـني «مامـي»، كتصغـير للقـب الجـدة، وأنـا حرصـت عـلى تعويدهـا منـاداتي باسـمي. هـذه الطفلـة هـي جـزء مـن عائلـتي الـتي أحبهـا. لـدي أصدقـاء وجـيران، أتقاسـم معهـم أوقاتـاً مهمـة، نذهـب إلى البحـر، نتنـاول الطعـام في الهـواء الطلـق، نحـضّر لنـدوات، ولقـاءات مـع الجمهـور..

منـذ عـدة أسـابيع، أقمـت نـدوة بدعـوة مـن الحـزب الشـيوعي في مدينـتي، كان هنـاك، عـرب بـين الحضـور، وكان ثمـة أتـراك، وإيرانيـون... كنـت سـعيدة أنـي متواجـدة في فضـاء مفتـوح، ليـس محصـوراً بـين الفرنسـيين «السـوش» كمـا ندعوهـم، أي ذوي الجـذور الفرنسـية. لقـد تعرفـت في فرنسـا عـلى العـرب الآخريـن الذيـن كنـت أجهلهـم، حـين كنـت أعيـش في سـوريا. في بلـدي الأول، لا يوجـد سـوى أشـخاص مـن الثقافـة ذاتهـا. كانـوا جميعـاً مـن العـرب المشرقـيين. أمـا في فرنسـا، فقـد تعرفـت عـلى الثقافـة المغربيـة مثـلاً، ووجـدت تقاطعـات بـين المغاربـة، والكـرد، وبينهـم، وبـين الفرنسـيين، وخاصـة الأمازيـغ الذيـن لـم أكـن أعـرف عنهـم أي شيء مـن قبـل. لقـد تناولـت الكسـكس في باريـس، وكتبـتُ روايـتي «حبـل سري» الـتي كانـت بمثابـة البحـث عـن



## أحاول الانحياز للإبداعي، حتى لا أقع في الأيديولوجي المباشر

جسور بين هذه الثقافات. لهذا، فأنا ابنة هذه الثقافات العديدة التي وجدت مكانها في أوروبا، ثم ذهبت من هذه (الأوروبا) صوب جزء آخر من هويتي الجديدة، الهوية الثقافية التي أتقاسمها مع المثقفين العرب: مغاربة، مصريين، فلسطينيين، تونسيين.... لهذا، فإن حياتي اليومية، في فرنسا، غنية جداً ومتحركة، تقوم على تيمتين رئيستين: السفر والكتابة. أسافر كثيراً، ألملم عوالمي وشخوصي، وأعود إلى بيتي لأدوّن، وأنسج تلك العوالم التي أعود بها من سفرياتي.

لم يعد المنفى مغلقاً، وكذلك، لم يعد الوطن مفتوحاً. تغيرت مواصفات الأوطان، والمنافي في الآونة الأخيرة. لقد منحني وجودي في فرنسا، جواز سفر للذهاب إلى العالم واكتشافه، لقد كنت في دبي منذ فترة، التقيت هناك بكاتب قادم من كييف، سبق وأن كان قد أقام حفل توقيع لكتابه في مدينتي الفرنسية، ووعدني أن يأتي هذا العام. تخيل أن ألتقي بكاتب أجهله، يأتي إلى مدينتي، ولكن يتم اللقاء في دبي!

*** كيف تتمثلين العلاقات الإنسانية بين الكتاب العرب في بلاد المهجر من خلال النموذج التي تعيشينه في فرنسا مثلا؟**

المسافات وضيق الوقت في أوروبا، وفي فرنسا خاصة التي أعيش فيها، لا تسمح بالكثير من اللقاءات، وأغلب الكتاب العرب في أوروبا، يميلون إلى العزلة، ولدي الكثير من الكتاب الأصدقاء، الذين ألتقي بهم في مناسبات محددة، ونحافظ على العلاقة الطيبة والاحترام، ولكن الكتابة مشروع فردي يحتاج إلى العزلة، والاجتهاد الذاتي، لهذا، ليس لدينا الوقت لنلتقي، ونشكل هذه العلاقات الثابتة. لدي أصدقاء كتاب ومثقفين فرنسيين، وهم لا يقلون أهمية في حياتي ككاتبة عن الأصدقاء العرب.

*** هل يساهم الإنتاج الأدبي، والفكري المهجريين بشكل من الأشكال، في التقريب بين الثقافات وإزالة سوء الفهم أم أنه يزيدها تفاقما أحيانا؟ وكيف ذلك؟**

أعتقد أن هذا هو أحد الرسائل التي يطلقها الأدب: فك العزلة. الكتابة هي المرآة الحقيقية للشعوب، هي التاريخ غير الرسمي، والأصدق، لحكايات البشر، ورصد معاناتهم، وأحلامهم. أنا مؤمنة بالجذر الواحد للإنسان. مثلاً، حين أقرأ رواية إيرانية، أشعر كأن الكاتب يتحدث عن سوريا، لا عن إيران فقط. قرأت إحدى السيدات الفرنسيات، نصا مترجما لي، فقالت لي لاحقا، وهي تقرأ لماريا نعمت، بأنها شعرت وكأنها تقرأ لي، وكذلك أحضر لي صديق فرنسي نسخة من رواية للكاتبة الفرنسية الإيرانية نيجار جافادي، وقال إنها تذكّره بي. بينما أشعر أنني أتقاطع مع كاتبات وكتاب أتراك. إن الساسة يستخدمون الاختلافات بين البشر لتقسيمهم، وفصلهم ضمن خنادق متعارضة، ليستثمروا الخلافات التي تقوم عليها الحروب.

أظن أن من رسائل الأدب النبيلة، تقويض ونسف محاولات تجار الحروب، الذين يخندقون الشعوب لتتحارب، عبر إظهار التقارب بين هذه الشعوب. في أوروبا، تجد بسهولة، هذا التحاور الحضاري بين المكونات الثقافية المتعددة. لهذا، أنا أؤمن بالحوار بين الحضارات، وأحاول الاشتغال ضد فكرة صراع الحضارات. الكتابة في شكلها النهائي، هي صناعة السلام، عبر قيادة الإنسان صوب أمنه الداخلي الصغير الموجود في أعماقه، عبر مساعدته لفهم تناقضاته، وقبول أخطائه، ومحاولة تغييره من تلقاء نفسه، حين (يعرف نفسه) عملاً بمقولة سقراط، وأيضا صناعة السلام بين الشعوب. إن مساعدة الفرد للوصول إلى صيغ السلام الشخصية، التي تقود في النهاية، إلى سلام جماعي أوسع. لا يمكنك تأسيس السلام بين الشعوب،



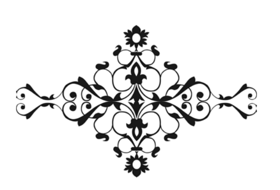
حين يكون الأفراد أنفسهم في حالة عدم توافق، وانسجام مع أنفسهم، وهذا، يقودنا إلى فكرة الهوية، التي يعيد المنفى الاشتغال عليها وتفكيكها، للخروج من حالات التعصب، والانغلاق على الهويات الصغيرة، والاحتراز من هويات الآخرين.

*** هل استطاعت التكنولوجيات التواصلية الحديثة فك العزلة عن المنفي، وربط الصلات بعوالمه المبعد عنها نسبيا، أم أن الأمر يبقى مجرد استعارات تخييلية؟**

لم يعد المنفى محصوراً بالتعريف الجغرافي له. المنفى اليوم، حالة نفسية، تشبه قليلاً ما تحدث عنه كامو في "الغريب". وحسب تجربتي، لقد منحني منفاي الفرنسي جواز سفر للذهاب إلى العالم العربي الكبير والواسع. حين كنت أعيش في بلدي سوريا، لم أكن أرى سوى ذلك الفضاء. بينما، وأنا أهاجر، وأتجه صوب المنفى، امتلكتُ فضاءات أوسع. حين كنت في الشارقة، في أول زيارة لي للإمارات، وكانت لدي بعض الأفكار المسبقة الخاطئة عن المكان، وطبيعة الناس، أحسست في ليلتي الأولى في الفندق أنني في بلدي. وفي الدار البيضاء، كانت الشمس تدخل غرفتي بطريقة ساحرة متوازية مع سنوات دخولها في غرفتي في حلب، وفي القاهرة، حين كنت أسمع صوت الآذان، كنت أحلّق روحيا في حلب. لم يعد المنفى كوكباً مغلقاً على أحدنا، بل هناك الكثير من الأبواب والفرص الجديدة، والمبهرة للقاءات مع بشر يشبهوننا، أو يختلفون عنا، ولكن يضيفون لنا.

*** حدّثينا عن مشاريعك المستقبلية بخصوص الكتابة في هاته الموضوعة بالذات، سرديا أو فكريا؟**

أشتغل على رواية سرد ذاتي تتعلق بتيمة المنفى أو الهجرة القسرية، تبدأ من لحظة اكتشافي، وأنا في سن الأربعين، بأن جدتي التركية، كما كنا ندعوها، كانت من أصول أرمينية، هربت أثناء المجازر، وعاشت متخفيّة تحت اسم وهوية جديدة، وأنجبت أكثر من مئة امرأة، أنا إحداهن، عبر جدتي، وأمي، وخالاتي، وبنات خالاتي... لأنتهي بالرواية إلى الحرب الأخيرة في سوريا، التي أطاحت بمصائر هذه النسوة، لتغادرن البلاد في طريقة مماثلة/ معاكسة، لرحيل الجدة الأولى، ولتعش هذه النساء في المنافي الجديدة.





## بيبليوغرافيا

### متون روائية:


- أبو مارية زكرياء: جينوم، مزامير الرحيل والعودة، منشورات كتارا، الجائزة العالمية للرواية العربية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠١٦
- بركة ساكن عبد العزيز: الرجل الخراب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠١٥
- حمدي خولة: في قلبي أنثى عبرية، دار كيان للنشر والتوزيع، الطبعة العاشرة. ٢٠١٣
- السالمي الحبيب: روائح ماري كلير، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩
- السالمي الحبيب: عواطف وزوارها، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠١٣
- صالح الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٦
- المددي حسن: ليال بلا جدران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠١٤
- المنصوري زهرة: من يبكي النوارس؟ مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦




### مراجع باللغة العربية:


- أشكروفت بيل: الردّ بالكتابة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦
- الأهواني أحمد فؤاد: فجر الفلسفة اليونانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٤
- بارت رولان: درجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٠
- برادة محمد: الرواية العربية ورهان التجديد، كتاب دبي الثقافية، الطبعة الأولى، مايو ٢٠١١
- برادة محمد: فضاءات روائية، منشورات وزارة الثقافة، دار المناهل، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣
- بركة ساكن عبد العزيز: الرجل الخراب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠١٥
- ابن الأبّار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي: الحلّة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ج.١، دار المعارف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥
- حمود ماجدة: إشكالية الأنا والآخر، منشورات عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٩٨، مارس/ آذار ٢٠١٣
- ديورانت ول وايريل: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، مج٣، ج٧، دار الجيل، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٣
- زيادة معن: الموسوعة الفلسفية العربية، ج. ١، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨
- صابر عبد الدايم: أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٣
- صن أمارتيا: الهوية والعنف، وهم المصير الحتمي، ترجمة سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٣٥٢، يونيو/ حزيران ٢٠٠٨
- طرابيشي جورج: شرق وغرب، رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، ط. ٤، ١٩٩٧
- غائب طعمة فرمان - أدب المنفى والحنين إلى الوطن، منشورات المدى للثقافة والنشر، دمشق،






## بيبليوغرافيا


سوريا، ١٩٩٦

- كليمان كاترين: التحليل النفسي، تعريب: د. محمد سبيلا، حسن أحجيج، سلسلة ضفاف، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠
- لاكان جان: التحليل النفسي والطب، مقال منشور في: رسائل المدرسة الفرويدية بباريس، العدد ١. مارس/ آذار ١٩٦٧
- لؤلؤة عبد الواحد: مدائن الوهم، شعر الحداثة والشتات، دار رياض الريس، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠٠٢
- الماضي شكري عزيز: أنماط الرّواية العربية الجديدة، عالم المعرفة، ع ٣٥٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨
- المتنبي أبو الطيّب: ديوان المتنبي، طبعة دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٣
- المحسن فاطمة: أدب المنفى: دراسة في الأدبيات العراقي، أدب المنفى، منشورات الجمر، كولونيا، ألمانيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٨
- امرئ القيس جندح بن جحر الحارثي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط. ٥، ١٩٩٠
- معن زيادة وآخرون: الموسوعة الفلسفية العربية، ج.١، معن زيادة، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨
- منيف عبد الرحمن: الكاتب والمنفى، دار الفكر الجديد، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٢
- هيجل فريديريك: فنومينولوجيا الروح، ترجمة: ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦
- هيجل فريديريك: مقدمات فلسفية، الدرس الثاني، الترجمة الفرنسية، م. كاندلاك، منشورات مينوي، باريس، فرنسا، ١٩٦٣
- يانج روبرت: أساطير بيضاء، كتابة التاريخ والغرب، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، المجلس الأعلى للثقافة، ط. ١، ٢٠٠٣




### المراجع الأجنبية:


- Bergson )H(. L’énergie spirituelle. La conscience et la vie. Ed PUF. Paris, France, ٢٠٠٩
- Cottret Bolingbroke Bernard: Exil Et Ecriture Au Siècle Des Lumières: Angleterre-France (Vers ١٧١٥ - Vers ١٧٥٠) (French Edition), Klincksieck, ١٩٠٥
- Collectif: Cultures de l'exil: art, pensée et écriture de l'exil républicain espagnol, cultures de l'exil républicain espagnol, immigration et exil portugais en France, Éditeur(s): Riveneuve, paris, France, ٢٠١٣
- Collectif: EXIL ET MIGRATIONS CULTURELLES ET LINGUISTIQUES: EXIL ET STRATÉGIES D’ÉCRITURE, Journées d'études, Université de Lille, France, ٢٠١٧
- Collectif: l’exil, la mémoire et la migration, publié par l’Université Internationale de Rabat chez les éditions Casa Express, Casablanca, Maroc, ٢٠١٧
- Dallenbach (L): Le récit spéculaire, Essai sur la mise en abyme. Ed. seuil; paris, France, ١٩٧٧

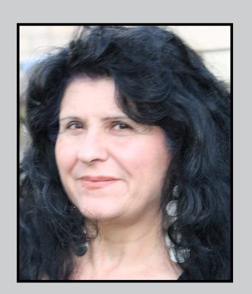
- Dominique (M): La fenêtre et le miroir; la télévision et ses programmes, éd. Payot, Paris. ١٩٩٢
- Dubuffet Jean et Simon Claude, Correspondance ١٩٨٤-١٩٧٠, Paris, L'Echoppe, ١٩٩٤
- Eliade Mircea: L'Épreuve du labyrinthe, ١٩٧٨
- Freud )s(: Ma vie et la psychanalyse; Idées, Gallimard, paris, France, ١٩٦٨
- Gaulis Marie: Une littérature de l'exil, éditions slatkine, Genève, ٢٠٠١
- Hamon )PH(: Sur un statut sémiologique Du personnage; in Poétique du récit, Seuil, paris, France, ١٩٧٧
- Krysinski, )V(: carrefour des signes, Mouton, Ed. Paris.١٩٨١
- Lévi- Strauss Claude et autres: L'Ecriture en exil, Dianoïa, paris, France, (٢٧ novembre ٢٠١٤).
- Marius Yannick Binyou-Bi-Homb: L'Ecriture de l'exil, Editions universitaires européennes, paris, France, ٢٠١٣
- Neil Rogall: Subaltern Studies, From Newsletter, London Socialist Historians Group, No Autumn ١٩٩٨, P.٣-٢ Historiography.
- Ricardou, ) j(: Problème du nouveau Roman, Seuil, paris, France, ١٩٦٧
- ZOUARI FAWZIA: L'écriture de l'exil, éditions Harmattan, paris, France, ٢٠١٠




الهويّة، الانتماء، التّغريبُ، الاغترابُ، النّفي، مشكلات تعاني منها المرأة، سواء على الصعيد الديني أو المجتمعي، ولا يمكن أن نجدَ لها حلولا في عالمٍ تتضاربُ فيه القيم والأديان والأعراف والتقاليد. هذه المصطلحات، مزّقت المرأة نفسيا واجتماعيا بين عائلة تنتمي إليها «الأب والأم»، والانتماء والتبعية لعائلة أخرى، عائلة «الزوج». هذا الانتقال هو بمثابة «مَحْو»؛ والكلمة تعني لغويا: «محو الشيء أو إزالة الأثر». محو الذات والانصهار والتكني بالأسماء والألقاب، هو ما يمحو شخصيتها، وتصبح بالتبعية تتكنى بأشخاص وأسماء خارج إطار اسمها وهويتها الشخصية.

المرأة ومنذ تغريبتها الأولى، التي تمثّلتْ بهاجر أم إسماعيل زوجة «النبي إبراهيم»، ورغم التبريرات الدينية التي زادت من أحوال المرأة تعقيداً وسوءاً، لم تحظ بكل ما استحقته وناله نصفها الآخر.

# المرأة بين التّغريب والاغتراب



بقلم : فرات إسبر
شاعرة سورية مقيمة بنيوزيلاندة

تغريبُ هاجر قسوة، لا يمكن تصورها بالنسبة إلى امرأة معها طفل رضيع في صحراء قاحلةٍ، مهما كانت العبرة من هذا التغريب!

الله ذاته لم يشأ أن يدع آدم وحده على الأرض، بل خلقَ له من ضلعه ما يؤنسه، هذا الخلقُ بذاته، هو كمال لآدم لا نقصان له، فمن خلق امرأة من ضلع رجل، كان الأحرى به أن يساويها بآدم من باب العدل والإحسان، كما أنه ليس من العدل أن يترك امرأة وحيدة مع طفل رضيع في صحراء.

من خلال هذه الأفكار، أودّ أن أطرحَ بعض النقاط الأساسية العامة، ومنها القضايا الشخصية التي هي في حقيقتها عامة.

## المرأة وحركات التنوير

حركات التنوير التي قامت عبر العصور مازالت عقيمة، لم تستطع أن تقدم شئيا بالنسبة إلى المرأة، وبقيت قضاياها عالقة في بواطن الكتب والأحاديث الدينية وتفسيراتها. هذه النصوص والتفسيرات لا يمكن التجاوز عليها، لا فكرياً، ولا دينياً، كونها تعتبرُ خروجا عن النص غير المباح نقاشه أو تفسيره، لذلك نرى أنه على الرغم من التطور الذي حدث عبر حركات التنوير والحركات النسوية جميعها، لم تستطع تغيير واقع المرأة خوفاً من الخروج على النص الديني.



**الحديقة الدينية**

لم أكن أفكر في الخوف أبدا، كوني لا أعيش تحت سطوة الالتزامات الدينية من حجاب ونقابٍ، هذا بدوره جعلني خارج الحديقة الدينية التي تتباهى بها النساء، وبأنّ الله فتحَ لهنّ طريق الهداية الكاذب، وجريئات من يكن يهمسن في أذني «أنهن مُجبرات بسببِ الخوف». من دون شك، هناك انفصال وانفصام في الفكر، وانفصام يحجب الجسد عن العقل.

نناضل فكريا للتخلص من التسلط والعبودية والملكية التي تثقل حياة المرأة، فهي دائما ضمن هذه الدائرة، دائرة الممتلكات، العقل يرفض هذه التوصيفات، كونه يحاربها فكرياً؛ فنزعة الملكية، لا يمكن التخلص منها مهما تعالى الفكر على الجسد، وهذه الخصوصية في التملّك، لا يمكن أن تكتمل فكريا، إلا بعودتها إلى ذكوريتها؛ فالذكورة، حسب تعبير أبي «تحمي من الانقراض»!

وعي المرأة منذ الخليقة يتجسّدُ في إبداعها وعطائها، وفهمها لمحيطها الذي تكونت وعاشت فيه، وفكرة تهجير هاجر أم إسماعيل، كانت التغريبة الثانية، بعد حواء التي غُرّبت من السماء إلى الأرض عقوبة لها، حيث هبطت عارية، كما هاجر أم إسماعيل التي تاهت في الصحراء.

تؤكد الباحثة المغربية الدكتورة حورية عبد الواحد في كتابها المهم جدّاً «اللغة والمرآة... أطروحات عربية في التحليل النفسي»، على قدرية المرأة وأن هاجر تحمل قدرها داخل اسمها، ففعل هاجر يعني «تغرب، رحل، ترك»، فهي «تركت؛ أي هاجرت «تحت الشمس اللاهبة، وفيما هي تتمزق وتفقد رشدها من الألم والقلق، بسبب العطش المتعاظم لابنها، شرعت بالعدو على غرار مجنونة، بين أكمتي الصفا والمروة. وهكذا، فإن الهذيان يمسي «هُجر» واكتشفت أخيراً ينبوع ماء، اكتشفت «هجيراً»، وهو حوض ماء واسع سكن عطش الابن وقلق الأم، تؤكد الدكتورة المغربية حورية عبد الواحد أن: «هناك قدرة رائعة ومدهشة في تفكيك اللغة من أجل تغذية الأسطورة».

كل امرأة منّا تحمل في داخلها فعل «هجر» أو هاجر، كونها تعيش ضمن أطر وقوانين خارج إرادتها، فهي غير قادرة على تحديد ملامح هويتها ومستقبل شخصيتها إلا كما تحددها النصوص الدينية والأعراف. ومن هنا، لا بد أن نتساءل، وبحرقة: لماذا تفرض هذه القواعد على المرأة دون الرجل؟

ولماذا تُستبعدُ المرأة من الإرث والميراث والوصية، ومن الحصص والجوائز والمكافآت؟ ولماذا تُشطر بين حياتين؟ ثم لماذا النفي والإبعاد والتمزق خارج الجذور؟

نحن في أشد العصور قسوة وتغريباً، حيث كان التغريب بناءً على أمرٍ مُوحى، ولكنه اليوم مدعوم بنصوص تشريعية وقانونية وسياسية

> تعاني المرأة من مشكلات الاغتراب والتغريب والهوية، سواء على الصعيد الديني أو المجتمعي



واجتماعيـة، حيـث لـم يتمكـن الفكـر التنويـري والسـياسي والاجتماعـي والاقتصادي، مـن التخلـص مـن النـص الديـني وسطوته عـلى المـرأة، ولا حـتى التحليـل والتفكـير فيـه مـن جوانـب إنسـانية، كونـه خاضـع لقـدرة إلهيـة!

أسئلة متعـددة وقضايا بشريـة وإنسانية تطـرح عـلى بسـاط البحـث، دون جـدوى في إيجـاد الإجابـة الشـافية عـن أسـئلة مصيريـة بالنسـبة إلى حيـاة كل امـرأة!

تؤكـد الباحثـة المغربيـة الدكتـورة حوريـة عبـد الواحـد: «مصـير المـرأة هـو المنفى والاغـتراب». وتسـأل أسـئلتها الوجودية: «لمـاذا أكـون ابنـة النفي والإبعـاد؟ ولـم المنفى خـارج العائلـة وخـارج الجـذور؟ ولـم التمـزق الناجـم عـن هـذا التفريـق؟»

هـذه الأسـئلة المحـيّرة، هـي الـتي جعلـت مـنّي شـخصا آخـر، مـع أنـني لسـتُ ربّـة القمـر!

لسـتُ ربّـة القمـر، لكـن الله منحـني طاقـة عـلى الركـض في الحقـول، ليسـت حقـولاً بمعـنى الأرض أو البسـاتين، وإنمـا طريـق الحيـاة الـتي يسـلكها المتصوفـة، طـرق عاليـة وعـرة، وكنـت أرتفـع بهـا وفيهـا عـن النـاس والمـادة، وخيّـل لي أني قـد أكـون ربّـة القمـر، بعـد أن نجـوت مـن حادثـة الثعبـان الأحمر. في صيـف تمـوزي، كنـت في طاقـة خلاقـة للركـض في أرض ليسـت لي، وفي بسـاتين شُـجرت لغـيري، وفجـأةً يظهـر لي ثعبـان أحمـر، عندمـا شـعر بي غـير طريقـه ليتعقبـني. وبقـوة الطاقـة الروحيـة تحوّلـتُ إلى غـزال، أدركَ بـكل براءتـه بعـدم الجـدوى مـن العنايـة بـأرض لا ينتمـي إليهـا إلا الذكـور!

لـم أفكـر بخطـورة مـا كنـت قـد تعرضـتُ لـه مـع الثعبـان الأحمـر، تعددت الروايـات بالحديـث عنـه، منهـم مـن قـال: لا يعـض، ومنهـم مـن قـال، أنـه يـضرب بذيلـه فيكـسر القـدم أو يقطعهـا، ومنهـم مـن يقـول إنـه يلاحـقُ ويطـاردُ عـلى مسـافات طويلـة، حـتى يتمكـن مـن الـضرب أو اللـدغ.

شـعرت بـأني تحولـتُ إلى روح مقدسـة، لأنـه مـن النـادر أن ينجـو أحـد مـن لدغـة الثعبـان الأحمـر، كونـه لا يتراجـع ولا ينهـزم، يُطـارد بقـوة، لكـن قـوتي وإرادتي في النجـاة كانـت أقـوى منـه، حيـث كنـت أراه بـين أقدامـي، وأنـا أقفـز في الهـواء، مثـل سـاحرة منحهـا الـرب طاقـة لا أحـد يقدرهـا غيرهـا. بعـد نجـاتي مـن مـوت محتـوم، بـدأت حملـةُ البحـثِ عـن الثعبـان الأحمـر لقتلـه، حيـث أعلـنَ الجميـع بـأن لدغتـه لا نجـاة منهـا! لكـن أمّـي أصرّت بعـدم البحـث عنـه، كونـه لـم يلدغـني.

فكـرت كثـيرا بفكـرة أمـي، وأخـذت أربـط بـين فكرتهـا والأسـاطير القديمـة، حيـث كانـت الثعابـين تعبـد وُتنقـش عـلى الجـدران والأواني وتمنـح المعرفـة والحكمـة الواسـعة لمـن يلمسـها. الأفعـى الحمـراء الـتي طاردتـني، كنـت أجهـل فيمـا إذا كانـت ذكـرا أم أنـثى، ولكـن قدرتهـا عـلى الالتفـاف والـدوران والقفـز تؤكـد لي بأنهـا كانـت ذكـراً وليسـت أنـثى!

لم يتمكن الفكر التنويري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، من التخلص من النص الديني وسطوته على المرأة



فمـا يُعـرف عـن الأفاعـي وخطورتهـا، درجـات متفاوتـة، فهنـاك السـوداء والبيضـاء الـتي هـي أكـثر سميّة، حيـث مـن المتعـارف عليـه أن الأفعى السـوداء لا تُقتـل أينمـا وجـدت بعكـس البيضـاء أو الحمـراء. يبـدو أنهـا كانـت رسـالة إلى قـراءة العالـم بطريقـة مختلفـة تمامـاً عمـا يـراه الغـير.

مضـت أيـام طويلـة وأنـا أراهـا تنـام معـي في سريـري بـين رعـبٍ آمـن أو وهـم آمـن، كنـت أغمـض عيـني دون أيّ شـعور بالخـوف أو عدمـه، إلى هـذه اللحظـة أذكرهـا تمامـاً بـين أقدامـي تلعـبُ، ليـتراءى لي العالـم صغـير الحجـم بقـدر لدغـة ثعبـان، حيـث تتحـول الحيـاة إلى مـوت محتـوم، كمـا يتحـوّل النـور إلى ظـلام.!!

مـرت أشـهر طويلـة وأنـا أعيـش كابـوس الثعبـان الأحمـر، لأرى نفسـي أتنقـل بـين الأسـاطير، وأقنعهـا بمـدى صحتهـا، فـلا شئ يـأتي مـن العـدم، وهـذا الثعبـان الأحمـر الـذي طـاردني لمسـافة طويلـة في صيـف تمـوز، أعـادني إلى أفعـى جلجامـش، حيـث كان مـن الممكـن أن أمـوت في دقائـق أو ثـوان معـدودة، لأن القريـة لا طبيـب فيهـا، ولا مراكـز صحيـة، والمدينـة بعيـدة، ليسـت قريبـة بـأن تـترك مسـافةً للدغـة أفعـى، دون أن يـسري السـمّ في الجسـد الـذي لدغتـه. وحسـب الروايـات، فـإن هنالـك العديـد مـن الضحايـا في الصيـف بسـبب لدغـات الأفاعـي، إذ لا أمصـال في المشـافي والمستشـفيات الكبـيرة بسـبب الحصـار والحـرب الـتي لـم تنتـهِ منـذ سـنوات.

سـاعدتني أمـي بالخـروج مـن فكـرة الرعـب والمـوت إلى فكـرة الحيـاة والانبعـاث! أمـي ذكوريـة في حبهـا، لكنهـا خافـت وبكـت مـن أجـلي، كـوني أنـا ضيفتهـا القادمـة مـن بعيـد. قطعـت البحـار والمحيطـات لأزورهـا في مرضهـا، فهـي لا تريـدني أن أمـوت، فهـي ستشـعر بالذنـب المضاعـف، كـوني أنـا ابنتهـا وضيفتهـا!

بـدأت بتحليـل العلاقـة الفريـدة بـين أفعـى جلجامـش والثعبـان الأحمـر الـذي لـم أعـرف جنسـه إلى اليـوم، هـل كان ذكـراً أم أنـثى؟

قُـدر لي أن أعيـش، وألا أمـوت بسـم أفعـى، فهـذه الأفعـى لـم تـسرق مـني شـيئا، بـل منحتـني حيـاة جديـدة لا أدري كيـف ومـتى تنتهـي، فأحسسـتُ بنشـوة الانتصـار عـلى جلجامـش، أفعـى تـسرق منـه عشـبة الحيـاة، وأفعـى تمنحـني الحيـاة، مقارنـة ليسـت سـهلة، لكنهـا فكـرةُ عـزاء لمـوت لـم يـأت مبكـرا، أو قـد تكـون إشـارات ورمـوز لأصيغهـا بقوالـب مختلفـة لفهـم الحيـاة الـتي نعيشـها!

لـم أمـت بلدغـة أفعـى، ولا بالقذائـف الـتي كنـت أراهـا تتسـاقط فـوق الوديـان. كنـا نتراكـض في كل الجهـات، بعضنـا يختـبئ مـن الخـوف، والبعـض الآخـر يـسرع إلى تصويـر القذائـف والصواريـخ، وهـي تنفجـر في الفضـاء بفعـل الراجمـات الروسـية. كان عـلي أن أركـض إلى أقـرب مسـاحة للصـوت، كي أرى وأسـمع أصـوات الانفجـارات المدويـة في أجـواء القـرى والمـدن الـتي كُتـب عليهـا أن تدفـع ضرائـب عاليـة مـن أرواح أبنائهـا!



لـم أشـهد الحـرب، كمـا شـهدها غـيري، ولكنـني كنـت مـن أسرع النـاس إلى جهـات الصـوت والانفجـارات! كنـت أحاسـب نفسـي، لأنـني لـم أتعمـد بدمـاء الحـربِ، ولـم أتقـدس بقداسـة الشـهادة أو رفـع رايـة البـلاد، الـتي كانـت رمـزا عنيـدا للقـوة والمواجهـة، كمـا حـدث بيـني وبـين الثعبـان.

الثعبـان الأحمـر، نبهـني إلى أشـياء كثـيرة في هـذا العالـم وزادني معرفـة بمـا يحيـط بي، لقـد رأيـت السـماء أقـرب إلى الأرض مـن سـابق عهدهـا، والأرض أكـثر تصحّـرًا رغـم اخضرارهـا، والنـاس أكـثر قربـا رغـم تفرقهـم، حـتى أني أسـتطيع أن أقـرأ وجـه كل نجمـة قريبـة كانـت أو بعيـدة، بـذات الضيـاء، فعـودتي الأخـيرة لا تشـبه وداع بـوذا لمدينتـه، هـو الـذي لـم يسـتطع النظـر إليهـا بعـد أن تـرك ولـده وزوجـه فيهـا وعـبَر النهـرَ بقـوة عـشرة جيـاد.

اليـوم، أراهـا بعـين أخـرى وصـورة أخـرى، وبمـا معنـاه أن الله قريـب منهـا ويبسـط كل جمالـه فوقهـا!

انظـر إلى التـلال الـتي تحيـط ببيتنـا، عندمـا أقـول: «بيتنـا» لا أشـكك دقيقـة واحـدة في مفهومـي وفهمـي لكلمـة «بيـت»، وهـي مـا أقصـده تمامـا أنـه البيـت الـذي ولـدت فيـه. يلتبـسُ الأمـر عـلى أمـي وأبي ومـن يسـمعني، ليذهـب الظـن بـه إلى أنـه البيـت الـذي أسـكنه حاليـا، حيـث أعيـش، وليـس البيـت الـذي ولـدت فيـه. البيـت الـذي ولـدت فيـه هـو بالنسـبة إلي بيـتٌ الفطـرة والانتمـاء والجنسـية والهويـة والملامـح الـتي أنتمـي إليهـا، البيـت الـذي لا يمكـن فصلـه عـن الجسـد والـروح مهمـا التبـس المعـنى والتفسـير إلى أي بيـت أقصـد أو أشـير، وكان عـليّ دائمـا في معـرض حديـثي أن أوضّحَ لمسـتمعي، سـواء كان أبي أو أمـي وإخـوتي، أن البيـت الـذي أقصـده بيتنـا «هـو بيتكـم»!

كيـف لي أن أشرح وأوضـح علاقـتي بــ «البيـت»، كمـا ذكـرت، كنـت لا أحـب القريـة ولا أرغـب في العـودة إليهـا، كنـت أخـشى أن تكـون مـرآة لحيـاتي الـتي عشـتها وقاومتهـا في البحـث عـن هويـة، أنتمـي إليهـا، في إثبـات وجـودي عـلى هـذه الأرض، وكنـت أعـزي نفسـي بابـن عـربي، وأردد معـه: «كل مـا لا يؤنـث لا يعـوّل عليـه» ولكـن لمـاذا الذكوريـة؟ لمـاذا يعـوّل عليهـا؟ لمـاذا المراهنـات، عـلى أن الأرض لا تعطـي ثمارهـا بـدون الذكـر؟

كنـت في زيـارة إلى «بيتنـا» إلى بيـت أهـلي «أقصـد»، وقـد تراهنـت مـع أبي عـلى فكـرة نفاهـا وقاطعـني بهـا، قائـلا لي وبـكل ثقـة أن البـذور الـتي بذرتُهـا في الأرض لـن تثمـر، وأنـني أتعـب في هـذا دون جـدوى. في قـراره وفكرتـه، كان معارضـا تمامـا لفكـرة رش بعـض البـذور في الحديقـة الأماميـة للبيـت، حـتى أنـني اسـتغربتُ إصراره بالنفـي القاطـع بـأن البـذور الـتي بذرتهـا لـن تثمـر.

كان الرهـان قويًّـا بيـني وبينـه، بقـدر مـا كان عصبيـا ومغتاظـا مـني ومـن فكـرتي في الزراعـة، كنـت متفائلـة بـأن الله منحـني يـدا خـضراء، لا تمـوت بذورهـا، هكـذا كان إيمـاني بـذاتي، وبوحـدة روحـي المتكاملـة. هكـذا تعلمـت مـن الحيـاة بـأن أكـون كالنبـع الصـافي، أمنـح حـبّي بـلا مقابـل، ولكنـني كنـت

أصطدم بالناس كما أصطدم بالأحجار لا بد من أن أنهض من كبوة لا بد منها، وأتعلم منها. كل يوم كنت أرقب بذوري، وأبي يقول لي أن تعبي سيذهب سدىً بلا جدوى، لكنني كنت مصممة على الانتظار والجني.

في حديث متفرد وغريب مع أبي أيقنتُ تماما رفضه لفكرة زراعتي الأرض، كان في أعماقه يخاف من أن أستحوذ على هذه الأرض المؤنثة. أبي في أعماقه يشعر بالخوف من أن تذهب منه هذه الملكية التي يحوذها إلى أنثى. أرض بقلةٌ غنية كما تقول العرب في وصف الأرض.

مراهناتي لاقت ثمارها وانتصرت على أبي بالفكرة، ولكنه انتصر علي بالمعنى والاستحواذ، كان من المدهش والمفجع، أن أسمع من أبي حديثاً هزّ كياني وخلخله، أبي هذه الأيقونة التي ما زلت أومن بها، والتي ألفت وكتبت عشرات الكتب في اللغة والشعر والأدب والفكر والعروض والمعاجم اللغوية، كان قد اختصر كل علمه وفكره بكلمة «ذكر»، وكل من ليس لديه ذكر من إخوتي «لا يعوّلُ عليه» كنت في خلاف معه، وفي طرحه لأفكار لا تتناسب مع ما أنجزه من إبداعات في الفكر واللغة، هو الذي كتب عشرات الكتب، مؤيدةً بأشعار العرب وما قالوه منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، ولكنه لا يغفر، لمن يحب ويراه خطأ في مفهوم اختياراته ولا يرى العالم حوله إلا «ذكرا».

## درجات الألم تزداد مع المعرفة

لا أدري ما الذي غيّر أبي، وجعله شخصا مختلفا عما، كنت أراه؟

أقول ربما حياتي البعيدة، هي التي جعلت مني فتاة عاطفية، قادتها عاطفتها إلى عالم لم تكن تتصوره على الإطلاق، ولا حتى التفكير به، ولو على بُعد سنوات ضوئية، إنها شرارة الحب، التي توهمنا بأننا أبطال، وعلينا التضحية في سبيل هذا الحب.

الحب نوع من أنواع الوطنية، يمنح الأمان والاستقرار والانتماء، ولكن كل هذا لم أجده في حبي، الذي ما زالت آثاره عالقة بدمي، ولم يمنحني أيّ انتماء أنتمي إليه، وهكذا فقدت هويتي الوطنية، وصار علي أن أكنى باسم المحبوب الذي لم يعد حبّاً، بل صار اسماً ومعنى وأولاد لا ينتمون إلى هوية، فقد ضاع انتماؤهم بين أمّ لا يعطيها القانون حق منح هويتها وجنسيتها إلى أولادها، وبين أب مطارد سياسيا، وهكذا التقينا جمع من المشاعر الغريبة.

كان علي أن أثبت أني بطلة، لأفقد كل انتماءاتي، وأردد مع ابن عربي «لا دين إلا دين الحب». الألم يصعد درجات بالإنسان. أنا أومن بهذا الصعود، وهو ما جعل مني امرأة قوية، صلبة، شجرة عنيدة في بستان الحياة.

الألم يشبهُ الهواء النقي، يحرر الرئة من تلوث الحياة والقوانين

> ساعدتني أمي بالخروج من فكرة الرعب والموت إلى فكرة الحياة والانبعاث!

والأقـارب. حـتى أنـي أشـعر بفلسـفة الألـم، وأفهمهـا كمـا يتحـدث عنهـا «كيريجـاد القبيـح»، لقـد رفعـه الألـم درجـات، حيـث كان يتحـدث إلى أمـه. ارتفعت بألمي عـن القوانـين والأنظمـة والهويـات الملعونـة، في جحيـم عالـم عـربي نـتن، لا يؤمـن بالحـب ولا بالإنسـانية، مـع أنـه يبـكي عـلى أطـلال المـاضي، حيـث وضـع قيـس ابـن الملـوح قبلتـه الأولى عـلى جـدار ليـلى، وحيـث المتنبـي، كان يمـدح ويـرثي ويهجـو مـن أجـل المـال والمناصـب، ولكنـه بقـي خالـدا في ذاكـرة العـرب عـلى أنـه تـراث وأدب وفكـر، لا يقـدم ولا يؤخـر للإنسـانية مـن شيء. أمـا الهويّـة، فـلا تمنـح إلى اليـوم ومنـذ فجـر العـرب، وإسـلامهم لامرأة..

### يد مبسوطة ويد مغلولة

للذكـر كلّ شيء مبـاح، الأرض والحجـر والاسـم والعائلـة، ويكـون نبيـاً عندمـا ينجـب العـدد الأكـبر مـن الذكـور، مـن ينجـب الذكـور هـو أولى بالإمـارة والولايـة.

في الخطـاب الإلهـي، نهـى الله عـن الكـرم ونهـى عـن البخـل بالمقابـل، ولكن البسـط للذكـر لا يقابلـه البسـط للأنـثى..، تخـرج العائلـة عـلى هـذا الـكلام وتتبجّـح بالعطـاء الـذي لا يتوقـف ولا ينضـبُ، مسـألة ليسـت سـهلة في إدراكهـا واسـتيعابها. إنـه «الحلـول أو الاحتـلال»، ولا أقصـد هنـا الحلـول بالمعـنى الصـوفي. مـا أقصـده بالحلـول هنـا، هـو دخـول أنـثى غريبـة، وخـروج أنـثى حقيقـة، مـن حيـث الـدم والانتمـاء، ولكـن الحلـول يأخـذ صفـات الحقيقـة، وتلبـس الحقيقـة ثـوب الآخـر قبـل الدخـول إلى عالـم البطريركيـة، فـإن أنجبـت بحلولهـا ذكـورا كانـت لهـا الصـدارة، وإذا لـم تنجـب كان لهـا مـن المحبـة بقـدر عملهـا..

قـرأت كثـيرا عـن المتصوفـة، وعـن رابعـة الـتي هامـت في الله، كأنـه يراهـا ولا تـراه، وهامـت بعيـداً في رحلتهـا الصوفيـة، كنـت أسـتمد منهـا قـدرتي عـلى العلـو، أحـاول أن أنمـو بالثمـرات الـتي في داخـلي، ثمـرة المحبـة، وثمـرة التجربـة الـتي عمقـت وجـودي في هـذا العالـم، وجعلتـني أرتفـع حـتى بسـطت يـدي للجميـع، ولكنـني مـا رأيـت أيديهـم إلا مشـدودة إلى أعناقهـم!

كانـت أمـي تحـارب مـن أجـل أيّ ولـد ذكـر مـن أولادهـا، وترفعـه وتنزهـه إلى درجـة الملائكـة، ولكنهـم لـم يرثـوا منهـا إلا جفافهـا العاطفـي مـع الإنـاث مـن العائلـة.

أمـي لا تجيـد غـير حـب الذكـور مـن أولادهـا، مهمـا تعالـت قيمـة الأنوثـة عندهـا. كان علـيّ أن أسـلك طريقـاً آخـر في الوعـي، كي أفهـم العلاقـة القائمـة بـين الذكـور والإنـاث مـن حيـث المعـنى الروحـي والنفسـي، إذ لا نجـد مناصـاً مـن الفصـل بينهمـا. ذكـرٌ يُحتضـن ويُدافـع عنـه ويُقـدم لـه مهمـا كانـت أخطـاؤه. وأنـثى وأعـني هنـا أكـثر مـن واحـدة، هـي دائمـا غائبـة عـن الحصـص والجوائـز والمكافـأة، حـتى في درجـة تقييمهـا الثقـافي، حيـث ينظـر إليهـا أنهـا أقـل اسـتيعابا ووعيـا في فهمهـا للعالـم وللكتـب الـتي تقـرأ وتسـتبعد مـن خزائـن الأمـوال والأفـكار. كل مـا يمـر وسـوف يمـر عـلى حيـاة المـرأة، سـيبقى ضمـن

> الألم يشبهُ الهواء النقي، يحرر الرئة من تلوث الحياة والقوانين والأقارب



حـدود الدرجـات الدرجـات استنادا إلى النصـوص (وللرجـال عليهـن درجـة) قـرآن كريـم.
حقّـاً مـا زال للرجـال عليهـن درجـة، فمـتى نسـقطها ونسـاوي بـين الدرجـات، بـين الذكـر والأنـثى؟



**على سبيل الاستهلال..**

هي خصلة رفيعة القدر، شكلت محكّاً رئيساً في درب الأخلاق، تجري منشآت الأدباء، ويتحدث عن معناها في علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق، تلك الفضيلة هي المُرُوءَة...

# المُرُوءَة بوصفها تواصلاً اجتماعياً

## رؤيـــــة بمدارات مختـــلفة..!!



بقلم: أيمن عبد السميع حسن حسين

باحث تربوي مصري

بادئ ذي بدءٍ، فغرائز البشر تكتب التاريخ، فلا تخلو صفحة من أثر هذه الغرائز، وهي تغيّر ملامح الأرض وترسم مسارات الحياة، وتعيد تكريس الإنسان لكائن غريزيّ وإن لم يشعر، تسيره دوافعه، منحوتةٌ بقدرة إلهية في جيناته، ومكتوب بخط أزلي على أقداره، ومحسوبة على سلوكه منذ الصرخة الأولى، وحتى الصمت الأخير.[1]

الثابت أن الإنسان يحيا بين النّاس بأخلاقه وشمائله الكريمة المحمودة، ولولا الأخلاق، ما استطاع أن يشق طريقه في الحياة، ويحقق ما تصبو إليه نفسه من أهداف وغايات... ولذلك، كان الخلق كنزاً لا يفنى... لأنه يظل مصدر فخر الإنسان طوال حياته، وسيره العطرة بعد مماته، يبقى بقاء الإنسانية ذاتها..

قال ابن منظور، في «لسانه»:
وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، والجمع أخلاق، والخُلُق: السَّجية»، وقال: ((الخُلُق- بضم اللام وسكونها: هو الدين، والطبع، والسَّجية))..

وقال الجرجاني: «الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تَصْدُر عنها الأفعال بِسهُلة ويُسر من غير حاجة إلى فكر ورؤية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التي تصدر عنها هي مصدر ذلك خُلقاً سيئاً»[2].. الخُلق هو شعور المرء بأنه

١- "الرّحيل نظرياته والعوامل المؤثرة فيه"، محمد حسن علوان- دار الساقي- ط٢٠١٤/١- بيروت.

٢- "معجم التعريفات" علي بن محمد الجرجاني(٧٤٠-٨١٦ه)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار نشر الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٥



مسؤول أمام ضميره عما يجب أن يفعله، لذلك لا أسمي الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السر والعلانية.. وقيل في موضع آخر: إن الخُلق هو الصرخة التي يصرخها الشجاع في وجه من يجترئ على إهانة وطنه..

معروف- لدى الغالب- أن الإسلام جاء بتحصيل كل فضيلة، ونبذ كل رذيلة، ومن أهم ما جاء به الإسلام لتميز شخصية المسلم عن غيره الأخلاق والآداب والعقائد والأحكام ... من تلك الأخلاق نذكر على سبيل المثال لا الحصر «المُرُوءَة»..

## معنى المُرُوءَة في اللغة:

جاء في لغة العرب؛ ((المُرُوءَة)) بالهمزة، فقال الجوهري وغيره: ويجوز تشديد الواو وترك الهمزة، قال الجوهري: المُرُوءَةُ: الإنسانية، وقال ابن فارس: الرُّجوليَّة، وقيل صاحبُ المروءة: من يصون نفسه عن الأدناس، ولا يشينها عند الناس، وقيل: هو الذي يسير بسيرة أمثاله في زمانه ومكانه.. قال الجوهري: مَرُؤَ الرجل؛ أي: صار ذا مُرُوءة، فهو مَرِئ علي وزن فعيل، وتَمَرَّأَ الرجل: تَكَلَّف المُرُوءة.[٣]

## المُرُوءَة في الاصطلاح الشرعي:

قال الماورديُّ: المُرُوءَةُ مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتَّى لا يظهر منها قبيحٌ عن قصد، ولا يتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق..[٤]

كما قال الفيومي في كتابه[٥]: المُرُوءَةُ آداب نفسانيَّة، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات..

## المُرُوءَة في بطون كتب الأدب:

لرحابة تلك الكلمة، فقد صال القلم وجال، يمنة ويسرة، وسطَّر بلغاء الرجال وحكمائهم عبارات تشير إلى بعض الواجبات والآداب التي تقوم عليها المُرُوءَة، كما قال الأحنف بن قيس: المُرُوءَة: العفة والحرفة..، وقال ميمون بن ميمون: المُرُوءَة طلاقة الوجه، التودد، قضاء الحوائج.. أما مسلم بن قتيبة، فوصف المُرُوءَة قائلاً: هي الصبر على الرجال، أي الصبر على المكاره في معاشرتهم، ثم جاءت عبارة ابن هبيرة، قال فيها: المُرُوءَة: إصلاح المال، والرزانة في المجلس، الغذاء والعشاء في الفناء (يقصد كرم الضيافة)، وقال محمد بن عمران التيمي: المُرُوءَة ألا تعمل شيئاً في السر تستحي منه في العلانية.[٦]..

## المُرُوءَة... موضوعاً شعرياً..

إن الخُلق هو الصرخة التي يصرخها الشجاع في وجه من يجترئ على إهانة وطنه

٣- يُنظر، "لسان العرب" لابن منظور، (١٥٤/١)، دار صادر، بيروت سنة ١٩٦٨
٤- (٣٥٢٢) "أدب الدنيا والدين"، ص ٣٢٥
٥- "المصباح المنير"، (٣٥٢٤)، ٨/٤٤٦
٦- يُنظر، "عيون الأخبار" (٤١٢/١) لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٥م

وقال زهير بن أبي سلمي (٥٢٠ - ٦٠٩ م) في نحو هذا:

**السترُ دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من سِتر**

وقال آخر:

**فسِري كإعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثلُ ضوءٍ نهارياً**

ولاشتمال المُروءَة على جملة الفضائل، يقتصر بعض الأدباء عليها في مقام إيجاز المديح؛ حيث قال سعيد بن حميد (العصر العباسي) يعاتب صديقاً له:

**ولئن سبقت لتبكيّن بحسرة وليكثرن عليَّ منك عويل**
**ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشاركه لدي خليل**
**وليذهبن بهاء كل مروءة وليفقدن جمالها من المأهول**

قال شاعر:

**وإذا الفتى جمع المروءة والتُّقي وحوى مع الأدب الحياة فقد كَمُل**

وقال شاعر من بني قُريع:

**وإذا المرءُ أعيتهُ المُروءَة ناشِئاً فمطلبُها كَهْلاً عليه شدائدُ**

كما أنشد أبو بكر الإسماعيلي (٢٧٧هـ - ٩٨٢م) فقال:

**وإذا جلست وكان مثلك قائماً فمن المُروءَة أن تقومَ وإنْ أبى**
**وإذا اتكأت وكان مثلك جالساً فمن المُروءَة أنْ تزيل المتّكا**
**وإذا ركبت وكان مثلك ماشياً فمن المُروءَة أنْ مشيت كما مشى**

كما قال أمير الشعراء الأستاذ أحمد شوقي في ذات الموضوع:

**إني لتُطربُني الخِلالُ كريمةٌ طَرَبَ الغريب بأوْبة وتلاقي**
**وتَهُزُّني ذِكرى المُروءَة والنَّدى بين الشمائل هزة المشتاقِ**

**فوائد المُروءَة:**

**للمُروءَة فوائد كثيرة، نذكر الآتي:**

صون النفس، وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله عزَّ وجلَّ، وملائكته، وعباده المؤمنين، وسائر خلقه التحلي بها مما يزيد في ماء الوجه وبهجته، قال ابن القيم: (أربعةٌ تزيد في ماءِ الوجهِ وبهجتِهِ: المروءَة، والوفاء، والكرم، والتَّقوى) جالبة لمحبة الله تبارك وتعالى للعبد، ومن ثم محبة الخلق له. تحمل صاحبها إلى الترفع عن سفاسف الأمور، ومحقراتها.

**كيف نخلق المُروءَة بداخلنا؟!**

الأمر بإذن الله يسير، لكنه يتطلب اجتهادا منّا، باتباع بعضاً من التوجيهات:

- أن يضبط الإنسان نفسه عن هيجان الغضب، أو دهشة الفرح،



وأن يقـف موقـف الاعتـدال في حـالي الـسرَّاء والـضرَّاء..

- ألاَّ يفعل في الخفاء ما لو ظهر للناس لعدُّوه من سقطاته والمآخذ عليه.
- أن يُحسـن الإصغـاء لمـن يُحدثـه مـن الإخـوان، فـإنَّ إقبالـه عـلى محدثه بالإصغـاء إليـه يـدلُّ على ارتياحـه لمجالسـته، وأُنسـه بحديثه..
- أن يكـون حافظًـا لمـا يؤتمـن عليـه، مـن أسرارٍ وأُمـور لا ينبغـي أن تظهـر لأحـدٍ غـير صاحبها..

**المُرُوءَة جسر تواصل... ولها خوارم أحياناً..!!**

إكمـالاً لمـا سـبق، أقـول: المُـرُوءَة هـي آداب نفسـانية تحمـل مراعاتهـا عـلى الوقـوف عنـد محاسـن الأخـلاق وجميـل العـادات، وهـي رعـيٌ لمسـاعي الـبر ورفـع لدواعـي الـضر، وهـي طهـارة مـن جميـع الأدنـاس والأرجـاس...

**خصالٌ قيل إنها تخرم المُرُوءَة..!!**

لـكل شيء مفسـدة، فهنـاك خـوارم للمُـرُوءَة، وهـي كثـيرة جـداً، منهـا ما هو محـرم، ومنهـا مـا هـو مكـروه، بـل ومنهـا مـا هـو منافيـاً لـلأدب، والحشـمة، حـتى، وإن كان غـير مخالـف للـشرع، ومـن خـوارم المـروءة؛ نذكـر منهـا عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر:

- العمـل عـلى اسـتعمال واسـتغلال الضيـف أو تكليفـه بالعمـل، ولـو كان خفيفـاً، وذلـك راجـع إلى أن الإكثـار مـن تلـك الأمـور، ولـو لـضرورة ليـس مـن المـروءة.
- أكل الفـرد للسـحت «أي المـال الحـرام»، فقـد قـال القرطـبي: «سـمي الحـرام سـحتاً لأنـه يسـحت مـروءة الإنسـان».
- نتف المرء لشعر إبطه أمام الناس دون تستر.
- كـثرة المـزاح أو تعمـد الجلـوس في الطرقـات أو الأسـواق بهـدف رؤيـة النسـاء.
- مخالفة الرجل للباس أهل بلدته أو للغتهم، وعاداتهم.

**مقاربة مفهومية لمصطلح المُرُوءَة مع أزمة القيم واختفاء المعنى..!!**

الأخـلاق- المُـرُوءَة - باقيـة ببقـاء الإنسـان عـلى وجـه البسـيطة، لكـن قـد تحـدث لحظـات تـتردّى فيهـا تلـك الأخـلاق، وقـد أرجـع المفكـر الكبـير عبـد الوهـاب المسـيري[٧] أفـول الأخـلاق إلى عـدة أسـباب، نذكـر منهـا مـا يـلي:

المُرُوءَةُ آداب نفسانيَّة، تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات

٧- يُنظر: "العلمانية تحت المجهر"، عبد الوهاب المسيري، ص٥٥، الناشر: دار الفكر - دار الفكر المعاصر الطبعة: الثانية ٢٠٠٠

كـون الحضـارة الغربيـة حضـارة تكنولوجيـة تعـلي مـن قيـم المنفعـة والكفـاءة والإنجـاز مهمـا كان الثمـن المـادي والمعنـوي المنجـز عـن ذلـك، وتـرى البقـاء للأصلـح والأقـوى، وتهمـل القيـم التقليديـة كالـبر بالضعفـاء، والشـهامة، ومسـاعدة الآخـر..

هيمنـة المرجعيـة الماديـة وكذلـك الارتبـاط الوثيـق بمنظومـة العلمانيـة الشـاملة يُعـد مـن الأسـباب الرئيسـة في الأزمـة الأخلاقيـة...

أمـا أهـم الميادين والمجـالات الـتي تتجـلي فيهـا غيـاب الأخـلاق، وعـلى رأسـها المـروءة وأفولهـا، فهـي: الديـن، الفلسـفة، العلـوم الطبيعيـة، النشـاط الاقتصـادي والوظيفـي، الجريمـة، المجتمـع التعاقـدي...

**أساليب تنمية المُرُوءَة في عصر التحول...**

وختامـاً، يمكـن عـرض بعـض أسـاليب التربيـة لتنميـة المُـرُوءَة في عـصر التحـول عـلى النحـو الآتي: العبـادات، القـدوة الحسـنة، القصـة، الحـوار والمناقشـة، والترغيـب والترهيـب.

تعد هيمنة المرجعية المادية، وكذلك الارتباط الوثيق بمنظومة العلمانية الشاملة، من الأسباب الرئيسة في الأزمة الأخلاقية


صدر حديثا


تجديد الفكر الإسلامي
مقاربة نقدية
(1)
أعلام تجديد الفكر الديني
الجزء الأول
مجموعة من الباحثين

# التطرف الدّيني والتطرف الفكري



بقلم : نورالدين عزار
كاتب وباحث مغربي

تمثل ظاهرة الإرهاب أهم الإشكاليات التي تواجه عالمنا المعاصر، وقد زاد من تأثير هذه الظاهرة السرعة والزخم الذي تتناول به وسائل الإعلام، مثل هذه النوعية من الجرائم التي باتت تهدد الإنسانية جمعاء، وعلى الرغم من المآسي التي عانتها البرية جراء ويلات الحروب التقليدية، باتت الجرائم الإرهابية لها وقع مختلف على النفس البشرية.

إن التطرف الديني والتطرف الفكري يمثلان أحد أكثر القضايا التي تؤرق المجتمعات الدولية، وتشكل تهديداً خطيراً لنمائها واستقرارها وتطورها؛ فقد ظل المصدر الأساسي لتفكك المجتمعات وتمزيق النسيج الاجتماعي، والمنبع الرئيس للعنف والإرهاب وتكريس آليات التخلف عبر التاريخ. ونتيجة لهذا الغلو الديني والتطرف الفكري، ظهر ما يسمى بظاهرة الإرهاب الفكري الذي تمارسه الحركات الإرهابية التي تتشح برداء ديني متشدد، وتقترف أبشع الجرائم باسمه.

فما هو التطرّف الديني؟ وما هو الإرهاب الفكري؟ وماهي السبل الوقاية من الإرهاب الفكري؟ وكيف نعالجه؟

يعد مفهوم التطرف Extremism من المفاهيم التي يصعب تحديدها، نظراً لما يثير إليه مفهوم من المعنى اللغوي للتطرف، وهو تجاوز لحد الاعتدال. وحد الاعتدال نسبي، ويختلف ذلك من مجتمع إلى آخر؛ وذلك وفقاً لنسق القيم السائدة في كل مجتمع؛ فما يعتبره مجتمع من المجتمعات سلوكاً متطرفاً من الممكن أن يكون مألوفا في مجتمع آخر.

فالاعتدال والتطرف مرهونان بالمتغيرات البيئية والحضارية والثقافية والدينية والسياسية التي يمرّ بها المجتمع. كما يتفاوت حد الاعتدال والتطرف من زمن لآخر، فما كان يعد تطرفا في الماضي قد لا يكون كذلك في الوقت الحاضر.

وقد فسر التطرف على أنه «اتخاذ الفرد موقفا متشدداً يتسم بالقطيعة في استجاباته للمواقف الاجتماعية التي تهمه، والموجودة في بيئته التي يعيش فيها هنا والآن، وقد يكون التطرف إيجابيا في القبول التام، أو سلبيا في اتجاه الرفض التام، ويقع حد الاعتدال في منتصف المسافة بينهما».

والتطرف هو الخروج عن القواعد الفكرية والقيم والمعايير والأساليب السلوكية الشائعة في المجتمع، وأنه قد يتحول من مجرد فكر إلى سلوك ظاهري أو عمل سياسي، يلجأ عادة إلى استخدام العنف violence كوسيلة لتحقيق المبادئ التي يؤمن بها كفكر متطرف[١].

ويرتبط مفهوم التطرف بالعديد من المصطلحات، منها الدوغماطيقية والتعصب. إن التطرف وفقاً للتعريفات العلمية يرتبط بالكلمة الإنجليزية Dogmatism؛ أي الجمود العقائدي والانغلاق العقلي.

ويتبنى التطرف اتجاهاً عقلياً وحالة نفسية تسمى بالتعصب Prejudice للجماعة التي ينتمي إليها؛ فالتطرف في جوهره حركة في اتجاه القاعدة الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية، ولكنها حركة يتجاوز مدها الحدود التي وصلت إليها القاعدة وارتضاها المجتمع[٢].

إذ جاء في لسان العرب لابن منظور قوله: «تطرف الشيء صار طرفا»، «وتطرفت الشمس أي دنت للغروب». إذ ما يمكن أن نستلهمه من هذا التحديد اللغوي للتطرف في سياق حديثنا عن التطرف الديني والفكري لدى الشباب السلفي هو بعده الهوياتي المتمثل في عمليتين: عملية الانسحاب والتخلي وعملية الالتزام والتحلي؛ أي أن فعل التطرف الديني لا يأخذ مفعوله إلا في حضور ثنائية الأخذ والرد، في خضم سيرورة صراع بين الماضي ووعي الحاضر.[٣]

أدى التطور النوعي الذي شهدته المنظمات الإرهابية في عدد من الدول العربية إلى رفع كفاءتها القتالية، وزاد من قدرتها على الاستقطاب والحشد، واستغلال تطور النزاعات التي قامت في المنطقة وتحويلها إلى صراعات مسلحة شديدة الدموية، ما جعلها تمثل ضغوطاً متزايدة شديدة الخطورة على الأمن القومي في الدول العربية.

التطرف يمكن أن يكون دينياً أو طائفياً أو قومياً أو لغوياً أو اجتماعياً أو ثقافياً أو سياسياً. والتطرف الديني يمكن أن يكون إسلامياً أو مسيحيا أو يهوديا أو هندوسيا أو غيره، كما يمكن للتطرف أن يكون علمانياً، حداثياً، مثلما يكون محافظاً وسلفياً، فلا فرق في ذلك سوى بالمبررات التي يتعكز عليها لإلغاء الآخر، باعتباره مخالفاً للدين أو خارجاً عليه أو منحرفاً عن العقيدة السياسية أو غير ذلك. أما الإرهاب، فإنه يتجاوز التطرف؛ أي إنه ينتقل من الفكر إلى العمل، وكل إرهاب هو عنف جسدي أو نفسي، مادي أو معنوي، ولكن ليس كل عنف إرهاباً، خصوصاً إذا ما كان ذلك دفاعاً عن النفس واضطراراً من أجل الحق ومقاومة العدوان.

> يتفاوت حد الاعتدال والتطرف من زمن لآخر، فما كان يعدّ تطرفا في الماضي قد لا يكون كذلك في الوقت الحاضر

١- الخواجة، محمد ياسر، التطرف الديني ومظاهره الفكرية والسلوكية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، ص٣

٢- المرجع نفسه، ص٤

٣- د. أوطاهر، محمد، فهم التطرف الديني: الأسس الأيديولوجية والحالات الاجتماعية، ملخص صالون الجدل الثقافي الرباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود الرباط، ص١٠



وكل إرهـاب تطـرف، ولا يصبـح الشـخص إرهابيـاً إلا إذا كان متطرفـاً، ولكـن ليـس كل متطـرف إرهابيـاً، فالفعـل تتـم معالجتـه قانونيـاً وقضائيـاً وأمنيـاً؛ لأن ثمـة عمـلا إجراميـا تعاقـب عليـه القوانـين.

أمـا التطـرف، ولاسـيما في الفكـر، فلـه معالجـات أخـرى مختلفـة، وهنـا يمكـن قـرع الحجـة بالحجـة، ومحاججـة الفكـرة بالفكـرة، والـرأي بالـرأي، وإن كانـت قضايـا التطـرف عويصـة ومتشـبعة وعميقـة، وخصوصـاً في المجتمعـات المختلفـة، كمـا أن بعـض التطـرف الفكـري قـد يقـود إلى العنـف أو يحـرض عـلى الإرهـاب، بمـا فيـه عـن طريـق الإعـلام بمختلـف أوجهـه.

وإذا كان التطـرف يمثـل نموذجـاً قائمـا عـلى مـر العصـور والأزمـان، فـإن نقيضـه الاعتـدال والوسـطية والمشـترك الإنسـاني بـين الشـعوب والأمـم والأديـان واللغـات والسـلالات المتنوعـة؛ لأن الاجتمـاع الإنسـاني مـن طبيعـة البـشر؛ حيـث التنـوع والتعدديـة والاختـلاف صفـة لصيقـة بالإنسـان. وهـذه كلهـا ينبغـي الإقـرار بهـا والتعامـل معهـا كحقـوق إنسـانية توصلـت إليهـا البشريـة بعـد عنـاء، وهـي النقيـض لفكـر التطـرف والتكفـير.

التطـرف يعـني فيمـا يعنيـه ادعـاء الأفضليـات؛ فالأنـا أفضـل مـن الأنـت، والنحـن أفضـل مـن الأنتـم، وديـني أفضـل مـن الأديـان الأخـرى، وقومـي فـوق الأمـم والقوميـات الأخـرى لدرجـة الزعـم بامتـلاك الحقيقـة. وتلـك هـي البـذرة الأولى للتعصـب والتطـرف والعنـف والإرهـاب.

لا يمكـن القضـاء عـلى فكـر التطـرف والتكفـير وجذورهمـا، مـا لـم يتـم القضـاء عـلى التعصـب وزعـم امتـلاك الحقيقـة. وقـد أثبتـت التجـارب أن الفكـر المتطـرف والتكفـيري لا يتـم القضـاء عليـه بالعمـل العسـكري أو المسلح أو مواجهـة العنـف بالعنـف والقـوة بالقـوة، وعنفـان لا يولـدان سـلاماً، ورذيلتـان لا تنجبـان فضيلـة، وظلمـان لا ينتجـان عدالـة. الأمـر الـذي يحتـاج إلى معالجـة الظاهـرة اقتصاديـا واجتماعيـا وثقافيـا وتربويـا ودينيـا وقانونيا ونفسـيا، خصوصـا بالقضـاء عـلى الفقـر، وتحقيـق العدالـة والمسـاواة، وبالتـالي خلـق بيئـة مناسـبة لقيـم السـلام والتسـامح واللاعنـف، وحـل الخلافـات بالحـوار والتفاهـم والمشـترك الإنسـاني. وهـذا يتطلـب تجفيـف منابـع ومصـادر القـوى المتطرفـة والإرهابيـة، لاسـيما بالقضـاء عـلى أسـباب التعصـب.[٤]

ثمـة فـوارق أحيانـاً بـين العنـف والإرهـاب، وإن كان كلاهمـا يشـكلان جريمـة بالتجـاوز عـلى القانـون، لكـن معظـم الجرائـم الـتي تقـوم بهـا القـوى الإرهابيـة تتـم ضـد مجهـول وفي قطاعـات شـعبية، لا علاقـة لهـا بالـصراع وبمـا يحـدث، في حـين أن العنـف يسـتهدف الضحايـا بالتحديـد؛ أي أنـه يختارهـم اختيـاراً، لغـرض محـدد.

لا يمكـن القضاء على فكـر التطرف والتكفير وجـذورهما، ما لم يتم القضاء على التعصب وزعـم امتلاك الحقيقة

٤ موهنداس ك، غاندي، كتابات وأقوال للمهاتما غاندي، ترجمة أكرم أنطاكي، تدقيق هفال يوسف، دمشق، دار المعابر، ٢٠٠٩

الإرهـاب والعنـف جريمتـان تسـتهدفان ضحايـا، لكـن الجريمـة الأولى هدفهـا يختلـف عـن الجريمـة الثانيـة، فجريمـة العنـف تنـدرج تحـت لـواء القانـون الجنـائي ضـد أفـراد أو جهـات محـددة، في حـين أن جرائـم الإرهـاب تحتسـب عـلى الجرائـم ضـد الإنسـانية، وهـي جرائـم جماعيـة وجرائـم إبـادة وتحكمهـا قواعـد القانـون الـدولي الإنسـاني، إضافـة إلى القوانـين الوطنيـة.

وهنا لا ينبغـي أن نهمـل الجانـب الفكـري للإرهـاب والتطـرف، فهمـا يمثلان فكـراً وهـذا الفكـر لا يمكـن قتلـه أو مقاومتـه أو قضـاء عليـه بالقـوة أو بالعنـف، بـل لابـد مـن العمـل عـلى تفكيكـه ومتابعـة حلقاتـه وكشـف أهدافـه ووسـائله، ومحاربتـه بفكـر مضـاد وبوسـائل مختلفـة. فالوسـيلة جـزء مـن الغايـة، بـل إنهمـا مترابطـان، ولا غايـة شريفـة بـدون وسـيلة شريفـة، وعـلى حـد تعبـير المهاتمـا غانـدي: «الوسـيلة والغايـة مثـل البـذرة مـن الشـجرة»[٥].

الفكـر النقيـض الـذي تحتاجـه مجتمعاتنـا، لـكي تتجـاوز التطـرف والإرهـاب ينبغـي أولا وقبـل كل شيء الاعـتراف بالآخـر عـلى قـدم المسـاواة، والاقـرار بالتعدديـة والتنـوع، كمـا ينبغـي نبـذ التمييـز بجميـع أشـكاله، سـواء كان دينيـاً أو إثنيـاً أو بسـبب اللـون أو الجنـس أو اللغـة او الأصـل الاجتماعـي أو لأي سـبب كان؛ أي الاعـتراف بمبـادئ المسـاواة.

إن الفكـر المتطـرف والتكفـيري يعتـبر كل خـلاف معـه محرّمـاً، وعليـه إقصـاؤه وإلغـاؤه واسـتئصاله، في حـين إن نقيـض ذلـك هـو مبـادئ التسـامح والاعـتراف بالآخـر والحـوار واللاعنـف. فالإرهـابي لا يؤمـن بالحـوار ويحـاول أن يبسـط سـلطانه عـلى محيطـه بالقـوة، وبـدلا مـن الإقنـاع يلتجـئ إلى التفجـير والمفخخـات.. خـارج أي اعتبـار إنسـاني، طالمـا تتلبسـه فكـرة امتـلاك الحـق، إذ لا يمكـن للتطـرف أن يصبـح عنفـاً إرهابيـاً وفعـلاً ارتكابيـاً ضـد الإنسـان، إلا إذا تمكـن مـن التوغـل إلى العقـول، وهـذا غالبـاً مـا يتـم بعمليـة غسـل أدمغـة، حيـث تعمـي البصـيرة وتعطـل العقـول وتشـل المشـاعر الإنسـانية، ليقـوم المرتكـب بفعلتـه سـواء بتفجـير نفسـه أو تفجـير عـدوه أو خصمـه، أو السـعي لإذلالـه والقضـاء عليـه.

الإرهـاب ككل، داء تقتـضي مواجهتـه واعتمـاد الوقايـة الناجعـة عـبر اسـتهداف أسـبابه، وتحصـين المناعـة الفكريـة والماديـة والنفسـية للمواطنـين، حـتى لا تصطادهـم شـبكات التطـرف وتسـتغل ظروفهـم النفسـية والاجتماعيـة. ولعـل تواصـل تفكيـك الخلايـا الإرهابيـة وشـبكات الاسـتقطاب دليـل عـلى وجـود مشـاتل وبيئـة تفـرخ وتنتـج وتحتضـن المتطرفـين[٦].

لا يمكن محاربة البعوض إلا بتجفيف المستنقعات.

الإرهاب ككل، داء تقتضي مواجهته واعتماد الوقاية الناجعة عبر استهداف أسبابه، وتحصين المناعة الفكرية والمادية والنفسية للمواطنين

٥ لقد سمّم الإرهاب القائم على التطرف والتكفير علاقات المجتمعات مع بعضها، وأضرّ بعلاقات فئاتها وأديانها ومذاهبها وأفرادها، مثلما أشبع المجتمعات الدولية بهواء ثقيل ورائحة كريهة. ولكن الخطر الأكبر هو السيطرة على عقول الشباب أفراداً وجماعات والعبث بها، خصوصاً بزراعة الكراهية وتبرير العدوان وإيجاد الذرائع لإقصاء الأخر واستسهال عمليات القتل والتفجير

٦ الكحل، سعيد، جذور الإرهاب عقائده، مقال نشرته هسبريس يوم ١٨ مايو/أيار ٢٠١٨ ٠٤: ٤٨



# القارب والمجذاف:
# موجهات المشروع النقد
# الناقد المغربي «أحمد بو



بقلم :
محمد مرشد محمد الكُميم
أكاديمي يمني من جامعة صنعاء

# ي في كتابات و حسن»*



## الموجهات الثقافية

لـم تكـنِ الجامعـةُ المغربيّـةُ الحديثـة قـد عرفـت، حـين نشـأتها، أكـثرَ ممـن يمكـنُ عدهـم عـلى أصابع اليـد الواحـدة مـن الأكاديميـين المغاربـة؛ الأمـر الـذي جعـل القائمـين عليهـا يسـتدعون أسـاتذة مغاربـة مـن خـارج مؤسسـتها، وآخريـن مـن بلـدان عربيـة وأخـرى غربيـة، يـوكل إليهـم أمـر تكويـن جيـل جديـد مـن أبنـاء المغـرب وتأطيرهـم التأطـير الـلازم؛ حـتى يسـتطيعوا القيـام بأمـر الجامعـة، وحـتى تصبـح الكفـاءات وطنيـة خالصـة.

وقـد نجـح الأمـر نجاحـاً باهـراً، إلا أن الإشـكال تبـدى في توجيـه طلبـة الدراسـات العليـا نحـو موضوعـات لا تصـب في خدمـة الثقافـة المغربيـة؛ نتيجـة لترسـخ الثقافـات العتيقـة في عقليـة الأسـاتذة المغاربـة التقليديـين، وللحمولـة المعرفيـة المشرقيـة والغربيـة الـتي لا يتقـن الأسـاتذة العـرب والغـرب الذيـن يدرسـون في الجامعـات المغربيـة غيرهـا. ولعـل هـذا هـو مـا جعـل الرعيـل الأول مـن المغاربـة الذيـن أصبحـوا أسـاتذة في الجامعـات المغربيـة، يستشـعرون الإقصـاء البريء أو المتعمـد للثقافـة المغربيـة؛ فبـدأوا يشـمرون عـن سـاعد الجـد لتقليـب مـا لهـم مـن إرث ثقـافي، وأخـذوا يوجهـون طلبتهـم نحـو ذلـك، غـير أن عـدم اقتناعهـم بمـا وجـدوه، حملهـم عـلى التوجـه صـوب الـتراث الأندلـسي وعـدّه جـزءاً مـن ميراثهـم الثقـافي، وحملهـم، أيضـاً، عـلى التوجـه نحـو إنتاجهـم الثقـافي المعـاصر الـذي كونـت مدونتـَه المخرجـات الأولى للجامعـة المغربيـة.

* الناقد المغربي أحمد بو حسن، يعد من أبرز الأقلام النقدية في الوطن العربي التي كان لها الريادة في تطبيق إجراءات البنيوية التكوينية والمنهج التاريخي الجديد ونظرية التلقي والتأويل ونظرية الأنساق والدراسات الثقافية وغيرها، على نصوص وأعمال إبداعية ونقدية وثقافية. وبالرغم من انشغاله بتدريس ما يتعلق بالنظرية الأدبية وتاريخ الأدب القديم والجديد ونقد النقد والنقد المعاصر وأدب السجون وتاريخ الراهن والرواية والقصة والأدب الشعبي في جامعة محمد الخامس بالرباط وجامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما من الجامعات العربية والأوروبية، وكذا تأطيره وإشرافه ومناقشته لكثير من أطروحات الباحثين الذين اهتموا بهذه المجالات، فإننا وجدناه حريصاً على ترجمة مؤلفات وأبحاث عميقة نقلها عن الفرنسية والإنجليزية والألمانية في مجالات أدبية ونقدية وتاريخية وثقافية مختلفة، كما ألفيناه مشرفاً ومنسقاً ومترجماً لمعظم الندوات الدولية التي أقيمت، بالاشتراك مع مؤسسة كونراد الألمانية، في عدد من المدن المغربية، واضطلع بإخراجها إلى النور. ولقاء هذا الجهد العلمي الكبير الذي يتسم بالدقة والعمق والجودة والجدة، وجدنا العديد من المؤسسات الأكاديمية والثقافية داخل المغرب وخارجه تحتفي به وتكرمه على إنجازاته؛ فقد استحق جائزة المغرب للكتاب عام ٢٠٠٧ عن ترجمته لكتاب: المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، واختير، من قبل القائمين على جائزة الشيخ زايد، محكماً رئيساً في مجال المؤلفات الفكرية والنقدية عام ٢٠١٢، كما اختير أكثر من مرة محكماً في جائزة المغرب للكتاب.



انطلاقاً من هذه المقدمة، نستطيع القول: إن مشروع الأستاذ أحمد بو حسن النقدي يندرج ضمن مشروع ثقافي مغاربي عام يمكن تلخيصه في نقطتين رئيستين هما:

- هاجس الانعتاق من هيمنة مركزية الثقافة المشرقية وسلطتها التي غيبت الثقافة المغربية وهضمت حقها في الوجود.
- السعي إلى تأكيد حضور الكفاءات المغربية، وإثبات علو كعبهم في مختلف المجالات الثقافية والمعرفية.

وهاتان النقطتان هما اللتان تحكمتا في بنية التفكير النقدي لجيل الناقد أحمد بو حسن وانسربت إلى وعيهم، حتى غدت نسقاً مختبئاً يوجه البدايات الأولى لمشاريعهم النقدية، وتمتد إلى ما أنتجوه لاحقاً. وقد وجدناهم يتخذون مجموعة من الاستراتيجيات الممنهجة التي تضمن لهم تحقيق ما قررناه في النقطتين الآنفتين؛ فبالإضافة إلى استراتيجية المعاصرة والانكفاء على نبش التراث المغربي والأندلسي وتقليبه، نجدهم يفعِّلون استراتيجيات أخرى يمكن أن نوجزها في:

- الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي الذي يعد تراثاً مشتركاً، ليس للمشارقة الحق في ادعاء ملكيته لهم وحدهم.
- تفعيل مبدأ الموازنة بين أدباء ومثقفين مغاربة وبين نظرائهم من المشارقة.
- تخصيص أعلام الثقافة في المشرق بالنقد، وإخضاع إنتاجهم للفحص العلمي الموضوعي؛ حتى يستطيعوا كسر هالة التقديس المحيطة بهم، ويتمكنوا من استنبات الثقة وتقويتها في نفوس المغاربة. وهذا لم يتحقق لهم إلا عن طريق الاستراتيجية الرابعة.
- تحول النموذج الإرشادي، حسب مصطلحات «توماس كون»، إلى الغرب والاتصال بثقافاتهم ومناهجهم اتصالاً مباشراً؛ الأمر الذي مكنهم من الاستغناء عن الوسيط المشرقي، وأَهَّلَهم لفضح قدراته في استيعاب الثقافات والمناهج الغربية، وفتح لهم آفاقاً جديدة للدرس النقدي والفكري.

## الاستجابة للموجهات الثقافية

إذا كنا قد أكدنا على تبني هذه الاستراتيجيات من قِبَلِ مجايلي الأستاذ أحمد بو حسن، فإن الناقد بو حسن كان جزءاً منهم، ولا بد له من أن يتبنى من هذه الاستراتيجيات ما يخدم مشروعه النقدي؛ فلو أخذنا كتابه النقدي الأول[١]، لوجدنا أنه يتبنى فيه استراتيجية تقصد الرؤوس الكبيرة من أعلام النقد والثقافة في المشرق العربي، وليس لأحد أن ينكر ما لطه حسين من مكانة نقدية عظيمة وهالة من القداسة ما زلنا نرى تأججها إلى اليوم؛ ولذا كان اقتراب الأستاذ أحمد بو حسن من مشروع طه حسين النقدي وكشف بنى تفكيره وفضح مرجعياته وقصور منهجه وسطحية طرحه، مغامرة جسورة من قبله، لا يمكن أن نفهمها إلا في إطار البحث عن موضع قدم للذات المغربية ومقاومة هيمنة ثقافة المركز.

ولعل ما يؤكد هذه الرؤية، تبنّيه لاستراتيجية الموازنة بين طه حسين المشرقي ومحمد المختار السوسي المغربي؛ ففي تحليله لنص المختار السوسي عن طه حسين[٢]، لا نراه يكتفي بإثبات قدرات السوسي المعرفية التي استطاع أن يناظر بها طه حسين، ولكنه يقول في نهاية التحليل: «قراءة محمد المختار السوسي كانت تهدف إلى إثبات الذات المغربية في الفضاء المعرفي العربي، وطه حسين أحد أقطاب هذا الفضاء الذي اختاره محمد المختار السوسي، ليمرر عبره ذلك الإحساس بالوجود المهضوم الحق وغير المعترف به. فتَحَكم هذا البعد الذاتي الذي يشير بالدونية من جهة وبعدم الاعتراف له من جهة أخرى بإمكانياته...إلخ».[٣]

ومحاولة إثبات الذات التي أراد الناقد أحمد بو حسن أن يفسر بها استعراض السوسي لمعارفه أمام طه حسين الذي لقيه في أحلامه، يمكننا أن نسقطها عليه هو، ولكن ليس من خلال فعل الاستعراض، بل من خلال إثبات القدرة الفذة على كفاءته في الترجمة أمام ناقد مشرقي آخر هو صبري حافظ، الذي يبدو أنه استهان بقدرة المغاربة على الترجمة؛ فسعى الناقد بو حسن إلى دفع هذا الانتقاص وإخراس صوت الباطل بترجمة دقيقة جدّاً لكتاب الأول المعنون بـ

---

١- الكتاب الذي نقصده هنا هو: الخطاب النقدي عند طه حسين، صدر عن دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ونشره المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.١، ١٩٨٥.

٢- جاء هذا البحث تحت عنوان: النص بين التلقي والتأويل: نص "الدكتور طه حسين في إلغ" لمحمد مختار السوسي، وقد نشر في كتابه المعنون بـ: في المناهج النقدية المعاصرة، الصادر عن دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط.١، ٢٠٠٤، ص.٤٩-٧٣

٣- نفسه، ص.٧٣



«تكوين الخطاب السردي العربي»؛ فلم يملك حافظ إلا الاعتراف بكفاءة الترجمة وكفاءة المترجم في اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها.[٤]

أما عن الاستراتيجيات الأخرى، فقد وجدنا الناقد أحمد بو حسن يوظف استراتيجية المعاصرة، حينما تتبع ترجمات مجايليه المغاربة وتشغيلهم للمنهج الشكلي الروسي ولنظرية التلقي، وحينما رصد علاقة الأدب الشعبي بالرواية المغربية[٥]، وقد وجدناه يوظف استراتيجية التراث المشترك في تناوله لكتاب الأغاني[٦]، ويوظف استراتيجية تغيير النموذج الإرشادي في ترجماته لبعض ما اتصل بنظرية الأدب ونظرية التأويل والتلقي والأنساق وما اتصل بالقصة والرواية والتاريخ[٧]، هذا بالإضافة إلى ما قدمه بين يدي كتابيه «الخطاب النقدي عند طه حسين» و«العرب وتاريخ الأدب» مما له صلة بالمنهج المتبع في التحليل؛ فقد وجدناه يُقرِّب منهج لوسيان غولدمان البنيوي التكويني في الأول، ويقدم المنهج التاريخي القديم والجديد ونظرية الأنساق ومفهوم النموذج والتحقيب في الثاني.

وإذا كنا نسلم أن مرجعياته النظرية والمنهاجية، قد نقلها لنا من لغاتها الأصلية، فرنسية كانت أم ألمانية أم إنجليزية؛ فما هي الموجهات المرجعية التي أوحت له بموضوعات كتبه المؤلفة يا ترى؟

### الموجهات المرجعية لموضوعات مؤلفاته

ربما يكون من الصعب جداً البحث عن الموجهات التي تقف وراء انبثاق موضوع أو بحث ما، وهذه الصعوبة تأتي من تماشج القراءات التأسيسية والمتراكمة على ذاكرة القارئ؛ فلا يدري كيف يتفتق في ذهنه هذا الموضوع أو ذاك، ولكننا هنا سنجتهد في تعيين

**يتلخص المشروع النقدي لأحمد بو حسن في هاجس الانعتاق من هيمنة مركزية الثقافة المشرقية، والسعي إلى تأكيد حضور الكفاءات المغربية**

المرجعيات المفتقة لأهم ثلاثة موضوعات سبر أغوارها الناقد أحمد بو حسن. ولأنها مختبئة في ثنايا كتاباته، فقد توصلنا إليها بعد إحداث ترابطات بين ما تقدم من مؤلفاته وما تأخر؛ فالقارئ لما كتبه عن نص محمد المختار السوسي «طه حسين في إلغ»، سيكتشف أنه انتهى إلى أن المختار السوسي عجز بثقافته العربية التقليدية أن يقارع حجج طه حسين المتسلحة بالمنهج الديكارتي الحديث، وفق كلام السوسي.[٨]

وبما أن المختار السوسي قد نشر نصه عن طه حسين في ١٩٣٨، فإننا سنفترض أن الناقد بو حسن قد اطلع عليه، واستشعر نقص الأداة النقدية فيه، فقرر أن ينهض بما عجز عنه ابن بلده «السوسي»، وأخذ على عاتقه أن يتناول طه حسين من الزاوية التي كانت تنقصه، وكأنه أراد، بعمله ذاك، أن يجرد نفسه من جسده ويحل محل المختار السوسي مكانها بعد أن سلحه بالمنهج الذي كان يتهيبه أو الذي لم يكن يتقن الاشتغال به في نص الإلغيات. ومن هنا يمكن القول: إن النص الحلمي للمختار السوسي الذي يندرج ضمن جنس «المنامات»، كان الدافع الحقيقي وراء اتخاذ الأستاذ أحمد بو حسن «للخطاب النقدي عند طه حسين» موضوعاً لبحثه الذي نال به شهادة دبلوم الدراسات العليا، وأخرجه بعد ذلك في كتاب.

وما تقدم لا يعني، أبداً، أنه لم يستلهم من قراءته للرجلين أفكاراً شكلت النواة الأولى لموضوعات أخرى طرقها بعد ذلك؛ ففي نص «طه حسين في

٤- يراجع تقديم صبري حافظ لكتابه المعنون بـ: تكوين الخطاب السردي العربي: دراسة في سوسيولوجية الأدب العربي الحديث، ترجمة أحمد بو حسن، مطبعة دار القرويين، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢.

٥- سيجد القارئ معظم هذه الأبحاث والدراسات مجموعة في كتاب: في المناهج النقدية المعاصرة.

٦- جاء هذا الكتاب معنوناً بـ: العرب وتاريخ الأدب: نموذج "كتاب الأغاني"، وقد صدر عن دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣.

٧- لقد جمع الناقد أحمد بو حسن بعضاً من ترجماته في كتاب وسمه بـ: نظرية الأدب: القراءة- الفهم- التأويل "نصوص مترجمة"، صادر عن دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط١، ٢٠٠٤، كما ترجم كتاب روس إ. دان المعنون بـ: المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي: المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية (١٨٨١-١٩١٢)، منشورات زاوية للفن والثقافة، الرباط، ط١، ٢٠٠٦. ويضاف إلى ذلك ترجمته لكتاب صبري حافظ، وترجماته التي نشرها في دوريات مختلفة ولم تجمع بعد في كتاب، وترجمات أخرى لم تنشر بعد.

٨- يراجع البحث المعنون بـ: النص بين التلقي والتأويل، ص.ص.٥٢، ٥٩-٦٥، ٦٧-٧٣، ونص السوسي المثبت في نهاية كتاب: في المناهج النقدية المعاصرة، ص.١٨٦، ١٩٨، ٢٠٠



**كان اقتراب بو حسن من مشروع طه حسين النقدي وكشف بنى تفكيره وفضح مرجعياته وقصور منهجه وسطحية طرحه، مغامرة جسورة من قبله**

إلغ» نجد السوسي يشير في أكثر من موضع إلى كتاب الأغاني وإلى أهميته[٩]. وهذا يجعلنا نقول: إن احتمال تفتيق هذه الإشارة لموضوع رسالته للدكتوراه التي خص بها كتاب الأغاني واردٌ، ولكن هذه الاحتمالية تزداد مصداقية، حينما نجد إشارة ذكية جداً إلى كتاب الأغاني من قبل طه حسين الذي وجدناه يقول فيها: «وهو [أي كتاب الأغاني] الذي استوفى البحث عن الشعر والشعراء، والخطابة والخطباء، والكتابة والكتاب، والغناء والمغنين، والسياسة والسياسيين... إلخ».[١٠]

إن هذه الإشارة التي استشهد بها الناقد بو حسن في كتابه عن طه حسين[١١]، لا تدع مجالًا للشك بأنها كانت النواة الأولى التي فتقت لديه موضوع أطروحته للدكتوراه التي نشرت في كتاب عنونه بـ«العرب وتاريخ الأدب: نموذج كتاب الأغاني»، بل إنها فتقت في ذهنه المنهاج النسقي الذي قرأ به الموضوع، ولن يدرك مدى مصداقية ما نقوله هنا إلا من وقف على كتابه: «العرب وتاريخ الأدب».

ولم يكن المختار السوسي وطه حسين قد ألهما الأستاذ أحمد بو حسن ما تقدم وحسب، ولكننا نجدهما قد فتقا لديه موضوعات أخرى، لعل أهمها على الإطلاق موضوع بحثه المعنون بـ«تشييد الآخر في الثقافة العربية الإسلامية»[١٢] الذي يعد من أهم ما كُتب عن تغير مفهوم الهوية العربية، وعن تحول دليل «العرب» من الدلالة على العرق إلى الدلالة على غير العرق الضاربة جذوره في وسط وجنوب الجزيرة العربية؛ فبذرة هذه الفكرة نجدها في نص السوسي الآنف ذكره حينما خاطب طه حسين بقوله: «قلت له إنني ممن ولد في هذه القرية البعيدة عن العالم المتحضر، ثم حدتني السعادة فزاولت من العربية وعلومها وآدابها ما حولني من مسلاخ بربري إلى مسلاخ عربي فكراً وذوقاً وغيرة وشعوراً وعواطف (...) فقال الدكتور: الحمد لله الذي أظفرني اليوم بأحد إخواني أصحاب الثقافة العصرية، ممن انخرطوا في التفكير الحي، والشعور الوثاب؛ فأهني (إلغ) بابنها القائمِ فيها بدور العربي المبين».[١٣]

إن هذا النص الذي يؤكد أن دليل «العربي» أصبح يطلق على من يتحدث العربية، ولم يعد يطلق على من له صلة نسب بالعرق العربي، أكده الناقد بو حسن في بحثه المشار إليه سلفاً بعد تفحص تاريخي وجغرافي وثقافي وأنثروبولوجي مَكَّنَه من تتبع تطورات دلالة هذا الدليل حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من حمولة.

وإذا كان المختار السوسي، فيما اقتبسناه آنفاً، قد قَوَّل طه حسين ما لم يقل به عن هذه القضية، فإننا نجد أن للأخير رأياً صريحاً عن تحولات مفهوم «العربي» في كتابه عن المتنبي، إلا أنه لم يحققه واكتفى بالتساؤل عن ذلك في قوله: «وما هذا العنصر العربي الصريح؟ وكيف السبيل إلى تحقيقه واستخلاصه من العناصر المختلفة التي لا تحصى، والتي اتصلت به وأثرت فيه على تتابع الأحداث ومر العصور؟».[١٤]

لا شك أن هذه التساؤلات التي طرحها طه حسين في كتابه عن المتنبي وأوردها الناقد أحمد بو حسن في كتابه عنه بالنص[١٥]، هي التي وجهته إلى تحقيق مفهوم «العربي» والبحث عن كل العناصر المشكلة لهويته في بحثه المشيد للآخر في الثقافة العربية الإسلامية.

## الموجهات المنهاجية لمؤلفاته

يستغرب قارئ مؤلفات الناقد أحمد بو حسن من اتخاذه المتون الضخمة والكبيرة موضوعات لدراساته وأبحاثه؛ فقد كان متن طه حسين النقدي على تعدد كتبه وتنوع موضوعاته، موضوعاً لكتابه: «الخطاب

٩- يراجع نص السوسي في الكتاب المذكور آنفاً، ص.١٨٣، ١٩٦، ١٩٨

١٠- مجلة الهداية، يناير، ١٩١١م، ص.٤٥١

١١- الخطاب النقدي عند طه حسين، ص.٣٤

١٢- سيجد القارئ هذا البحث في كتاب: في المناهج النقدية المعاصرة، ص.١٥٥-١٧٩

١٣- سيجد القارئ كلام السوسي المثبت أعلاه في الكتاب السابق: ص.١٨٤

١٤- طه حسين، مع المتنبي، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧، ص.٢١

١٥- الخطاب النقدي عند طه حسين، ص.١٢٩



النقـدي عنـد طـه حسـين»، وكان مـتن الأغـاني الـذي يتجـاوز العشريـن مجلـداً موضوعـاً لكتابـه: «العـرب وتاريـخ الأدب»، وكان كتـاب صـبري حافـظ: «تكويـن الخطـاب السردي العـربي» عـلى ضخامته وتغطيتـه لفـترة زمنيـة ممتـدة، مغريـاً بترجمتـه له؛ لأنـه يتوافق مـع طريقة اشـتغاله عـلى المتـون الكبـيرة والضخمـة. ولعـل اهتمامـه بهـذه المتـون هـو الـذي قـاده اليـوم إلى الانشـغال بالدراسـات الثقافيـة[١٦] الـتي تتطلـب معالجتهـا الوقـوف عـلى متـون ضخمـة ومتناوسـة بـين مـا هـو كتـابي ومـا هـو شـفاهي. وهـذا يقودنـا إلى التسـاؤل عـن الموجهـات الـتي دفعـت بـه إلى الاهتمـام بمثـل هـذه المتـون.

إذا كان التأريـخ لـلأدب يتطلـب متونـاً ضخمـة، فـإن الأسـتاذ أحمـد بـو حسـن اشـتغل في دراسـته لكتـاب الأغـاني وفـق توجيهـات وإكراهـات منهـج التاريـخ الأدبي قديمـه وجديـده. وإذا كان المنهـج البنيـوي التكوينـي يتطلـب الوقـوف عـلى متـون كبـيرة أيضـاً، فقـد وجدنـاه يشـير إلى ذلـك في مـا قدمـه بـين يـدي كتابـه عـن طـه حسـين؛ حيـث قـال: «وكان عـليَّ أن أتحمـل عـبء القـراءات الكثـيرة، لعلـني أهتـدي إلى تركيـب الكتابـة النقديـة عنـد طـه حسـين والكشـف عـن الرؤيـة العامـة الـتي كانـت تحكمهـا (...) إن تجشـمي لمثـل هـذا العمل الطمـوح، يبقـى محاولـة تسـعى إلى تحقيـق القـراءة الكليـة المركبـة لكتابـات طـه حسـين النقديـة وكتابـات أمثالـه»[١٧]، كمـا وجدنـاه يشـير إلى ذلـك في تقديـم ترجمتـه لكتـاب صـبري حافـظ؛ حيـث قـال: «لا شـك أن هـذه الدراسـة قـد كشـفت عـن ثـراء وخصـب التجربـة السرديـة العربيـة، بحكـم المتـن الكبـير الـذي اعتمـدت عليـه مـن جهـة، كما كشـفت مـن جهـة أخـرى عـن غـنى التجربـة المنهجيـة الـتي عولـج بهـا هـذا المتـن»[١٨]. مـن هنـا نـدرك أن منهجياتـه المتبعـة في دراسـاته النقديـة كان لهـا دور كبـير في توجيهـه نحـو تبـني المتـون الضخمـة تبنيـاً اضطراريـاً لا خيـار لـه فيـه واتخاذهـا موضوعـاً لدراسـاته أو نحـو تبـني ترجمـة الكتـب الـتي تعتمـد في دراسـتها عـلى متـون ضخمـة أو أزمنـة ممتـدة أو أمكنـة متنوعـة أو اتجاهـات ومسـارات متعـددة.[١٩]

١٦- لقد قدم أحمد بو حسن مجموعة أبحاث تهتم بالثقافة في الفضاء المغاربي، وشارك بها في ندوات ومؤتمرات داخل المغرب وخارجه.

١٧- الخطاب النقدي عند طه حسني، ص.٦

١٨- تقديمه لترجمة كتاب: تكوين الخطاب السردي، ص.٥

١٩- هذا الأمر يحملنا على إدراج آخر ترجماته التي لم تحصل عليها بعد في دائرة هذا الحكم؛ فعنوان ترجمته لكتاب محسن جاسم الموسوي المعنون بـ: مسارات القصيدة العربية المعاصرة، الصادر، في طبعته الأولى، عن دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٨م، يشف عن دراسة تتسم بالشمولية والتنوع والتعدد والامتداد في الزمان والمكان والمسارات.

**يستغرب قارئ مؤلفات الناقد أحمد بو حسن من اتخاذه المتون الضخمة والكبيرة موضوعات لدراساته وأبحاثه**

## امتدادات مشروعه النقدي

إذا كنـا قـد قدمنـا، فيمـا سـبق، صـورة عامـة ومجملـة عـن موجهـات المـشروع النقـدي في كتابـات أسـتاذنا الناقـد أحمـد بـو حسـن، فسنسـعى في هـذه الجزئيـة إلى البحـث عـن تحـول مشروعـه النقـدي إلى موجـه للباحثـين والدارسـين الذيـن اسـتلهموا منـه موضوعاتهـم أو أدواتهـم المنهاجيـة الـتي اتبعوهـا في التحليـل. وإذا كان عـدد هـؤلاء كبـيراً، فإننـا هنـا سـنقتصر عـلى بعـض مـن أطَّـر أطاريحهـم أو ناقشـها.

لـن نكـون بعيديـن عـن الموضوعيـة إذا مـا قلنـا: إن تعـرض الناقـدة حوريـة الخمليـشي لترجمـات بلاشـير للنصـوص العربيـة إلى الفرنسـية كانـت كتابـات الأسـتاذ بـو حسـن عـن تاريـخ الأدب أهـم مـا يقـف وراء اختيارهـا لمشروعهـا ذاك، ليـس لأن بلاشـير يعـد مـن أقطـاب المنهـج التاريخـي في دراسـة الأدب، ولكـن لأنهـا انتهـت في دراسـتها إلى أن دراسـات أحمـد بـو حسـن تعـد مـن امتـدادات المدرسـة البلاشـيرية؛ فهـي حـين تـدرس بلاشـير لا بـد أن تكـون قـد عـثرت عليـه في امتداداتـه.

ولـم تكـن الخمليـشي هـي الوحيـدة الـتي اسـتلهمت مـن كتابـات أسـتاذنا موضـوع أطروحتهـا للدكتـوراه[٢٠]، بـل إننـا نجـد الناقـد حسـن الطالـب يسـتلهم خطـاه في دراسـة تاريـخ الأدب؛ فسـعى في أطروحتـه للدكتـوراه إلى ترجمـة كتـاب كليمـان موازان: «مـا التاريـخ الأدبي؟»[٢١]، ولا أسـتبعد أن يكـون الأسـتاذ بـو حسـن قـد أوعـز إليـه بترجمـة هـذا

٢٠- لقد نشرت جزءاً من أطروحتها في كتاب عنونته بـ: ترجمة النص العربي القديم وتأويله عند ريجيس بلاشير، والكتاب من منشورات دار الأمان (الرباط) والاختلاف (الجزائر) والدار العربية للعلوم (بيروت)، ط.١، ٢٠١٠.

٢١- لقد قامت بنشر ترجمته هذه "دار الكتاب الجديد المتحدة"، بيروت، ط.١، ٢٠١٠.

**كان الناقد بو حسن موجها للعديد من الباحثين والدارسين، الذين استلهموا منه موضوعاتهم أو أدواتهم المنهاجية التي اتبعوها في التحليل**

الكتاب وحفزه على المضي في دراسة هذا الموضوع، ولكن حسن الطالب حين استمر في الكتابة عن تاريخ الأدب، خرج لنا بكتاب عنونه بـ: «مفهوم التاريخ الأدبي: مجالات التوسع وآفاق التجديد»[٢٢]، وحينما يدلف القارئ إلى كتابه هذا أو يقارن فهرسه بفهرسي كتابي موازان وبو حسن، فإنه سيجد أن الطالب تعالق معهما تعالقاً كبيراً في مواطن كثيرة منه، وأما إن توخينا الموضوعية في المقاربة، فسنقول: إنه أعاد، في كتابه هذا، تقديم كثير مما جاء في كتابات أستاذيه إعادة منتجة لا مستهلكة.

ولكن هذا النموذج من النقاد يُقابل بنموذج آخر مختلف؛ فقراءة إنتاج الناقد محمد بازي، تكشف عن حضور ترجمات الأستاذ بو حسن لبعض ما كُتب عن نظرية التلقي والتأويل واشتغالاته بها في كتاباته[٢٣]، ولكن بازي انعتق من موجهات أستاذه، وسعى إلى أن يختط لنفسه مشروعاً نقدياً تأويلياً ما زال يبنيه ويشيده ويطوره ويتابع فيه إصداراته إلى اليوم.

أما الباحثان: محمد مرشد الكميم ورضوان ضاوي، فقد استلهم الأول من كتاب «العرب وتاريخ الأدب» فكرة مقاربة المصنفات لا المؤلفات مقاربة ثقافية خطابية؛ إلا أنه عدل، في أطروحته للدكتوراه[٢٤]، عن مقاربة المصنفات العامة التي يمكن أن تناظر كتاب الأغاني، إلى المصنفات الخاصة التي اقتصر منها على مقاربة نماذج من المختارات الشعرية الأندلسية، كما استلهم منه قضايا منهاجية تتصل بمفهوم النموذج ومفهوم التحقيب ومفاهيم النسق المفرد والمتعدد والمشيد، بينما استلهم الثاني منه هاجس الاهتمام بنظرية التلقي والتأويل وبترجمات الألمان للثقافة الشعبية المغربية وبالدراسات الثقافية.[٢٥]

---

٢٢- الكتاب صادر عن دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط.١، ٢٠٠٨.

٢٣- عناوين مؤلفات بازي لا تكاد تخلو من دليل "تأويل"؛ فإلى جانب أطروحته للماجستير التي لم تنشر والمعنونة بـ: النص واستراتيجيات التأويل: مقاربة في خطاب التفسير، نجد كتبه التي صدرت عن منشورات الاختلاف معنونة بـ: التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، وتقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي، والعنوان في الثقافة العربية: التشكيل ومسالك التأويل، ونظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب.

٢٤- الأطروحة جاءت معنونة بـ: خطاب المختارات الشعرية الأندلسية: مقاربة للمتعاليات النصية في ثلاثة نماذج. وقد نوقشت بتاريخ ٢٠١٣/٦/١٧، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس- الرباط.

٢٥- تدور أطروحة رضوان ضاوي للدكتوراه وكثير من مقالاته حول الثقافة الشعبية المغربية في كتابات الرحالة والمستشرقين الألمان، كما تذهب بعض من مقالاته إلى معالجة مفاهيم نظرية التلقي في كتابات بعض النقاد العرب وعلى رأسهم الأستاذ أحمد بو حسن.




«الإكفراسيس» تقنية
مستعملة في صميم
مختلف الأنواع الأدبية،
منذ العصور القديمة
إلى اليوم




* ”الإكفراسيس كنوع أدبي: كتابة التصوير“ ــ (دراسة قمنا بترجمة وإعداد وتركيب أهم أفكارها) الدراسة مأخوذة من كتاب:
“Ecrire sur la peinture: Anthologie + dossier. Par: Charlotte maurisson + Lecture d’image. Par: Agnès Verlet. Folioplus” / Classique. Editions Gallimard - ٢٠٠٦.
Pages: De ١٧٩ à ١٩٣





**بقلم : د. بوجمعة العوفي**

شاعر وناقد فني مغربي

لكي «يكتبوا أو يصفوا تفاصيل لوحة فنية، غالبا ما كان الكتاب يميلون إلى كتابة وإنجاز «إكفراسيسات des ekphrasis»، إذ تدل أو تشير هذه اللفظة المستعارة من اللغة الإغريقية إلى عملية وصف عمل فني واقعي أو متخيل. و»الإكفراسيس» تقنية مستعملة في صميم مختلف الأنواع الأدبية، منذ العصور القديمة إلى اليوم، سواء كانت ملحمة أو رواية أو شعرا أو نصوص أفكار، مثل: «ذرع أخيل bouclier d'Achille» في إلياذة هوميروس، لوحات «شاردان Chardin» في صالونات أو معارض ديدرو الفنية، بورتريه «سالومي Salomé» في «عكس اتجاه التيار à rebours» لهويسمانس Huysmans، أو أيضا «لوحات إلستير d'Elstir المتخيلة» في: «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست.

وتتكون لفظة Ekphrarsis، بالنظر إلى أصل اشتقاقها، من «Phrazo» التي تعني: «شرح شيء ما وجعله مفهوما»، ثم من «ek»، والتي تعني: «إلى أقصى حد». وتشير لفظة «الإكفراسيس» إلى وصف شيء واقعي أو وهمي. وقد كان خطباء المرحلة السفسطائية الإغريقية الثانية، في القرن الثالث الميلادي، يشيدون نظرية «الإكفراسيس» من خلال اعتمادها كتمرين تحضيري لتكوين تلامذتهم. حددوها كخطاب وصفي تعمل على إظهار الشيء الموصوف داخل مسرح الخطابة وعلى منصتها. كان يتم تشكيل هذه «الإكفراسيسات»، انطلاقا من أشخاص وأمكنة أو أشياء. ومن خلال استعمالاتها المتعددة على مرّ الأيام، أخذت هذه الممارسة الأدبية تتقنن. ومع «فيلوسترات Philostrate» (القرن الثالث الميلادي) فرضتْ هذه التقنية الكتابية نفسها كنوع أدبي، وأخذتْ «لوحاته» تظهر على شكل تجميع لتوصيفات وشروحات تصويرية.

أصبحت «الإكفراسيس» إذن بمثابة قطعة أدبية تعكس مهارة الكاتب في وصف وشرح الأعمال الفنية، ووسيلة تَحَدّ بلاغية وبيانية. أضحت هذه الروابط بين الأدب والصورة تترجم من خلال تماثل أو مشابهة تلخص صيغة أو قاعدة «هوراس» في «épître aux pisons» لفنه الشعري «Art poétique»: «ut pictura poesis»، «إذ يوجد في ذلك من الشعر بقدر ما يوجد من التصوير». إنه التصور المتبادل الذي يجعل من الشعر تصويرا كلاميا موهوبا، ومن التصوير شعرا صامتا.

وكان المؤلفون القدامى يعتمدون تقنية «الإكفراسيس» من خلال إدخالها في الملاحم، حيث اعتمدها هوميروس في «الإلياذة»، وفرجيل في «الإنياذة»، واعتمدها «لونغوس Longus» في روايته «دافنيس وكلووي daphnis et Chloé». لكن استعمال «الإكفراسيس» سيتقلص فيما بعد، ويصبح أكثر تخصصا. تشير «الإكفراسيس» إذن إلى تقنيات وصف الأعمال والأشياء الفنية، من تصوير ونحت ورسم وذروع وزخارف السجاد. وغالبا ما يعتبر وصف «ذرع أخيل» في نهاية النشيد الثامن عشر من الإلياذة بمثابة أول «إكفراسيس» في تاريخ هذا النوع الأدبي، إذ تمسك هوميروس، في هذا الجزء من «الإلياذة»، بوصف دقيق لأسلحة المحارب «أخيل»، حيث عمل على استحضار المادة التي صنع منها الذرع وشكله، بل حتى مختلف الأشكال الزخرفية التي تزين هذا الذرع. حرص الشاعر كذلك على إدخال مستمعيه أو المنصتين إليه في عالم الذرع بجعل الأشكال الزخرفية المنحوتة تتحرك: مشاهد طبيعية تبتق، ويتم وصف تفاصيل الحياة اليومية لمدينتين إغريقيتين، حيث تبدأ الشخوص في الحديث فيما بينها.[١]

من هنا، تكون أهمية الحديث عن هذا الجنس الكتابي الذي ينتمي إلى الأدب بشكل خاص (كتابة التصوير)؛ أي: علاقة الأدب (الشعر خصوصا) بالفن التشكيلي، مع التأكيد أن تقنية «الإكفراسيس» شكّلتْ من دون شك الإرهاصات أو اللبنات الأولى لظهور ما يسمى الآن بالنقد الفني، أو كل الكتابات الإبداعية الأدبية التي جاءت مستندة في تحققها إلى الأعمال الفنية، ومستلهمة لموضوعاتها ومضامينها

١ــ المرجع نفسه، ص ٨١.



**يعتبر وصف «ذرع أخيل» في نهاية النشيد الثامن عشر من الإلياذة بمثابة أول «إكفراسيس» في تاريخ هذا النوع الأدبي**

ومكوناتهـا الصوريـة والجماليـة في آخـر المطـاف، ثـم لأن «الإكفراسـيس»، قـد تكـون، ولـو حـتى حـين لا تـتم الإشارة إليها بالاسم في العديد مـن الإبداعـات الأدبيـة الحديثـة والمعـاصرة، والمصاحبـة أو المحايثـة للأعمـال التشـكيلية، والمنطلقـة مـن موضوعاتهـا ومكوناتهـا الفنيـة بالأسـاس، هـي كل مـا نقـرأه الآن مـن قصائـد، ونصـوص أدبيـة، ونصـوص أفـكار، ونصـوص نظريـة أيضـا في النقـد الفـني، والـتي تتخـذ لهـا العمـل التشـكيلي منطلقـا، ومـادة تحليـل وإيحـاء واسـتلهام؟

### «الإكفراسيس» الشعرية الغربية: (منارات شارل بودلير)

تمثيـلا لهـذه العلاقـة أو المجـاوَرة القديمـة والممكنـة بـين الشـعري والتشـكيلي، يكـون مـن الـضروري أيضـا أن نعـرض لنمـوذج مـن «لإكفراسـيس» الشـعرية، مـن خـلال القصيـدة الشـهيرة «المنـارات» للشـاعر الفرنـسي «شـارل بودلـير». هـي القصيـدة الـتي تضمنهـا ديوانـه الشـهير «أزهـار الـشر» أو «أزاهـير الـشر» أو «أزهـار الألـم» «Les fleurs du mal»: كمـا وردت في ترجماتهـا المختلفـة إلى اللغـة العربيـة عنـد العديـد مـن المترجمـين والكتـاب والشـعراء العـرب.

علمـا بـأن هـذه القصيـدة (المنـارات)، هـي قصيـدة مركزيـة، أو بمثابـة «القصيـدة المفتـاح» في الديـوان الشـعري الشـهير «أزهـار الـشر» لشـارل بودلـير، إذ تشـكل هـذه القصيـدة أو توضـح بشـكل بـارز المكانـة الأساسـية الـتي ظـل التصويـر والفـن التشـكيلي عمومـا، يحتلهـا في اهتمامـات وتجربـة الشـاعر الفرنـسي «بودلـير»، حيـث يكـون كل مقطـع رباعـي strophe مـن هـذه القصيـدة، بمثابـة تحيـة أو وسـام شـعري مُهـدى مـن الشـاعر لرسـام أو لفنـان. وذلـك بالمـزج، عـلى سـبيل المثـال، بـين رسـامي النمـوذج أو المثـل الأعـلى («واطـو»، «روبنـس») مـن جهـة، ثـم بـين رسـامي السـأم والسـوداوية («رامبرانـت Rembrandt» و«وغويـا Goya») مـن جهـة ثانيـة.

بذلـك أيضـا، يكـون «بودلـير» قـد أنجـز، إلى حـد مـا، نوعـا مـن الإهـداء أو التكريـم المرتعـش، وشـفيف الانفعـال، لمجمـوع الرسـامين الحـاضرة أسـماؤهم وعوالـم أعمالهـم الفنيـة في هـذه القصيـدة. وذلـك فقـط، ليـس سـوى صـورة دقيقـة وخالصـة، لتجربـة البحـث والالتمـاس الشـعريين عنـد «شـارل بودلـير».[٢] مـع مـا يمكـن أن يطرحـه ــ كذلـك ــ خيـار أو رهـان الترجمـة العربيـة مـن صعوبـات، سـواء بالنسـبة إلى الشـعر عمومـا، أو بالنسـبة إلى نقـل شـاعر مـن عيـار «بودلـير» إلى العربيـة عـلى وجـه الخصـوص. لذلـك جازفنـا أيضـا باقـتراح ترجمـة عربيـة شـخصية لأهـم مقاطـع قصيـدة «المنـارات». آملـين كذلـك أن تكـون محاولتنـا المتواضعـة، عـلى قـدر معقـول مـن الأمانـة، ثـم قريبـة، عـلى الأقـل، مـن لغـة «بودلـير»، ومـن عوالمـه الشـعرية، الشـاهقة، والمسـتعصية عـلى القبـض كذلـك مـن دون شـك.[٣]

٢ــ المرجع نفسه، ص ٨٢

٣ــ تمت، في حدود علمنا، ترجمة ديوان: "أزهار الشر"، لـ "شارل بودلير" ومعظم قصائده إلى العربية مرات عديدة، سواء في شكل كُتب مُفردة، أو في الدوريات الثقافية العربية. ومن ذلك: قصائد من "أزهار الشر": ترجمة "إبراهيم ناجي"، وصدر عن رابطة الأدب الحديث في القاهرة عام ١٩٥٤م، ثم ترجم الديوان "محمد أمين حسونة"، ونشرته الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٥٧م، ثم صدر الديوان بعنوان "أزهار الشوك": ترجمة "إبراهيم ناجي"، ونشرته دار العودة في بيروت سنة ١٩٧٧م، كما صدر الديوان بعنوان "زهور الألم" من ترجمة "مصطفى القصري"، ونشرته الدار التونسية عام ١٩٨١م. وترجم "ياسر يونس" مُختارات من ديوان "أزهار الشر"، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥م. كما أن هناك ترجمة أخرى أنجزها الشاعر العربي "أدونيس". لنفس قصائد "بودلير". أما سبب قيامنا بترجمة شخصية لهذه القصائد المدرجة في هذه المقالة، فيرجع إلى الأسباب التالية:

أ ــ عدم تمكننا من الحصول على أية نسخة كاملة من هاته الترجمات، من جهة.

ب ــ من جهة ثانية: كانت بعض الترجمات التي تمكنا من الحصول عليها، وخصوصا بمواقع معينة على الإنترنت، إما غير متضمنة لترجمة عربية لقصيدة "المنارات"، أو غير مكتملة في مجملها، وبها العديد من أشكال القفز على بعض الكلمات من أبيات القصيدة، أو بها تحريف للمعنى في بعض الصيغ، مثل الترجمة التي أنجزها لهذه القصيدة (منارات) المفكر والكاتب والمترجم السوري الراحل "أنطون مقدسي".

والموجودة ضمن دراسة له بعنوان: "العقلي واللامعقول: من بودلير إلى الفن الحديث"، والموجودة بعض مقاطعها على رابط الموقع التالي على الإنترنت:

http://www.awu-dam.org/mokifadaby/٧٢-٠٠٢/mokf٠٠٢-٧٢-٠٠٢.htm





أعلاه: عمل فني للرسام «روبنس Rubens»[٤]

روبنس، نهر من النسيان، حديقة للكسل
متكأ لجسد نضر، حيث لا حب
لكن حيث الحياة تتدفق هائجة من دون انقطاع
كما يتدفق الهواء في السماء، والبحر في البحر



أعلاه: عمل فني للرسام «واطو»[٦]

واطو، هذا الكرنفال، حيث قلوب تتلألأ
مثل فراشات بتوهجها تتوه
أشكال ندية وخفيفة من الزينة، مضاءة بثريات
تسكب الجنون في هذه الحفلة الراقصة الحائمة حول نفسها



أعلاه: تخطيط عمل فني للرسام «رامبرانت Rembrandt»[٥]

رامبرانت، مشفى حزين مليء بالهمسات
وبمصلوب هائل بزينته لا غير
حيث الصلاة النائحة تنبعث من القمامات
ومن شعاع شتوي يتم اختراقه فجأة



أعلاه: عمل فني للرسام «فرانسيسكو غويا»[٧]

غويا، كابوس مليء بالأشياء المجهولة
بالأجنة التي تقوم بطهيها في منتصف محافل السبت
بعجائز ذوات المرايا وبأطفال كلهم عراة
ومن أجل إغواء العفاريت، يسوون بدقة جواربهم الطويلة

٤- Le grand dictionnaire de la peinture (Des origines à nos jours): conçu et réalisé par: MPIBOKS / Pays Bas. Edition: ADDL ١٩٩٨. P ٦٣٦

٥- http://fr.academic.ru/pictures/frwiki/٨٢/Rembrandt_The_Three_Crosses_١٦٥٣jpg

٦- http://fr.academic.ru/pictures/frwiki/٧٤/JeanAntoine_Watteau,_Love_in_the_Italian_Theatre.JPG

٧- http://www.ljbrel٩٣.ac-creteil.fr/spip.php?article٢٠٦

## اهتم «الإكفراسيس»، كتقليد وكجنس كتابي، في غايته الأساسية بمجاورة الأعمال الفنية، ومساءلتها



أعلاه: عمل فني للرسام «أوجين دولاكروا»[٨]

دولاكروا، بحيرة من الدم مسكونة بالشياطين
تظللها غابة من أشجار التنوب دائمة الخضرة
حيث تعبر ، تحت سماء كئيبة، جوقات نحاسية غريبة
مثل تنهيدة مخنوقة لويبر[٩]

هكذا إذن، تأسست ــ عبر كل العصور ــ تقنية «الإكفراسيس»، كتقليد وكجنس كتابي، اهتم في غايته الأساسية بمجاورة الأعمال الفنية، ومساءلتها، تارة بلغة الوصف الدقيق لمكوناتها التصويرية والموضوعاتية المحسوسة والواقعية، وتارة أخرى بلغة الخيال والرمز والاستعارة والمجاز. ومن ثم، يكون تاريخ الآداب الإنسانية والفنون، وسجلاته، حافلا، منذ العصور القديمة إلى الآن، بالعديد من أشكال التجاور والتقاطع المتفرد والمتعدد في الوقت نفسه.

٨- http://college-de-vevey.vd.ch/auteur/inedits/mutation_des_signes/delacroix.jpg

٩ــ "كارل ماريا فريديريش إيميست فون ويبر Carl Maria Friedrich Ernest von Weber": ملحن ألماني للموسيقى الكلاسيكية. ولد يوم ١٨ نونبر ١٧٨٦ بـ "Eutin" بالقرب من ""Lübeck. وتوفي يوم ٥ يونيو من سنة ١٨٢٦ بمدينة لندن، وهو مؤلف العملين الموسيقيين الأوبراليين الشهيرين: "Der Freischütz" و"Euryanthe"، انظر:
http://fr.wikipedia.org/wiki/Carl_Maria_von_Weber

وقد قمنا أيضا، من جانبنا ــ على مستوى صياغة نصنا الشعري، بتجريب تقنية «الإكفراسيس» أو تجربة «قصيدة وصورة»، مثلما ظل يشار إليها في أغلب الكتابات. وأنجزنا، ضمن بعض أعمالنا الشعرية، سواء المنشور منها في كتب ومجلات ومنابر ثقافية مغربية وعربية، أو المنجز على مستوى معارض شعرية - تشكيلية باشتراك مع فنانين تشكيليين ومصورين فوتوغرافيين، العديد من «الإكفراسيسات» الشعرية، التي تدعو إلى ترسيخ هذا التعاقد الأليف والدال، في نفس الوقت، بين الشعري والتشكيلي.

هنا: نموذجان من «الإكفراسيس» الشعرية المستوحاة من أعمال فنية تشكيلية عالمية: شذرتان أو مقطعان شعريان قصيران: الأول يحمل عنوان «زهرة ماتيس»، والثاني «أكواريل». وبهما إحالات وصفية ورمزية عدة، تتعلق أو تحيل إلى تفاصيل لونية، وتعبيرية، وتقنية، وثيمات Thèmes، نجدها حاضرة بقوة، أو هي تطبع، بالأحرى، بعض أعمال الرسامين الشهيرين مثل: الفرنسي «هنري ماتيس Henri Matisse»، والهولندي «فان غوخ Van Gogh»:

أ ــ الإكفراسيس الشعرية الأولى «زهرة ماتيس»[١٠] تليها لوحة «ماتيس»:

في قيلولته:
يتعرى «ماتيس» من سيرته
ويبادل عينيه بزهرة أكريليك
كي
ينبت لهما قيظ أخضر
وسماء نازفة ...
وعشيقان
ينامان على حافة قبرهما الشخصي..

١٠ــ بوجمعة العوفي: "البياض يليق بسوزان" (شعر) ــ مطبعة "آنفو ـ برانت" فاس، الطبعة الأولى ٢٠٠٧. ص ٥




أعلاه: عمل فني للرسام: «ماتيس *Matisse*»[١١]

ب ــ الإكفراسيس الشعرية الثانية «أكــــواريل»[١٢] تليها لوحة «فان غوخ»:

روحك

مثل ظهيرة «فان غوخ»:

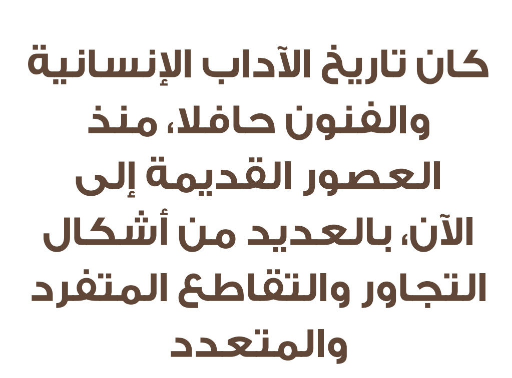
تتمازج فيها الألوان

مثل قيامة جامحة..



أعلاه: «القيلولة *La sieste*» ــ عمل فني للرسام «فان غوخ»[١٣]

يأتي هذان المقطعان الشعريان: «زهرة ماتيس» و«أكواريل»، المدرجان ضمن مجموعتنا الشعرية المذكورة «البياض يليق بسوزان»: على شكل «إكفراسيسات» شعرية. ولو أنهما غير مصحوبين، في



**كان تاريخ الآداب الإنسانية والفنون حافلا، منذ العصور القديمة إلى الآن، بالعديد من أشكال التجاور والتقاطع المتفرد والمتعدد**

الديوان الشعري المذكور، بنماذج تصويرية لأعمال فنية، تخص الرسامين المعنيين، والواردة أسماؤهما في المقطعين الشعريين المذكرين. إلا أنهما يتضمنان، في دلالتهما وفي ملفوظهما النصي كذلك، اسمي الرسامين («ماتيس» و«فان غوغ»)، ثم بعض الإحالات الخاصة، والمشيرة أيضا إلى بعض الأشياء والعناصر التشكيلية: مثل الزهور الموجودة في العديد من لوحات ماتيس وفان غوخ)، ثم الموضوعات الحاضرة في بعض أعمالهما الفنية كذلك، مثل: موضوعة «العري Nudité» الحاضرة باستمرار، أو التي تكاد تطبع، بشكل ملحوظ وقوي، جل أعمال الرسام «ماتيس»، مع الإشارة كذلك، على سبيل المثال، في القصيدة أو في المقطع الشعري إلى اللوحة الشهيرة: «القيلولة La sieste» للرسام الهولندي «فان غوخ ». إضافة إلى تضمين القصيدة أو الشذرة الشعرية أسماء وصفات بعض التقنيات، والمواد الصباغية المستعملة، من حين لآخر، من طرف هذين الرسامين، في إنجاز بعض أعمالهما الفنية، مثل: «الأكريليك L'acrylique» و«الأكواريل L'aquarelle».

---

١١- http://www.forum-auto.com/les-clubs/section٧/sujet١٢٩٥٨٤.htm

١٢ــ بوجمعة العوفي: "البياض يليق بسوزان" (شعر) مرجع سبق ذكره، ص ٦

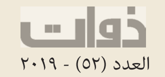
١٣- http://cyreal.free.fr/blog/index.php/٢٢/٠٣/٢٠٠٨/eloge-de-la-sieste/



# الكاتب والمترجم ا

# لعراقي فلاح رحيم لمجلة «ذوات»:

# الحركة التنويرية في العالم الإسلامي شابتها علل كثيرة





حاوره: محمّد فاضل المِشْلَب
كاتب وباحث عراقي

عُرف فلاح رحيم (بابل ١٩٥٦) مُترجماً عراقياً نقل للغة الضاد عن الإنجليزية دراسات متعددة في التأويل والسَّرد والإبستمولوجيا، حتى باتَ في مقدّمة المترجمين العرب. واصل همّه المعرفي الممتد على أكثر من خمس وثلاثين عاماً جلّها قضاها مخفوراً بالترجمة، إلى أن أضاف لمشروعه ميدانين إبداعيين؛ الرواية (عبر روايتيه «القنافذ في يوم ساخن» ٢٠١٢ و«حبّات الرمل حبّات المطر» ٢٠١٧، وله رواية ثالثة «صوت الطبول من بعيد» تحت الطبع)، ثمَّ الاشتغال المعرفي الحافر في ثقافة بلد مشرقي كالعراق، من خلال كتابه الأحدث الموسوم بـ «أزمة التنوير العراقي: دراسةٌ في الفجوة بين المثقفين والمجتمع» الصادر هذا العام ٢٠١٨ عن جامعة الكوفة في العراق.

للكتاب أهمية تنطلقُ من جدَّته في الفحص الإبستمولوجي، عند زاوية لم ترصد بعناية، وهي الأنتلجنسيا العراقية، على تنوّع طروحاتها ويقينيّاتها، ونزوعها نحو التنوير والحداثة على شتى المجالات، وبموضوعية من لدن الكاتب فلاح رحيم، تثير الإعجاب، مهما بلغ الاختلاف مع رؤى المؤلف، وطروحاته، والسياقات التي وضع فيها المحاور التي تناولها نقداً وقراءة فاحصة في فصول الكتاب، لنزوع الكاتب نحو اللامجاملة، وحيادية التحليل والنقد، وتداول الأفكار.

وللبحث في هذه الموضوعة، وضع المؤلف خطاطة للكتاب تمتدُّ على ستّة فصول، سبقها مهاد نظري عن التنوير العربي؛ بوصفه المظلة الكبيرة، والمهيمنة، التي تفرّع منها تنوير بلد مثل العراق، مضيفاً أسباب مأزق التنوير العربي، لاسيما بعد ثورات الربيع العربي، وفشل مشروع التنوير الذي يطرحُ سؤالاً جوهرياً حول ماهية دور المثقف خصوصاً بعد فقدان «الجماهير» الثقة به لعدّه تابعاً للسلطة.

ليتوسّع في الفصل الأول متناولاً تاريخياً التنوير في أوربا، وتحوّلاته وأزماته، عبر مفاتيح نقدية كتبت في الموضوعة هذه، استفاد منها رحيم، للتوغل -لاحقا- في شريحته التنويرية العراقية المُنتقاة، فتناول في الفصل هذا موضوعات تنويرية أوروبية كالماركسية والليبرالية وطروحات الإيطالي غرامشي والفلسطيني إدوارد سعيد.

أمّا الفصل الثاني من الكتاب، فكان تناولاً للكيفية التي كُتب فيها تاريخ العراق الحديث، منذ دخول القوّات البريطانية وإنهاء الاحتلال العثماني آنذاك، متناولاً المؤرشفين العراقيين، كـ (عليّ الوردي، وحنّا بطاطو، وفالح عبد الجبّار، وعبّاس كاظم)، على تباين نوازعهم الإبستمولوجية، ومنطلقاتهم البحثية.

وحتى تكتمل الصورة، نحا فلاح رحيم، باتجاه من تناول تاريخ العراق من الكتّاب الغربيين دراسةً للبلد وأرشفةً لسرديته من منظور آخر مثل: ريفا سبكتر سيمون عبر كتابها «العراق بين الحربين العالميتين: الأصول العسكرية للطغيان» عبر دراسة أسباب هيمنة النزعة القومية في العقل الحاكم للعراق. وفيبي مار وكتابها «تاريخ العراق الحديث» متناولة سردية بداية الحكم في العراق وانتهاءً بخاتمة دراماتيكية لحكم البعث في العام ٢٠٠٣، فيما عرض المؤلف لكتاب آخر

لتشارلس تريب هو «تاريخ العراق» ماراً بالعرض على عوامل إخفاق الدولة الدستورية في العراق لعوامل عدّة كالاستبداد وشبكة العوائل والعشيرة المهيمنة على موارد البلد والتحكّم السياسي باقتصاده، فضلاً عن منظومة العنف الممنهج الذي مُورس على امتداد الأنظمة المتعاقبة في العراق.

وجاء الفصل الثالث لقراءة مشروع الناقد العراقي سعيد الغانمي، وكيف بدأ حداثوياً مرتمياً في حضن البنيوية فلسفةً ومنهجاً، وكيف صار الغانمي في كتبه الحديثة بعيداً عن فكره البنيوي، مؤثّراً ميادين منهجية أخرى تقتربُ من الظاهراتية وملاذ الأسطورة، حسب وصف فلاح رحيم.

فيما خصّ الفصل الرابع لقراءة منجز حسن ناظم النقدي والترجمي، راصداً تحوّلات ذلك المنجز بوصفه مُقارباً نقدياً للشعر الحديث وفق المناهج الشكلية، إلى مقارب للشعر بالكيفية التأويلية، عبر المغامرة بالكشف العميق لرؤى النصوص في صيغتها الإنسانية، معتمداً على مقدرة الناقد الساكنة في ذاته أي «حسن ناظم» وعدّته الثقافية الكبيرة.

وكان الفصل الخامس خاصا بالمترجم والمختص بالفلسفة عليّ حاكم صالح وقراءته لدراسة حاكم الخاصة بالروائي فؤاد التكرلي المعنونة بـ «المجتمع اللااجتماعي»، وكتابه الآخر «الأيديولوجيا وتمثيلاتها الفلسفية في الفكر العراقي الحديث»، لينهي فلاح رحيم رأيه الخاص في قراءة عليّ حاكم صالح بخيبته من انسياق الفلسفة في العراق - بوصفها تنويراً- وراء الأيديولوجيا، ومن ثمّ خيبة من المجتمع برمّته، حيث تشي مظاهر المجتمع عكس ما يضمره من فواجع.

وجاء الفصل الختامي من الكتاب، للحديث عن تجربة المفكّر عبد الجبّار الرفاعي وما حملته مدونته

المعرفية من الوقوع بداية تحت سلطة الموروث الديني والعرفاني بوصف الرفاعي خرّيج حوزة النجف الدينية، وانتهاءً بحصول أزمة، وخيبة كبيرة لدى الرفاعي، في كتبه الأخيرة كـ «الدين والظمأ الأنطولوجي» من الأيديولوجيا الدينية وفاعليتها السياسية التي حكمت العراق بعد زوال نظام البعث في نيسان ٢٠٠٣، وغرق تلك الفاعلية الدينية السياسية بفوضى حُكم، وبؤس إدارة، ومنظومة فساد عال، ومسؤولية عن تغيّرات اجتماعية فادحة ومشوّهة.

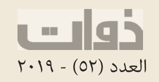
الكتاب جديد في فكرته، وتحليلاته، وطروحاته، وقد أثار لدى المهتمين الكثير من التساؤلات، وهو ما دفع مجلة «ذوات» إلى تخصيص حوار معه حول فحوى الكتاب وإشكالاته، ليكون بذلك أول حوار يجريه المترجم والكاتب فلاح رحيم طوال مشواره الثقافي الثري.

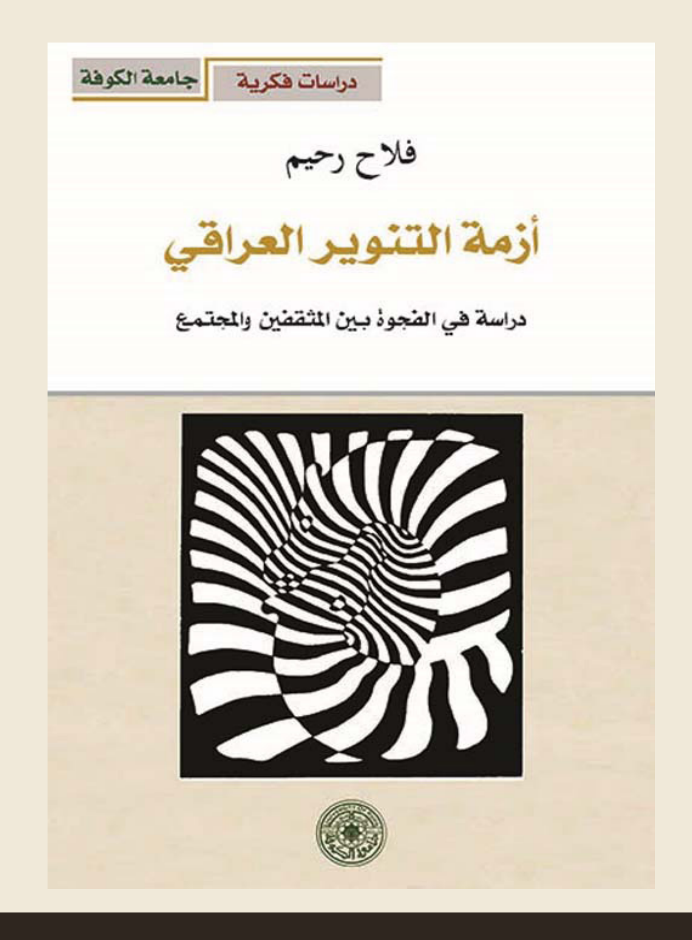
*** كيف نشأت فكرة الكتابة عن موضوعة التنوير في بلد شرقي، مثل العراق؟**

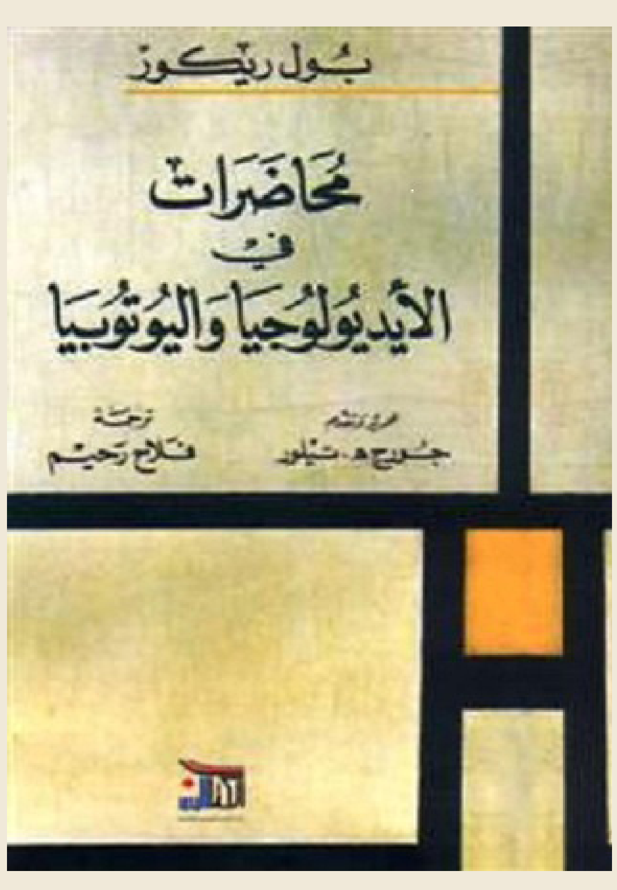
ذكرتُ في بداية كتاب «أزمة التنوير العراقي» أن موضوعة التنوير وأزمته عراقياً وعربياً وعالمياً، ظلّت شاغلي الأول منذ عقود، وهو ما يتضح في محاولتي تدوين التاريخ العراقي الحديث في رواياتي: «القنافذ في يوم ساخن»، و«حبّات الرمل ... حبّات المطر»، و«صوت الطبول من بعيد». أزمة التنوير موضوعة رئيسة في هذه الروايات، وبهذا المعنى يكون كتاب «أزمة التنوير العراقي» جزءاً من اهتمامي بالموضوع. ذكرت في أكثر من موضع أن للتجربة العراقية خلال نصف القرن الأخير خصوصيات كثيرة، تجعلها غنية في قدرتها على تمثيل الجوانب المتعددة لأزمة التنوير في كل مكان، وهنالك اهتمام عالمي بدراسة التجربة العراقية على نطاق واسع، لهذا السبب ضمن أسباب أخرى، نحن أولى بتأمل معضلاتها والتحاور بشأنها في نطاق عراقي.

*** كيف تقدّم للقارئ هنا فكرة التنوير بوصفها أفقاً أوروبياً؟**

التنوير الأوروبي موضوعة متشعبة ومعقدة دُرست باستفاضة وتعمق على نطاق واسع، وقد لا أستطيع الإحاطة بجوانب الموضوع في هذه العجالة. الواقع أنني تجنبت التوسع في التنوير الأوروبي وأزمته في كتابي لأن الدراسات متوفرة عن الموضوع، وما تُرجم منها إلى اللغة العربية، توفِّر عليّ هذا الجهد وتجنبني التكرار. بدأ التنوير الأوروبي كحركة تعلي من شأن العقل والعلم وتؤمن بالتقدّم، وكان له دور كبير في ترسيخ النظرة الإيجابية إلى العلوم وتأسيس نظرية العقد الاجتماعي، والدفاع عن حكم الأغلبية سياسياً. والتنوير الأوروبي لم يقدم نفسه بصيغة واحدة، بل تمثل في مدارس فلسفية كثيرة، أبرزها الفلسفة النفعية، وفلسفة العقد الاجتماعي، والماركسية، وكلها اعتمدت مبدأ اليقين ووقفت ضد كل أشكال الشك، وآمنت بإمكانية تقدّم البشرية. بحسب التنوير، يتبوأ



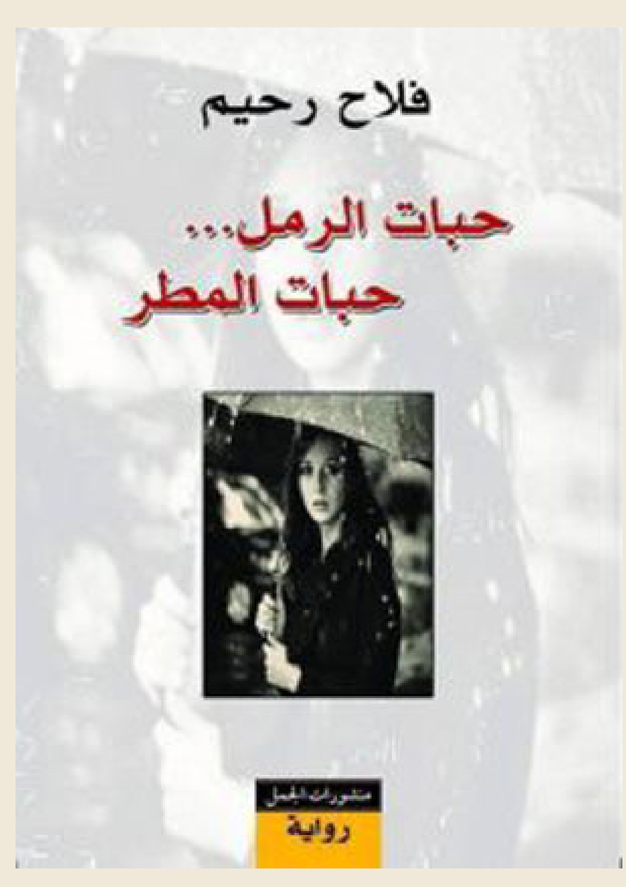


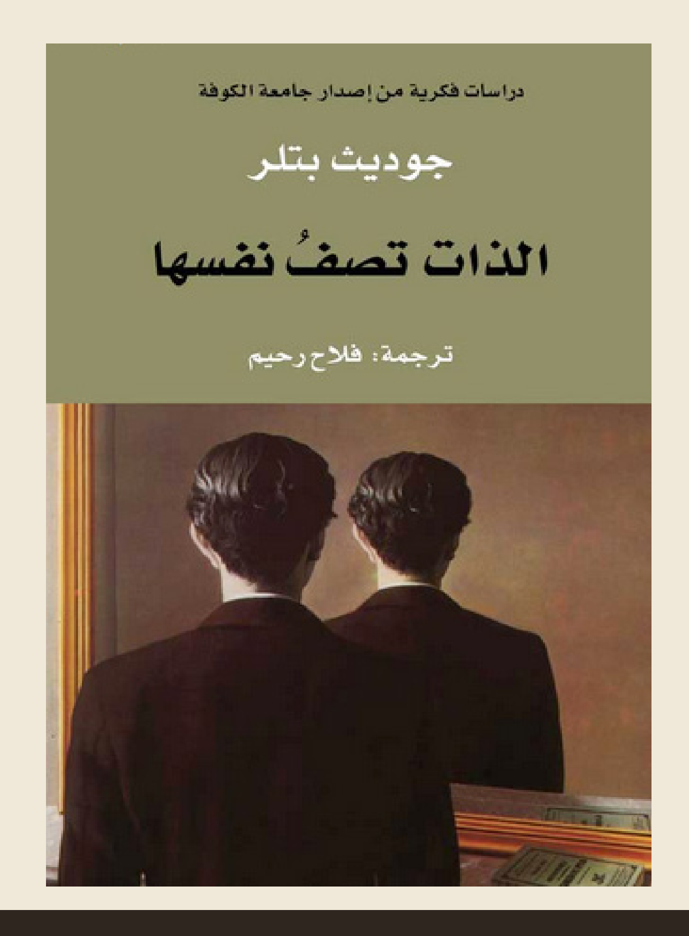




**للتجربة العراقية خلال نصف القرن الأخير خصوصيات كثيرة، تجعلها غنية في قدرتها على تمثيل الجوانب المتعددة لأزمة التنوير في كل مكان**

الإنسان الصدارة في هذا الكون، لأنه يعرف ما يصنع (كوجيتو ديكارت)، ويملك ما يصنع (نظرية الملكية الخاصة أو العامة)، ويقدر على إقامة الدولة الخيّرة (العقد الاجتماعي). هذه الصورة المشرقة لإمكانات الإنسان وآفاق تطوره تعرضت إلى إخفاقات كبيرة خلال الربع الأخير من القرن العشرين تحديداً، وإن كان ظهور أعداء التنوير قد رافقه منذ بدايته. وأعتقد أن ميراث ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية والهرمينوطيقا هو أبرز تمهيد فلسفي وفكري لتفاقم أزمة التنوير، التي انطلقت على المستوى التاريخي والسياسي أصلاً. عندما تهز هذه التيارات المنشقة عن التنوير الثقة في قدرة الإنسان على التمكن من عالمه، وعلى الكلام بيقين، وعلى الاعتماد على أية مؤسسة عابرة للأفراد في إدارة شؤونه، فإنها إنما تنقض ما سعى إليه التنوير. وما يحدث في عالمنا اليوم من نكوص إلى الهويات القومية والدينية وصعود العنصرية والشعوبية في أوروبا والجدالات الواسعة بخصوص إعادة الدين إلى المجال العام، هي نتائج حرق الأرض الذي مارسته ما بعد الحداثة وضروبها من التيارات النقدية. إذا لم يكن العقل قادراً على توفير اليقين للإنسان، فإنه سيتجه إلى القلب وإلى الجماعة وإلى الموروث ليحصل عليه، هكذا يجادل العالم اليوم. لن يقبل البشر المتاهة التي نجمت عن أزمة التنوير الأوروبي طويلاً، والطريقة التي سوف يُسد بها فراغ التنوير تدعو للقلق.

*** للتنوير الأوروبي فلاسفة أوجدوا مناخاً إبستمولوجيا لتحديث العقل في مجتمعاتهم، كروسو وكانط ومارتن لوثر، فهل يملك العربُ فلاسفة من طينة من ذكرتُ، حتّى من أسميتهم في استهلال الدراسة كالجابري وإدوارد سعيد وأدونيس، هم نقَّاد ومفكِّرون، وحضرتك - دون شكّ - تعي الفروق بين هذه المصطلحات؛ فكيف تنظرُ إلى هذا**



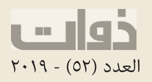




**إذا لم يكن العقل قادراً على توفير اليقين للإنسان، فإنه سيتجه إلى القلب وإلى الجماعة وإلى الموروث ليحصل عليه**

**الإشكال؟**

ثقافتنا العربية وصلت التنوير متأخرة، بينما حدثت النقلة من عصر النهضة الذي ختم القرون الوسطى في أوروبا إلى عصر التنوير في القرن الثامن عشر خلال مئات السنين. وصلتنا قيم النهضة والتنوير في حقبة واحدة هي أواخر القرن التاسع عشر. وتشبه هذه الحالة تعاقب البنيوية وما بعد البنيوية في فرنسا تاريخياً، ثم وصولهما معاً في وقت واحد إلى بريطانيا والشرق الأوسط. مثل هذه المفارقات، كما أرى، تسبب لدينا خلطاً بين مفهومي النهضة والتنوير، بينما العلاقة بينهما تعاقبية في أوروبا، حيث هما مفهومان، وكل واحد منهما مستقل عن الآخر. نجد أن المفهومين مترادفان في الثقافة العربية، وهذا لبس لابد من الانتباه إليه. لذلك، أرى أن كل ما كتب عن النهضة العربية يقع ضمن بحث التنوير العربي ويقر بوجوده.

فضلاً عن هذا، لا يعتمد التنوير لتأكيد وجوده، على حضور فلاسفة من طراز روسو، وكانط، ولوثر في ثقافتنا العربية. يصح هذا إذا عزلنا بعض التواريخ المحلية المختلفة في عالمنا العولمي الذي نعرفه عن البعض الآخر، ويصح إذا قلبنا التاريخ على رأسه، واعتمدنا في التحقيب التاريخي نظرة نخبوية تشترط الأسماء الكبيرة على مستوى الفكر للإقرار بحضور فكرة، مثل التنوير في عالمنا العربي. التنوير اقتحم المجتمعات العربية بكل قيمه الغربية على شكل قوة استعمارية غازية، وطرح نفسه نوراً وناراً في آن واحد. هنالك من يجادل أن العرب والمسلمين يعانون من صعوبات في هضم قيم التنوير لميلهم إلى المحافظة والتقليد، والواقع أن أزمة التنوير العربي تكمن في أن قيم التنوير الغربية كانت ولا تزال تقتحم حياتنا على شكل قوى طامعة في خيراتنا، ومزلزلة لوجودنا الاجتماعي والسياسي. المفكرون الذين تفضلت بذكرهم اعتنقوا قيم



التنوير الغربي بشكل صريح: زكي نجيب محمود اعتمد القيم الوضعية المنطقية، وعبد الله العروي والطيب تيزيني الماركسية، والجابري الهوية القومية، وأدونيس العلمانية العدمية. وهؤلاء حققوا حضوراً كبيراً في الحياة الثقافية العربية حتى أواخر القرن العشرين، عندما بدأ ينحسر الاهتمام بمقولاتهم، ويصعد نجم التقليد ومعاداة التنوير. أما عن مستوى نتاج هؤلاء الفكري، فلا يرقى إلى ما صدر عن الثقافة الأوروبية، وهو أمر لا أقبله دون تحفظ، لأن بعض كتاباتهم لا يقل شأناً عما يصدر في الغرب، فإنه لا ينفي حتى لو قبلنا به حقيقة وجود حركة اجتماعية سياسية فكرية تستلهم التنوير الغربي. هنالك الفكر وهنالك تاريخ الفكر، والأخير مبحث مهم معروف يتناول الطريقة التي تتنقل بها الأفكار في الزمان والمكان بغض النظر عن عمقها وألمعيتها.

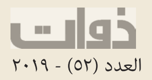
*** هل يصحّ لنا القول بوجود تنوير عربي، على غرار أوروبا؟ وهل له مستندات فكرية تمكن من الإمساك به «بحثياً»، وبالتالي الحديث عن «تنوير عراقي»، وقراءة أزمته؟**

يختلف التنوير العربي في أوجه كثيرة عن التنوير الأوروبي، وقد وضحت بعض جوانب الاختلاف في إجابتي السابقة. أما حقيقة أن قيم التنوير قد اعتُمدت لردح طويل من الزمان في البلدان الخارجة من الحقبة الاستعمارية، فأمر يتفق عليه معظم المؤرخين والباحثين المتخصصين. هنالك اتفاق أيضاً على أن هذه الحركة التنويرية في العالم الإسلامي قد اعتورتها منذ البداية علل كثيرة، أهمها الاستبداد (أي إسقاط ركني العقد الاجتماعي وحكم الأغلبية، وهما من أهم أركان التنوير)، وعلل الميراث الاستعماري والتدخل الخارجي في شؤون هذه البلدان. نعلم أن الحياة السياسية والفكرية العراقية ظلت حتى عام ٢٠٠٣ مسكونة بهاجس التنوير، تسعى إلى إقامة دولة التنوير العادلة، ومعظم النتاج الفكري العراقي الذي ساد المجال العام منذ بداية القرن العشرين، استلهم قيم التنوير. الواقع أن من أسوأ الحقائق بصدد الوضع العراقي الراهن، أن الإطاحة باستبداد البعث وتعسفه، ترافق مع الإطاحة بقيم التنوير وبسيادة البلاد، ذلك أن البعث ادعى مُثل التنوير في أدبياته (القومية من أبرز تمثلات التنوير في أوروبا)، بينما كان يمارس القمع ويعتمد النعرات الطائفية والعشائرية في سياساته الفعلية. من معضلات التنوير العراقي هذا الالتباس في هوية البعث، ومن نتائجه في عراق اليوم، أن كل من يدافع عن قيم التنوير يتهم بالحنين إلى حقبة البعث. الكتاب يحتوي توضيحات لهذه الأفكار.

*** ما هي المقاييس المنهجية التي اعتمدتها في اختيار عينة الدراسة؟ بمعنى لماذا هذه الأسماء (سعيد الغانمي، حسن ناظم، علي حاكم صالح، عبد الجبار الرفاعي) وليس غيرهم؟**

شكراً على طرح هذا السؤال، فقد وصلتني الكثير من التعليقات على اختيار عينة الدراسة، واتهمت بمحاباة هؤلاء الأعلام الذين تناولتهم. أودّ أن أنبه إلى أن أمراض الحياة السياسية العراقية، وأبرزها المحاصصة، بدأت تتنقل على نطاق واسع إلى الحياة الثقافية. هنالك ولع منقطع النظير بين المثقفين والمبدعين العراقيين بمفهوم الحصة، بالأوسمة والألقاب والأسبقية والنجومية، وكأن الفوز بحصة منها هو الغاية من العمل الفكري والإبداعي. لا يوجد ميل إلى طرح الأسئلة الإشكالية المحيرة في الخطاب الثقافي المعاصر، وتبدو الأسئلة وكأن أجوبتها محسومة سلفاً. يهيمن على الفكر العراقي والعربي عموماً نموذجان فكريان أساسيان، الأول هو النموذج التوتاليتاري، أو ما يعرف في العلوم السياسية بـ «النموذج ت»، وهو يذهب إلى أنك إذا جعلت التوتاليتارية عدوك الأول والأخير تمكنت من حل كل الإشكالات وفهم أية ظاهرة سياسية. وهذا النموذج يعاني من مشاكل كثيرة، وهو كما يعلم المتخصصون بعلم السياسة والتاريخ من

**التنوير اقتحم المجتمعات العربية بكل قيمه الغربية على شكل قوة استعمارية غازية، وطرح نفسه نوراً وناراً في آن واحد**



نتائج الحرب الباردة، وقد وضع فيه وفي مشاكله المفكر العراقي الراحل فالح عبد الجبار، كتاباً مهماً لم يحظ باهتمام كبير بعنوان «التوتاليتارية». النموذج الثاني هو نموذج التحديث، وهنا يبدو كأنك إذا ما ناصبت التقاليد والتديّن العداء، تمكنت من حلّ معضلات البلد. من يتابع الدراسات الأكاديمية الرصينة الحديثة يعلمُ أن ثنائية التحديث/التقليد لم تعد كافية لفهم التاريخ. وقد ترجمت كتاب «قوة الدين في المجال العام» لكي أشير إلى هذه الحقيقة. حياتنا الفكرية، وهي أسيرة هذين النموذجين القاصرين، تغفل عن تنوع التجربة العراقية وإشكالياتها المعقدة، التي لا يكفي سجال متعجل في الصحافة أو وسائط التواصل للإحاطة بها. كتبت «أزمة التنوير العراقي» على مراحل، ولكن الموضوعة وفرضياتي بشأنها ظلت تتطور على نحو عضوي دون قسر أو إكراه. وقد اخترت العينات، لأنّها تمثل على نحو نموذجي ومنهجي المعضلة التي أتصدى لها. أما أن أغلب من تناولتهم قد مارسوا أساس الأشخاص (أو المكونات، إذا استخدمنا قاموس العراق الجديد)، بل أوزعها على أساس محتوى الكتاب الذي أضعه والفرضية التي أسعى إلى كشف تعقيدها وأهميتها. هؤلاء الذين أتهم بتهميشهم يمثلون جميعاً الإيمان الكامل بقيم التنوير ومشروعه، وهم يندرجون في غالبيتهم ضمن منطلقات التيار الماركسي والقومي والليبرالي الغربي؛ أي إنهم باقون على العهد التنويري. أما العينات الأربع التي اخترتها، فقد تمكنوا من تلمس الأزمة وناصبوا التنوير العداء، وقدموا بدائل لمنطلقات التنوير عبر مناهج تعلن الشك والبراءة من التنوير. أردت أن أقرأ ما يقولون بعناية، لأنهم تلمسوا علّة غفل عنها كثيرون. قد لا نتفق معهم، ولكنهم جادون في طرح المشكلة، وقد كتبوا بتعمق ودراية ومنهجية، أتاحت لي التحاور معهم باتساق دون أن يربكني في خطابهم ما نجد من تخبط واضطراب في كتابات أعداء التنوير الآخرين. وقد أضيف هنا في مزحة سوداء ما قلته لأحد المعلقين على هذه المسألة على

> **إن أمراض الحياة السياسية العراقية، وأبرزها المحاصصة، بدأت تنتقل على نطاق واسع إلى الحياة الثقافية**

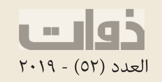
الترجمة، فهذا لا يقلل من شأنهم، بل يزيدهم شأناً. هنالك من يعترض على نعت حسن ناظم، أو علي حاكم صالح بصفة المفكر، ولا أدري كيف أصف من يترجم كتاب جورج غادامير «الحقيقة والمنهج» إلى العربية لأول مرة، بعد أن بقي نصف قرن بعد صدوره دون أن يقرب منه أحد من المترجمين؟

*** عطفاً على السؤال السابق، يجدُ قارئ الكتاب تهميشاً لأسماء مهمّة تستدعيها الذاكرة ضرورةً، لها وقع في الجدل الثقافي العراقي (هادي العلوي، حسام الآلوسي، فاطمة المحسن) مثالاً، كيف تجابه هكذا استفهام؟**

هنالك أسماء أخرى افتقدها معلقون آخرون على الكتاب، منهم فالح عبد الجبار، وناجح المعموري، وعبد الله إبراهيم، وغيرهم ممن أعتز كثيراً بنتاجهم، ولا أشك في ضرورة التصدي له بتعمق واحترام. المشكلة أني لا أوزع حصص الدراسة والتقصي على المفكرين على الفايسبوك: اخترت هؤلاء، لأنهم من أقرب أصدقائي، وأنا واثق من أني مهما قسوت عليهم وجادلتهم، لن يطلبوني عشائرياً كما قد يفعل من لا أعرفهم من أعداء التنوير في عراق اليوم.

*** وهل مناهج الحداثة التي استندتْ إليها الشريحة التي اعتمدتها بالدراسة في بداياتهم هي قيم تنوير، لأنه عندما انتهى الحال عند بعضهم إلى رفض تلك المناهج والارتماء في «تلقائية التلقي» للنصوص عموماً، انبثقت أزمة التنوير العراقي؟**

خرج ثلاثة منهم من رحم التنوير (هم: سعيد الغانمي، وحسن ناظم، وعلي حاكم صالح)، لكنهم انقلبوا عليه بسبب سقوط التنوير المدوي في العراق والوطن العربي. أما عبد الجبار الرفاعي، فهو رجل حوزوي خرج من قلب التقليد، ومارس العمل السياسي على أمل القدرة على التغير، ثم خاب أمله في السياسة، فاتجه إلى محاولة ردم الفجوة بين خطابه

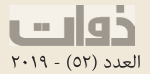


**إن أية عدالة لا تعتمد شرعية دستورية عابرة للأشخاص، تمنح المجتمع حق الرفض والمطالبة بالشفافية، سيكون مآلها الظلم والتعسف**

والإيمان الفطري، والكتاب يحتوي تفصيلات هذه الإجابة.

*** ختاماً هل من حلول تقترحها الدراسة لهذا المنعرج (الأزمة)؟**

تبدأ الدراسة التي نحن بصددها من حقيقة أن تنظيم الفجوة بين المثقفين والمجتمع هي الأصل في مشروع التنوير، وهذا يعني أن المثقف التنويري بحاجة إذا ما شاء التشبث بأهداب الأمل والسعي إلى الفعل والمشاركة الإيجابية، أن يتمسك بمشروعه التنويري الذي قد يدفعه بعيداً عن المسلمات الجاهزة والمصادرات المبسطة. لكنه يحتاج أيضاً إلى وعي أزمة التنوير كما طرحها المفكرون الذين تناولتهم، والحرص على ضبط المسافة الفاصلة بينه وبين المهاد الذي ينشط فيه. وقد ذكرت من قبلُ نموذجي التوتاليتارية والتحديث، وتحفظت على منحهما الحضور المطلق في حياتنا الثقافية. أحاول في كتابي أن أقترح نموذجاً آخر يسدّ النقص في حياتنا السياسية والفكرية يضم النموذجين السالفين، ويتجاوز عيوبهما، هو نموذج الشرعية؛ أي الحاجة الماسة إلى قياس كل شيء لا بمنظور القبول بالفوضى بديلاً عن استبداد الأمس (النموذج التوتاليتاري)، ولا بمنظور أن كل حداثة خير وكل تقليد شر، وهو منظور مبسط عفا عليه الزمن (نموذج التحديث)، بل بمنظور الحرص على مؤسسات شرعية معافاة تضمن تنظيماً منتجاً للفجوة بين المثقفين وصانعي القرار والسلطات الحاكمة من جهة، والمجتمع العراقي بكل فئاته وطبقاته من جهة أخرى. العيب الكبير الذي لا ينتبه إليه دعاة المغامرة العسكرية العلمانية بوصفها ضمانة التحديث أن أية عدالة لا تعتمد شرعية دستورية عابرة للأشخاص، تمنح المجتمع حق الرفض والمطالبة بالشفافية، سيكون مآلها الظلم والتعسف، بل الكارثة كما نرى بأم أعيننا في بلاد العرب والمسلمين.



# عالم الآثار سام عثماناجيتش



بقلم:
رنا علاونة
صحفية ومدونة من الأردن

# مكتشف
# أهرامات البوسنة
# ورائد المراجعات
# العلمية



«العلم يقوم على المعرفة ومشاركتها مع الآخرين، والسماح لاستقبال معارف جديدة، لأن المعرفة ببساطة ليست حكرا على أحد»



ما يميز د. عثماناجيتش هو اكتشافه لأهرامات البوسنة والأنفاق التي تمتد تحت سطح الأرض

«العلم يقوم على المعرفة ومشاركتها مع الآخرين، والسماح لاستقبال معارف جديدة، لأن المعرفة ببساطة ليست حكرا على أحد».هذا ما يردّده دوماً عالم الآثار البوسني د. سام عثماناجيتش عند استقباله وفوداً عديدة، تتكون من خبراء وباحثين في مجالات علمية متخصصة بالآثار والجيولوجيا والأنثروبولوجيا والهندسة والطاقة ومجالات أخرى للوقوف عند ما يعتبره أهم اكتشاف في هذا القرن، وهو أهرامات البوسنة التي يؤكد أنها أقدم وأكبر أهرامات العالم.

يدير د. سام مركز الآثار والحضارات الإنسانية والأنثرولوبوجيا في الجامعة الأمريكية في العاصمة البوسنية سراييفو، وهو عضو في الأكاديمية الروسية للعلوم الطبيعية، ويحمل شهادتي بكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية، وماجستير في علوم الاقتصاد الدولي، ودكتوراه في تاريخ الحضارات، وهو متخصص في دراسات (شعوب المايا)، وقد نشر ١٧ كتابا عن الحضارات القديمة ترجمت إلى ١٧ لغة، أهمها كتاب بعنوان Pyramids Around the World and Lost Pyramids of Bosnia.

إن أكثر ما يميز د. عثماناجيتش إلى جانب قبعته التي تشبه قبعة مستر جونز في أفلام هوليوود، هو اكتشافه لأهرامات البوسنة والأنفاق التي تمتد تحت سطح الأرض، والتي قد يعود بناؤها إلى ٣٠ ألف عام وفقا للأبحاث التي أشرف عليها بنفسه أو قام بها خبراء آخرون، لتكون علامة بارزة في مسار أبحاثه العلمية التي تناولت كل أهرامات العالم، حيث قام بعدة رحلات استكشافية لدراسة الأهرامات الموزعة في مناطق عدة، مثل: الصين، والسودان، وجزيرة الكناري، وموريشيوس، وأخيرا

أهرامات الجيزة في مصر، مؤكدا أنه قام بأبحاث علمية عن أهرامات العالم كله أكثر من أي باحث آخر، الأمر الذي ساهم في تعميق يقينه بحقيقة وجود أهرامات البوسنة، والتي تختفي تحت غطاء أخضر من الأشجار والطين، وتبدو كجبل منتصب في مدينة صغيرة هادئة يطلق عليها اسم (فيسيكو)، وهي مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة سراييفو حوالي ٢٠- ٢٥، دقيقة وعدد سكانها لا يتجاوز ٤ آلاف نسمة.

يبدو الجبل بشكل جلي بأربعة أسطح وتحته مجرى نهر، وهذه إشارات قوية دفعت بالدكتور سام وفريقه إلى البدء بعمليات الكشف والتنقيب ابتداء من القاع، بإزالة طبقة طينية لا تزيد سماكتها عن متر إلى متر ونصف، لتنكشف أمامهم قطع حجرية من الكونكريت الصلب، وقد أظهرت التقارير المخبرية بعد فحص عينة منها أنها تحتوي على مكونات طبيعية، مثل التراب والحصى والماء، ولكنها خضعت لضغط شديد وعملية تصنيع أنتجت هذه القوالب الصلبة التي تظهر الآن متراصة ومتلاصقة باستخدام الطين الطبيعي، وهذا هو الدليل الأول على أن ما يوجد تحت هذه القشرة الطينية هو بناء هرمي من فعل الإنسان لا الطبيعة.

ومن هنا بدأت حكاية د. سام مع أهرامات البوسنة التي يعتبرها مهمته الأساسية في حياته، حيث يقول: «لغايات فهم واستيعاب المعرفة التي ينطوي عليها هذا البناء، كان لابد من دراسته من جميع النواحي لتشمل النواحي الأثرية والعلمية والطاقية الروحانية بالإضافة إلى الجوانب المتعلقة بالشفاء الذاتي».

## جدل لم يحسم بعد

أثار هذا الاكتشاف وما زال، جدلا واسعا في أروقة المؤسسات






لغايات فهم واستيعاب المعرفة التي ينطوي عليها هذا البناء، كان لابد من دراسته من جميع النواحي لتشمل النواحي الأثرية والعلمية والطاقية الروحانية بالإضافة إلى الجوانب المتعلقة بالشفاء الذاتي




العلمية والبحثية المتخصصة في العلوم الجيولوجية والأنثروبولوجية والحضارات والتاريخ؛ فهناك من اعتبر هذا الاكتشاف ادعاء لا يستند إلى حقائق علمية كافية، منهم الخبير الأمريكي كيرتس رانيلز Curtis Runnels من جامعة بوسطن الذي قال إن «سكان المنطقة التي تحوي الأهرامات التي ادعى وجودها د. عثماناجيتش، لا يمكن أن تكون عندهم المعرفة الكافية والأدوات اللازمة لإنشاء مثل هذا البناء، وخاصة في الحقبة التي تمت الإشارة إليها».

وفي مقال نشرته صحيفة «التايمز» The Times عام ٢٠٠٦، أشار البروفيسور البريطاني أنطوني هاردينج، وهو رئيس المنظمة الأوروبية لعلوم الآثار إلى هذا الاكتشاف بأنه «مضحك وغريب»، والأكثر من ذلك صرح أحد المتخصصين من جامعة ميتشيغن، وهو براين ستوارت Brian Stewart قائلا: «هناك قلق بأن د. عثماناجيتش وفريقه قد قاموا بنحت جوانب من هذه التلال الطبيعية بشكل يوهم بأنه بناء هرمي». وهذا جزء بسيط من جملة تقارير وتصريحات صدرت عن مؤسسات بحثية وأكاديمية متخصصة في علوم الآثار، والتي لا تؤيد نظرية د. عثماناجيتش واعتبرت هذا الشكل الهرمي من صنع الطبيعة.

وردًا على هذه التعليقات يقول د. عثماناجيتش: «بعض العلماء يصرحون أنه لا يمكن أن يعود بناء الأهرامات لفترة زمنية طويلة جدا، رغم أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة القدوم للمنطقة لغايات البحث والدراسة، وأخذ العينات وإخضاعها للفحص المخبري، وكل ما يرددونه مجرد آراء شخصية، والعلم لا يستند إلى رأي شخصي كما هو معلوم».

وعلى الرغم من ذلك كلّه، لم يولِ د. عثماناجيتش اهتماما لكل تلك الآراء المعارضة، وحرص على فتح الأبواب لكل الباحثين والمتخصصين للقدوم وإجراء البحوث والقياسات اللازمة، وقام بتوجيه دعوات، وتنظيم مؤتمر سنوي يجمع كل ذوي الاختصاص،

**أثار هذا الاكتشاف وما زال، جدلا واسعا في أروقة المؤسسات العلمية والبحثية المتخصصة في العلوم الجيولوجية والأنثروبولوجية والحضارات والتاريخ**

الأمر الذي ساعد على إيجاد أطراف داعمة لفكرة اكتشاف أهرامات البوسنة من قبل جهات مستقلة وذات اعتماد أكاديمي معترف به، وفي هذا الصدد ذكر د. سام أن: «معظم المؤسسات العلمية المتخصصة بالهندسة قامت بتحليل عينات كانت قد أخذت من القشرة التي تغطي هرم الشمس، فوجدت أنها مصنوعة من مادة الكونكريت الصلب الذي تمت صناعته بتقنية عالية بشكل يجعله يتفوق على مادة الكونكريت المستخدم في القرن الحالي، ومن هذه المؤسسات جامعة البوليتكنيك في تورينو في إيطاليا Politechnico di Torino، ومعهد جوبليمر Geoplymer Institute، بالإضافة إلى معاهد علمية موجودة في التشيك وسلوفاكيا والبوسنة».

أما بالنسبة إلى قياس اتجاهات البناء الهرمي والتحقق من دقته، فقد قام المعهد البوسني لعلم الجوديسيا - وهو فرع من فروع الرياضيات Bosnian Institute for Geodesy - بقياس درجة توجه سطح هرم الشمس الذي يواجه الشمال باستخدام أدوات وأجهزة علمية دقيقة، فوجدوا أن الاتجاهات دقيقة مع خطأ طفيف بفارق ١٢ ثانية، وهو أقل خطأ تم تسجيله لغاية الآن، الأمر الذي يجعل اتجاهات هرم الشمس أكثرها دقة مقارنة بأهرامات العالم الأخرى».

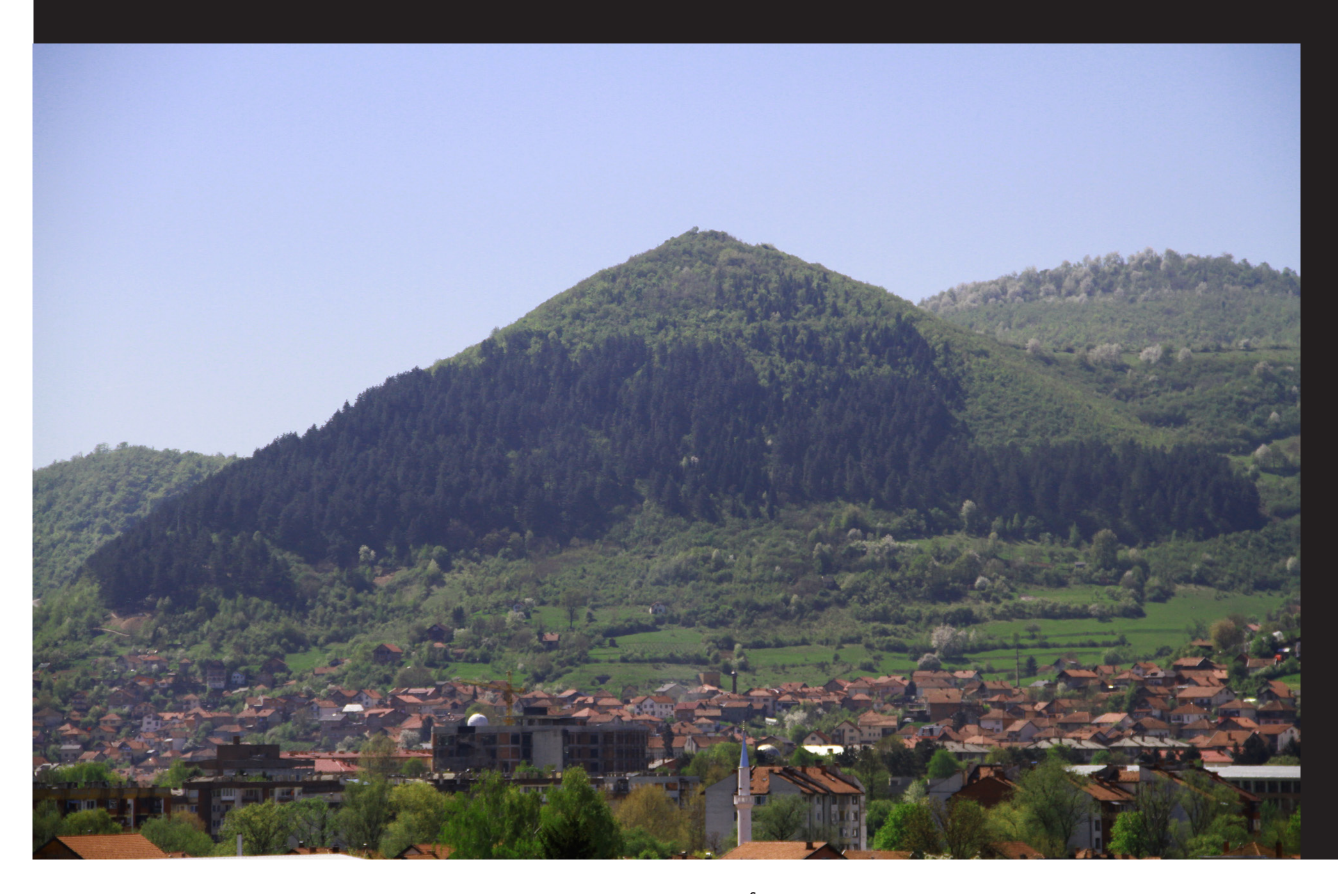
وأضاف: «هناك عالمان من معهد سشميد من روسيا Russian Acacemy of Science Schmidt Institute of physics of the Earth قاما بمقارنات ما بين أهرامات البوسنة وأهرامات مصر، فوجدا تشابها كبيرا في الشكل والقيم المتعلقة بالأرض وتركيبتها. كما أن هناك الكثير من المختبرات الموجودة في أوروبا، وخاصة ألمانيا وبولندا والسويد وأوكرانيا قامت بتحليل النشاط الإشعاعي لعنصر الكربون الموجود في العينات المأخوذة من منطقة الأهرام لتخمين عمرها، فوجدوا أنها تعود إلى ثلاثين ألف سنة مضت. بالإضافة إلى عدد كبير جدًّا من الباحثين المستقلين في مجال الطاقة الكهربائية والطاقة الكهرومغناطيسية، والذين توافدوا



يتوافد كل عام على أهرامات البوسنة أعداد متزايدة من المتخصصين والسواح



إن أهم ما يميز أهرامات البوسنة والمنطقة المحيطة بها هو أنها الأقدم والأكبر حجما على مستوى العالم، واكتشافها رافقه اكتشاف شبكة أنفاق يعود عمرها لحضارات ما قبل التاريخ



على المنطقة للقيام بالقياسات بأجهزتهم الخاصة وجمع القراءات اللازمة، والتي أظهرت بكل وضوح أن الترددات الطاقية في المكان الذي يقع فيه هرم الشمس عالية جداً، وقيمتها لا تشبه أية قراءة مأخوذة من مناطق جبلية طبيعية أخرى».

## المشروع ليس ربحيا

بعد الإعلان عن اكتشاف أهرامات البوسنة عام ٢٠٠٥، والتي ظلت لتكون شاهدة على وجود حضارات ما قبل التاريخ في المنطقة، كان لابد من إنشاء مؤسسة لرعاية هذا الاكتشاف بالشكل الصحيح، لذلك قام د. سام بتأسيس منظمة غير ربحية من أهم أهدافها الإشراف على عمليات الكشف والتنقيب بشكل آمن ويحافظ على قيمة ما تحتضنه هذه المنطقة من آثار، مع مراعاة المعايير المعتمدة في الدراسة والبحث العلمي، كما سعى د. سام من خلال منظمته هذه بأن تكون منطقة أهرامات البوسنة منصة يلتقي فيها العلماء والباحثون لتشجيع تبادل الأفكار والأبحاث والنظريات الحديثة المطورة.

تشرف المنظمة على مشروع يضم أهرامات البوسنة والمنطقة المحيطة بها، وهي سبعة أهرامات، ولكن الحديث يدور الآن حول ثلاثة منها فقط، هي: هرم الشمس وهو أكبرها، وهرمان آخران داعمان للهرم الأكبر، أطلق عليهما: هرم القمر وهرم التنين، ويبعد كل واحد منها عن الآخر مسافة ٢،٢ كيلومتر، وتشكل جميعها مثلثا زاويته ٦٠ درجة، طول قاعدة هرم الشمس يبلغ ٢٢٠٠ متر، والجزء الأيسر منه يمتد نحو الوادي عميقا، فيجعل قاعدته تتسع لتبلغ ٣٦٠٠ متر. أما ارتفاعه المشهود له، فيبلغ ٢٢٠ مترا، ويتوقع بعد استمرار عمليات الكشف والتنقيب أن يصل ارتفاعه إلى ٣٦٠ مترا، يليه بالارتفاع هرم القمر الذي يبلغ ١٩٠ مترا.

إن أهم ما يميز أهرامات البوسنة والمنطقة المحيطة بها على حد قول د. سام: «أنها الأقدم والأكبر حجما على مستوى العالم، واكتشافها رافقه اكتشاف شبكة أنفاق يعود عمرها لحضارات ما قبل التاريخ، وهي ما زالت مفعلة من ناحية الغاية التي وجدت لأجلها، وهي توليد الطاقة الحيوية».

## أهمية عالمية

في الوقت الحالي يعمل د.عثماناجيتش وفريقه على التنقيب التدريجي عن شبكة أنفاق تحت سطح الأرض، وذلك باستخدام أدوات بدائية جدًّا تعتمد على الجهد البشري تجنبًا لأية انهيارات قد تحدث أثناء التنقيب، علما أن طريقة الحفر وهندسة المكان تشير إلى أن بناة هذا الهرم كانوا على درجة عالية من الوعي والمعرفة، وهذا ما أشار إليه بقوله: «لقد استعان البناة القدماء بتقنيات ومعارف لم يتوصل إليها بعد الإنسان المعاصر، وأكثر ما يميز هذه الحضارة هي معرفتها القوية بإمكانيات كوكب الأرض، والتمكن من استخدام مكوناته الطبيعية، واستغلال البيئة المحلية وما تحتويه استغلالا أمثل لتحقيق مآرب لغاية الآن لم يتم التوثق منها علمياً».

وباستخدام أجهزة مسح ضوئية متقدمة، تم رسم مسار شبكة الأنفاق، وهي تقع بالقرب من الهرم الأكبر، ويبلغ طولها ٢٤٠ مترا، فبدأ د. سام أعمال التنقيب والحفر في ممرات تحت سطح الأرض بارتفاع من خمسة أمتار إلى ٢٥ مترا، ابتداء من أبعد نقطة عن الهرم، حيث تبعد ٢٫٢ كيلو متر عن قاعدة هرم



نقوم بتمويل عمليات التنقيب والبحث من مردود النشاط السياحي والتبرعات، علما بأننا لا نتلقى أي دعم حكومي



شبكة أنفاق تقع بالقرب من الهرم الأكبر ويبلغ طولها ٢٤٠ مترا

الشمس. ولقد تم حفر جزء بسيط من هذه الأنفاق التي أطلق عليها اسم Ravne Tunnel، معتمدين على التبرعات الخارجية المتواضعة، ويرجو د.سام أن يتحول هذا المشروع إلى مشروع عالمي، لأنه يؤمن أن: «الفائدة ستعود على البشرية كلها إن حظي هذا المشروع بالاهتمام العلمي الكافي».

ومن أشكال الفائدة التي يشير إليها د. سام السمة المساعدة على التشافي التي تتمتع بها الأنفاق من خلال حالات شفاء مسجلة لمن قام بزيارتها لفترة من الزمن والمكوث فيها لمدة لا تقل عن نصف ساعة، وذلك بسبب اجتماع عدة عوامل في البيئة المحيطة، والتي تساعد الجسم على التشافي الذاتي، ومنها توفر نسبة الأوكسجين المثالية لتنفس الإنسان تحت الأنفاق، رغم أن هذه الظاهرة تعارض ما هو متعارف عليه علميا، وهذا ما يبدو جليا من تعليق



> لقد استعان البناة القدماء بتقنيات ومعارف لم يتوصل إليها بعد الإنسان المعاصر، وأكثر ما يميز هذه الحضارة هي معرفتها القوية بإمكانيات كوكب الأرض

د. سام: «باكتشاف الأهرامات لا وجود للمنطق في البوسنة»، حيث إن نسبة الأوكسجين تزداد كلما توغل الزائر عمقا في الأنفاق، كما أن ارتفاع الأيونات السالبة في المكان تساعد الخلايا الحيوية على التشافي والتجدد، حيث تصل قيمتها إلى ٤ آلاف في كل سم مربع. أما تردد المجال الطاقي في الداخل، فهو التردد ذاته الذي يحتاجه الدماغ لاختبار حالة التأمل والسكون والاسترخاء، والتي يطلق عليها مصطلح (موجات ألفا)، وهي الحالة الطبيعية التي يفترض أن يعيشها البشر بعيدا عن التوتر الناتج عن الحياة العصرية. ومع الاستمرار بالأبحاث والدراسات في هذه التفاصيل، يبدو للمرء أن العيش تحت سطح الأرض أكثر أمنا من العيش فوقها لخلو الأنفاق من أيّ أعداء قد تهدد صحة الإنسان.

## حراك بدافع المعرفة

قام د. سام بكل ما من شأنه أن يرفع مستوى الوعي فيما يتعلق بأهرامات البوسنة من خلال تنظيم مؤتمرات علمية يلتقي فيها العلماء من كافة التخصصات، وتوجيه دعوات إلى مشاهير العلماء لزيارة المكان، ونشر صورهم للفت الأنظار إلى القيمة العالية لهذا الاكتشاف، إلى جانب السياح ومحبي الاكتشافات الجديدة، حيث وصل عدد الزوار (منذ عام ٢٠٠٥ إلى ٢٠١٨) ٥٠٠ ألف زائر لهذه المنطقة الهادئة التي حظي شبابها وشاباتها بفرص عمل وآفاق جديدة، ليس على الصعيد العلمي فحسب، بل السياحي والاقتصادي أيضا.

وإن تجولت في أركان البلدة وأنت برفقة د. سام، فلابد أنك ستلقى ترحيبا واسعا، وستلاحظ إشارات التقدير والمحبة إجلالا لجهوده التي ساهمت في تغيير المجتمع المحلي، وهذا الجانب بالفعل يشغل حيزا في الخطط الذي يعد لها د. سام، وقد عبر عنه صراحة بقوله: «عدد السياح والزوار لهذه المنطقة ازداد في السنوات الأخيرة، وهم لا يجذبون الوفرة المالية فقط، بل يحضرون معهم الأفكار الجديدة والطاقة الإيجابية مما ينعكس على إبداع الأهالي».

ولا يقتصر التأثير على المنطقة وأهلها، بل كان التأثير الأكبر على الحراك العلمي في علوم الآثار والحضارات، لأن هناك ظواهر تم اختبارها، وهي تطرح تساؤلات لم تجب عنها فرضيات علمية حالية كادت أن تكون مسلمات، وهنا يكمن التهديد الذي شعرت به بعض المؤسسات البحثية والعلمية المشهورة عالميا، حيث تبدو بعض النظريات العلمية عن الطبيعة والآثار وتاريخ الإنسان الأول عاجزة، وتحتاج لمراجعات جدية بعد هذا الاكتشاف الكبير.

أبرز الأبحاث التي أجريت في المنطقة، ما قام به المهندس جوران مارجانوفيك Goran Marjanovic -، وهو باحث في الهندسة الكهربائية - وهو قياس المجال الطاقي في أعلى قمة أكبر الأهرامات، فوجد أن القراءة تصل إلى ٢٨ كيلو هيرتز وهي قيمة عالية جدا. ومع الاستمرار في البحث والدراسة، وجد المختصون أن الهندسة التي يقوم عليها بناء الهرم كفيلة بأن تجمع الطاقة وتضخمها وترسلها إلى الأعلى في اتجاه السماء على شكل موجات لولوبية، يضيق مجالها في مناطق ليصل إلى نصف متر، وبعدها يتسع مجالها ليصل إلى ٢١ مترا، وهذا الشكل يجعل من الموجات الكهربائية أسرع من الضوء في الانتقال بشكل فائق جدا، وهذا ما يؤكده د. سام، عندما طرح فرضيته التي تقول: «إن بناة الهرم قاموا بتأسيس قاعدة كونية للاتصال مع الشمس التي قد تعتبر بوابة لعوالم أو مجرات أخرى».

## طاقة إيمان

استطاع د. سام جذب أعداد متزايدة من المتطوعين للعمل داخل المشروع في عمليات الكشف والتنقيب، ولا يشترط في المتطوع المعرفة العلمية في الجيولوجيا، بل يكفيه ما يحمله في قلبه من انتماء لهذا الكوكب الذي يخبئ في حناياه الكثير من الأسرار، التي





عدد السياح والزوار لهذه المنطقة ازداد في السنوات الأخيرة، وهم لا يجذبون الوفرة المالية فقط، بل يحضرون معهم الأفكار الجديدة والطاقة الإيجابية مما ينعكس على إبداع الأهالي

لو كشف عنها الحجاب لساعدت البشرية على القيام بقفزات كبيرة في الوعي الإنساني في وقت قصير، وهذا ما يؤمن به د. سام ويدعو له، حيث يقوم بتنظيم برنامج خاص بالمتطوعين في صيف كل عام، يضم المئات من الذين يساعدون في عمليات التنقيب وحفر الأنفاق وتجهيز المنطقة المحيطة حولها، معبرا عن امتنانه الكبير لهذا التوجه قائلا: «أشعر أني أكثر إنسان مبارك على هذا الكوكب، لأني ألتقي بالمئات من الخبراء في عدة مجالات، وآلاف من الزوار وكلهم يعبرون عن دعمهم لهذا المشروع بكل الأشكال الممكنة».

من يلتقي بدكتور سام لابد أن تتجلى أمامه رؤية هذا الباحث الذي لا يكل ولا يمل من سرد كل تفاصيلها، ذلك أنه لا يتوقف عن الحديث عنها في كل مكان يذهب إليه، ويشاركه هذه الرؤيا المجتمع المحلي الذي يلقي السلام عليه بحب أثناء مروره العابر، فهو الذي قام بتحويل وادٍ مهجور بالقرب من الباب الأمامي للأنفاق إلى منتزه جميل ومنظم يرتاده السكان المحليون والزوار مجانا كممتلكات خاصة متاحة للاستفادة العامة لمدة مئة عام.

ساهم في بناء هذا المنتزه عدد كبير من المهتمين في البحث العلمي في مجال الطاقة والأرقام والتأمل والروحانيات، واستلهموا

بعـض المعــارف الــتي بقيـت مــن حضـارات مـا قبـل التاريـخ، وأهمهـا اسـتخدام علـم الأرقـام في توزيـع مكونـات طبيعيـة مـن البيئـة المحلية بشـكل يعـزز مـن طاقـة المكان، مـا ينعكـس علـى طاقـة الإنسـان الـذي يرتـاد هــذا المــكان، أو عــلى طاقـة النبــات والأشــجار الــتي ســتزرع في هــذا المــكان، وفيمـا يتعلــق بهـذا

يقـول د. سـام: «لابـد أن نحـرص علـى الاسـتفادة مـن طاقـة الأهرامات والتعلــم مــن البنــاة القدمــاء، فأهرامـات البوسـنة قـد بنيـت لغايات الاتصــال والتشــافي الــذاتي وتحســين البنيــة الخلويــة للمــاء والطعــام، وتحسـين المجـال الطـاقي لجسـم الإنسـان، وتعزيـز الحاسـة الروحانيـة للإنســان ولغايــات أخــرى».

> أشعر أني أكثر إنسان مبارك على هذا الكوكب، لأني ألتقي بالمئات من الخبراء في عدة مجالات وآلاف من الزوار وكلهم يعبّرون عن دعمهم لهذا المشروع بكل الأشكال الممكنة




وفي إحـدى زوايـا المنـتزه اجتمـع عـدد مـن الفنانـين المحترفـين الذيـن قدمـوا مـن أقطـار أوروبيـة مختلفـة لنحـت رسـوم ورمـوز تعـود لحضـارات قديمـة عـلى أنصبـة كانـت تسـتخدم في تعزيـز طاقـة المكان. وبهـذه الأفكار، قـام د. سام بشـكل فعلي بتمثيـل المعـارف القديمـة في المنـتزه، ليتـم اختبارهـا مـن قبـل الـزوار، وكي تصبـح جـزءا مـن وعيهـم المتنامـي.

وعـلى الرغـم مـن الدعـم الـذي يتلقـاه د. عثماناجيتـش مـن السياسـيين المحليـين والإداريـين التابعـين للحكومـة مـن خـلال السـماح لـه بالاسـتمرار في عمليـات الحفـر والتنقيـب، إلا أنـه يواجـه تحديـات جمـة في جمـع الدعـم المـالي الـكافي للقيـام بعمليـات التنقيـب بالشـكل المطلـوب، ناهيـك عـن مسـتلزمات إدارة وصيانـة المكان، حيـث يتطلـب الأمـر عمالـة ومـواد لاسـتخراج مـا في داخـل الأنفـاق وبنـاء الأعمـدة الخشـبية وتوزيـع الإضـاءات الداخليـة. ولإيمانـه بـأن الحريـة الماديـة تفتـح البـاب دومـا أمـام الحريـة الفكريـة، فإنـه يسـعى حاليـا إلى تحويـل جـزء مـن هـذا المـكان إلى منتجـع يرتـاده كل مـن يؤمـن بالتشـافي الـذاتي بمسـاعدة طاقـة الكـون ليعـود عليـه بالربـح الـكافي، وصرفـه عـلى عمليـات البحـث والتنقيـب، حيـث يقـول: «نقـوم بتمويـل عمليـات التنقيـب والبحـث مـن مـردود النشـاط السـياحي والتبرعـات، علمـا بأننـا لا نتلقـى أي دعـم حكومـي».

وعـلى الرغـم مـن كل التحديـات، مـا زال عمـل د. سـام عثماناجيتـش مسـتمرا دون أي توقـف، لأن روحـه الـتي تتـوق إلى المعرفـة أوسـع مـن أن يطوقهـا مـكان أو أن تحبطهـا تحديـات.


مؤمنون
بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

إعداد:
نزار الفراوي
إعلامي مغربي

# صناعة الكتاب العربي... إكراهات وتحدّيات وأعطاب السوق؟

الكتاب سيرة الكلمات... إنصات العالم لنبض الإنسان.. خيالات مبدع، حفريات باحث، تأملات مفكر، لكنه مهما حلق في غياهب التجريد، لا ينسلخ في حقيقة تداوله بين الأيدي، وتنقله عبر الأماكن، عن كونه سلعة مسكوكة بقسيمة سعر تراود زبونها في سوق لها خصائصها، كواليسها، وأعطابها الخاصة في عالم عربي، يشغل فيه المنتج والمنتوج الثقافي هامش الهامش.

المقارنة قاسية في مخرجاتها. في الغرب، يبرز الكتاب سليل صناعة ثقافية قائمة الذات، وقطاع إبداعي مجدد يكتسي طابع الاستقلالية والنمو الذاتي القائم على هندسة موضوعية لخريطة العرض والطلب، ويعيش ترحاله عبر الآفاق في حضن مقاولات مهيكلة، ويتأقلم مع تغير العادات القرائية وأذواق الأجيال، ووسائط التواصل بين الشعوب. أما في العالم العربي، فإن استثناءات قليلة تستوفي هذه المعايير، ولا تحجب القاعدة الصارخة لسوق غير مهيكلة، ضعيفة الإنتاج، متعثرة التسويق، بل تدين في بقائها ببعض البلدان لسياسات دعم عمومي



كسولة منتهاها إبقاء المريض في حالة موت سريري.

أما المسؤول، فبالتأكيد ليس جهة مفردة. إنه وضع بنيوي لحلقات مختلة العلاقة، يسائل مختلف المتدخلين في التنشئة الثقافية، وصياغة المشروع التربوي الذي لا يفرز مواطنا متشبعا بصحبة الكتاب، يصبح الزبون الملك الذي يجر قاطرة صناعة الكتاب ورواجه. بقدر ما يسائل السلطات العمومية التي لا يتحصل لها الوعي الكافي بأهمية الصناعات الثقافية في تغذية المشروع التنموي الوطني، وضمنها صناعة الكتاب التي تشكل في البلدان المتقدمة قطاعا لصنع الثروة المادية وغير المادية، وهو وضع لا يخلي سبيل مقاولات النشر والتوزيع التي نادرا ما يقدم بعضها صورة مؤسسة مجددة واستباقية في ممارساتها المهنية ونماذجها الاقتصادية.

لم يجد العالم العربي حلولا للمشاكل التقليدية التي تعترض إنتاج الكتاب وترويجه، سواء على الصعيد القطري، أو البيني. يشكو قطاع النشر من ارتفاع تكاليف التوزيع خارج الحدود، في غياب سياسة عربية منسجمة وتبادلية توسع حجم السوق أمام الفاعل في النشر والتوزيع. تتواصل معاناة قطاع من المبدعين والمفكرين، وبالتالي الناشرين، من الرقابة في تجليها السياسي والفكري. يتفاقم نزيف المكتبات العمومية والخاصة، وتستمر هجرة الطفل واليافع العربي إلى العوالم الافتراضية للشاشة الإلكترونية بمختلف أنواعها. تتغول شبكات القرصنة

التي تضرب في الصميم صناعة الكتاب، على مستوى الجودة والمصداقية، وكذا القدرة على البقاء. وإلى هذه التحديات التقليدية، يرتسم أمام حركة إنتاج الكتاب وترويجه، تحدٍّ أعظم تكرسه تحولات العالم الرقمي وعصر الكتاب الإلكتروني الذي قطعت دور النشر في العالم المتقدم أشواطا في ربح رهاناته، تكيفا مع الوسائط الجديدة لاستهلاك الثقافة والمعرفة والإبداع.

كيف يمكن على ضوء هذه العناوين المقتضبة تشخيص الواقع الحالي لصناعة الكتاب في العالم العربي؟ وأين تتحدد المسؤوليات عن المصاعب التي يعيشها قطاع النشر والتوزيع، خصوصا على مستوى السياسات العمومية من جهة؟ وكيف يمكن صياغة نماذج اقتصادية ناجعة لمؤسسة نشر في ظلّ تحديات متراكمة ومستجدة؟ وهل يمكن التعويل على حركة تضامنية واندماجية بين الناشرين في العالم العربي في اتجاه إحداث تغيير جوهري على مستوى سياسات إنقاذ تؤمن للقطاع الانخراط في عصر الصناعات الإبداعية وخوض رهان الرقمنة؟ ثم هل تؤدي معارض الكتاب العربية الدور المنشود في إيجاد متنفس لرواج الكتاب؟

تلك أسئلة متناسلة لسؤال أساسي ومحوري هو وضع صناعة الكتاب في العالم العربي، تسلط مجلة «ذوات» الضوء عليها، من زوايا مختلفة ومتعالقة، عبر استقاء آراء نخبة من الفاعلين في قطاع النشر، يجمع جلّهم بين تأليف الكتاب وصناعته.

## الكتاب... دورة اقتصادية بطيئة



فاطمة البودي

مديرة «دار العين للنشر» بمصر

**تعيش معظم دور النشر العربية على إيقاع معاناة اقتصادية شديدة يكرسها واقع المقروئية العربية التي تنخفض معدلاتها إلى درجة الحضيض**

إن صناعة النشر بالعالم العربي تمرّ بحالة من الاختناق الكبير، الذي يتفاقم عاما بعد عام في ظل عدم تبني سياسات ثقافية ذات بعد استشرافي تعنى بتربية النشء على القراءة وتأصيل عادة مصاحبة الكتاب في أوساط التنشئة الاجتماعية في البيوت والمدارس منذ الصغر؛ فالطفل هو بالضرورة قارئ المستقبل، وبالتالي المكون الرئيس في قاعدة استهلاك الكتب وترويج المنتوج الثقافي ككل.

والواقع أن معظم دور النشر العربية تعيش على إيقاع معاناة اقتصادية شديدة يكرسها واقع المقروئية العربية التي تنخفض معدلاتها الى درجة الحضيض. ولا يمكن إغفال أن انتشار منتجات العالم الرقمي والإلكتروني، من وسائل التواصل الافتراضي، إلى الألعاب الإلكترونية، أخذ مساحات كبيرة من أوقات المواطن في العالم العربي على وجه الخصوص، على حساب الأوقات التي كانت تخصص عادة للقراءة، والتي كانت تشكل متنفسا وعامل تحصيل وترفيه في ذات الوقت لجيل بكامله. كما أن ارتفاع أسعار الكتب، حتى مع لجوء مؤسسات النشر إلى تقليص هامش الرّبح، جعل من دورة رأس المال في هذه الصناعة بطيئة جدا، لا تكاد تفي باحتياجات هذه المؤسسات، حتى الناجحة منها والتي تسعى إلى تقديم منتوج متنوع واحترافي. وقد قادت محاولات التغلب على إشكالية انتقال الكتاب بين الأقطار العربية، عدة دور نشر إلى التعاون في إصدار الكتب. وفي هذه الحالة، يتم إصدار نسخ قليلة على صعيد كل بلد. والحال أن هذا التوجه لا يقيم صناعة، لكنه يبقى حلا من الحلول المطروحة لتعزيز حركة الكتاب عبر الحدود، في انتظار تدخلات ذات طابع بنيوي.

أما بالنسبة إلى دور معارض الكتاب، فبالرغم من تراجع مردود هذه المعارض في الأعوام القليلة الماضية بالنظر إلى الأزمات الاقتصادية، والتي هي أزمات عالمية لا تقتصر على العالم العربي فحسب، فإنها تظل المتنفس بالنسبة إلى دور النشر لتغطية التكاليف وتأمين الاستمرار في الإنتاجية.

بالإضافة إلى التحديات التقليدية التي تواجه صاعة الكتاب، انضافت تحديات ورهانات جديدة مرتبطة بالعصر التكنولوجي الجديد، فلمواكبة هذه الموجة، عمدت بعض المؤسسات إلى التعاون مع شركات تعمل على تحويل الكتب الورقية إلى كتب صوتية ورقمية، لكن تظل هذه الوسائل غير واضحة في نتائجها. بالتأكيد، ستأخذ هذه الصيغ الجديدة للنشر حيّزا كبيرا في الأعوام المقبلة، لكن حتى الآن، لا نستطيع التعويل عليها في تحقيق موارد مهمة.

إن الحديث عن العوارض الاقتصادية، لا ينبغي أن يحجب مشكلا مزمنا يعرقل حركة الكتاب، ألا وهو الرقابة على الكتب، التي تعد، بلا شك، فاعلا سلبيا بالنسبة إلى هذه الحركة. وكثيرا ما يتم حجز الكتب من معارض بعض البلدان، ومكتباتها. الرقابة سيف مسلّط على حرية الإبداع وبالتالي صناعة الكتاب.

# التحديات ليست عائقا لخوض رهان الصناعات الثقافية



د. جمال بوطيب

كاتب ورئيس مؤسسة «مقاربات» بالمغرب

**إن صناعة الكتاب في العالم العربي تظل موضوع إشكال، بدءا من وسائل إنتاجه الغرافية والتيبوغرافية والرقمية، وصولا إلى طبيعة المنتج وفكره**

لا يمكن توحيد الحكم على واقع صناعة الكتاب في مختلف الدول العربية، ولعل ذلك راجع إلى أسباب منها:

- إمكانيات الجهة المصنعة ماديا ومعنويا.
- السياسة الثقافية للمؤسسة المصنعة للكتاب.
- السياسة الوطنية في التعامل مع الكتاب، باعتباره سلعة لها خامها ومنتوجها

وآليات تصنيعها ووسائل تسويقها وإمكانيات مقتنيها. فالكتاب الورقي يختلف من طبعة عادية، إلى فاخرة إلى صوتية، إلى إلكترونية، وهي كلها صيغ تحتم طبيعة التعامل معه انطلاقا من الحامل.

إن صناعة الكتاب في العالم العربي تظل موضوع إشكال، بدءا من وسائل إنتاجه الغرافية والتيبوغرافية والرقمية، وصولا إلى طبيعة المنتج وفكره، فطابع الكتاب ليس هو ناشره، والناشر الممتهن ليس هو المؤلف الناشر، وكتاب الطفل ليس هو الكتاب الفكري، والكتاب الأكاديمي ليس هو الكتاب الجميل. كل هذه الاختلافات تجعل من صناعة الكتاب في العالم العربي مدعاة للسؤال، ولعل مسألة التخصص في صنف طباعي معين، تأتي في مقدمة الأشياء المستفهم عنها.

هذا الوضع يجعل المسؤوليات تتضح وتؤول إلى من يقف وراءها، فالسياسات العمومية على مستوى الدعم والنشر لها أهدافها المضمرة والمعلنة، ولها شروطها ودفاتر تحملاتها التي قد لا ترضي الكاتب أو الناشر، ولا ترضي بالتالي صناعة الكتاب، وبين هذا الرضى وعدمه تظهر الصعوبات التي يحاول كل طرف أن يركبها ليلصق المسؤوليات بالطرف الآخر. ربما هذا ما يفسر التضامنيات والاندماجيات المهنية والحرفية بين الناشرين، والتي لا تخلو بدورها من مرجعيات عقدية ومادية تعرقل العمل الجماعي ليبقى التفكير في النماذج الاقتصادية الناجعة، هو الرهين بإنقاذ الصناعة مما تتخبط فيه على مستوى تراكم التحديات.

إن تعدد التحديات وتنوعها، وقلة الإمكانيات ومحدوديتها، لا ينبغي أن تظل أسبابا معرقلة للتفكير في الأحسن، ولا سيما على مستوى خلق الإجابات الآنية والمستقبلية، وإيجاد الحلول المؤدية إلى الانفتاح على المستقبل المأمول، نقصد بذلك أنه في غياب التخصص في المؤسسات الناشرة يمكننا خلق الأقسام والشعب المتخصصة، وفي غياب الدعم الكافي ماليا يمكننا المراهنة على الكتاب الناجح (سواء أكان متوجا أو فريدا في مضمونه)، وعلى الكاتب الناجح (سواء أكان نجما أو اسما رمزيا أو شخصية عامة)، كما يمكننا إلى جانب هاتين الاستراتيجيتين أن ندمج فكر الاقتصاد (الشركة) مع فكر الثقافة (المؤسسة) بخلق الفرص العلمية ودعم الاشتغال الأكاديمي.



هذه الإجراءات المصوغة هاهنا: الفكر المندمج والمراهنة الإسمية والمهننة الكتابية، هي مرجعيات نتبناها في «دار مقاربات للنشر» لتجاوز الطرق في باب الإحسان، والوقوف على عتبة الانتظار من أجل الولوج إلى حوش الصناعات الثقافية من باب صناعة الكتاب موضوع هذه الورقة.

## الصيغة التقليدية للمعارض لم تعد نافعة لسوق الكتاب



فهد توفيق الهندال

ناقد ومدير «دار الفراشة للنشر» بالكويت

**ماتزال الرقابة تشكل هاجسا للكاتب والناشر، بالرغم من وجود بدائل لتداول الكتاب الورقي عبر وسائل الكتاب الإلكتروني والرقمي والصوتي**

لا يمكن تشخيص صناعة النشر في الوطن العربي بموجز أو اختصار، ولكن يمكن القول بأننا نشهد حاليا تنمية واسعة على مستوى دور النشر المحلية بالكويت والعربية محركها في ذلك الإقبال الكبير على النشر والقراءة، وهو ما انعكس على تزايد حمى تأسيس دور النشر والمكتبات، ودخول الجميع حلبة المنافسة، حتى أن دور النشر العريقة بدأت تجدد جلدها وتراهن على استقطاب أسماء جديدة للنشر.

أعتقد أن الصعوبات التي يواجهها القطاع تتلخص في مسألتين مهمتين؛ الأولى سوق النشر الذي بدأ يتضرر حاله حال بقية الأسواق والصناعات بالحالة العالمية المتأرجحة بين الاستقرار وعدمه، لكون الكتاب بات سلعة تجارية يحظى ببورصة خاصة به لا تنفصل عن الحركة التجارية العالمية، ما يعني أننا نشهد وضعا غير آمن محفوف بالمخاطر الواسعة إضافة لتضارب صناعة الكتاب مع مصلحة البيئة العالمية، ما يعني أهمية البدائل عن الورق للحفاظ على الأشجار وقيمتها الحيوية في التوازن البيئي. المسألة الثانية، الرقابة، ماتزال تشكل هاجسا للكاتب والناشر، بالرغم من وجود بدائل لتداول الكتاب الورقي عبر وسائل الكتاب الإلكتروني والرقمي والصوتي، ولكن لا يمكن الاستغناء عن أهمية الكتاب الورقي لكونه صناعة ثقيلة وتمتد إلى قرون، لهذا على الرقابة أن تتكيّف مع الوضع العالمي الجديد المتسم بالانفتاح على كل جهاته وضفافه، وأن حرية التفكير والإبداع سمة الإنسان.

أنا مقتنع أن السوق تحتمل أفكارا جديدة باستعمال التكنولوجيا الحديثة والاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي، لما لها من تأثير كبير على مستوى المتلقين والمهتمين بالكتب، وما يرافقها من تسويق وتحديث على مستوى الطباعة والخدمات المرافقة، مع إمكانية الانفتاح على التجارب في السوق العالمية، والاستفادة من خبرات معارض الكتب الدولية من بعضها البعض، مع أهمية تحديد شرائح المتلقين في الفئات المخصصة لهم من النشر، إلى جانب التوجه إلى طباعة الديجيتال المعتمدة على الكمية والنوعية معا، لتقليل خسائر التخزين والشحن لكونهما أكثر ما يواجهه الناشر بعد عملية الطباعة، فكما هو معروف

كلما زادت فترة التخزين، كلما ساهم ذلك في تقليل الإيراد بسبب تضخم نسبة الصرف والاستهلاك.

على مستوى التعاون والتنسيق بين الفاعلين في صناعة الكتاب، نشهد حاليا قيام شراكات استراتيجية بين دور النشر العربية، باختلاف القطر أو الإقليم الذي ينتمون إليه في محاولة لاستيعاب السوق العربية. كما نشهد توجه بعض دور النشر العربية إلى تأسيس توأمة لها في دول أوروبية وأمريكية لتكون بديلا محتملا في حال تغير القوانين واللوائح المنظمة لسوق العمل هنا، ومرونة قيامها هناك، مع اختلاف الوضع الضريبي هناك مقابل الخدمات التي تقدم نظيرا لها، وأيضا تحررا عن سلطة الرقيب واتساع حرية النشر هناك، مع أهمية دخول مضمار الرقمنة والكتاب الصوتي لما له من دور في التسويق ووصول الكتاب إلى المتلقي أينما كان عبر الأجهزة الذكية.

أما بخصوص معارض الكتب، فإنها، بصورتها التقليدية، لم تعد نافعة لدعم سوق الكتاب، بل عليها أن تقفز نحو الحداثة بتطوير ذهنية الإدارات المشرفة عليها، والتفكير خارج الصندوق القديم، فالمتلقي بات اليوم غير محتاج بالأهمية نفسها قبل سنوات؛ فالكتاب بات متاحا له كل يوم وبأية وسيلة دون انتظار المعارض السنوية، إضافة إلى دخول عناصر منافسة على الكتاب تتمثل في ثورة الميلتيميديا ووسائل التأثير الاجتماعي وتنوع الاهتمامات لدى الجمهور، وهذا يثقل كاهل الناشر والكاتب معا في مسألة التسويق والانتشار.

أعتقد أننا مطالبون حاليا بإلغاء الحالة البروتوكولية والرسمية ورعاية الدولة التي ما تزال مسيطرة على معارض الكتب العربية، وإضفاء الحالة الجماهيرية والشعبية والتجارية والاقتصادية التي تدعم الهدف الثقافي للكتاب في نهاية الموضوع.

# صناعة الكتاب والأمن الثقافي



شوقي ريغي

كاتب ومدير «دار فاصلة للنشر» بالجزائر

لأن الأمـن كلّ متكامـل، ومفهـوم لا يتجـزأ، فـلا يمكـن أبـدا الحديـث عـن أمـن اقتصـادي، أو اجتماعـي، لأيّـة أمّـة في غيـاب أمنهـا الثقـافي، ولعـلّ للكتـاب الـدور الأبـرز في الحفـاظ عـلى هـذا الأمـن، بـل إنـه ليمكننـا قيـاس نسـبة التحـضر والتخلـف لأيـة أمـة نسـبة إلى المقروئيـة فيهـا، ومـدى ازدهـار سـوق الكتـاب.

تشـير إحصائيـات مؤسّسـة «الفكـر العـربي» أنّ العـربي يقـرأ بمعـدّل سـتّ دقائـق في السـنة في مقابـل ٢٠٠ سـاعة يقرؤهـا الأوروبي، وبينمـا يقـرأ الإسرائيـلي ٤٠ كتابـا سـنويا، يشـترك ثمانـون عربيـا في كتـاب واحـد في نفـس المـدّة الزمنيـة. وتنـشر دور النـشر العربيـة مجتمعـة مـا يربـو عـن ٥٠٠٠ عنـوان أدبي سـنوي، بينمـا يصـدر في الولايـات المتحـدة وحدهـا مـا يقـارب ٣٠٠ ألـف عنـوان أدبي سـنويا. وحصيلـة الترجمـة إلى العربيـة منـذ الخليفـة المأمـون إلى اليـوم لا تتجـاوز ١٠٠ ألـف عنـوان، وهـو مـا يترجـم إلى اللغـة الإسـبانية في سـنة واحـدة.

الأرقـام مهولـة، والهـوّة سـحيقة، ولكنّهـا معروفـة لـدى العـام والخـاص، ولا يختلـف عليهـا اثنـان، والحديـث عنهـا يـدور منـذ أمـد، ولكـن الواقـع ذاتـه لـم يتحـرّك شـبرا إلى الأمـام.

**تعتبر الذهنية العربية القراءة والكتابة ترفا، وحاجة كمالية، وهي أميل للتمسك بالموروث على حساب الجديد**

مأسـاة الكتـاب في عالمنـا العـربي معقـدة والمسـؤولية عنهـا غـير محـدودة، فهنـاك العامـل التاريخـي. العـرب، يشـتركون مـع الأمازيـغ في هـذا، ظاهـرة صوتيـة، كانـوا، ولا يزالـون مجتمعـا شـفويا يعتمـد عـلى المـروي في اكتسـاب المعلومـة، ونقلهـا، كمـا أن الذهنيـة العربيـة تعتـبر القـراءة والكتابـة ترفـا، وحاجـة كماليـة، وهـي أميـل للتمسـك بالمـوروث عـلى حسـاب الجديـد، فلازلنـا، حـتى الآن، في المعـارض، والتجمعـات الـتي تعـنى بالكتـاب، نجـد أن الإقبـال عـلى الكتـاب القديـم، ومـا يكتـب حولـه مـن نقـد، وتحليـل، وهوامـش، لا يقـاس بالإقبـال عـلى الكتـاب الجديـد، والأدبي منـه عـلى وجـه الخصـوص. ويحمـل الإعـلام جـزءا كبـيرا مـن المسـؤولية، فـأداؤه أقـلّ بكثـير مـن المتواضـع، وإن وجـد، فـلا يتعـدى المجامـلات، وخدمـة المصالـح، والعلاقـات الشـخصية.

إن إحـداث تغيـير في الواقـع بهـذه المعطيـات يحتـاج إلى فهـم صحيـح، وإدراك عميـق لفداحـة المشـكلة، ونتائجهـا الوخيمـة الحتميـة الـتي تتخبـط فيهـا اليـوم، وأقلّهـا هشاشـة المجتمعـات، تفـشّي الفسـاد، وتنامـي الاسـتغلال، وكـذا سـبر النتائـج الـتي تنتظرنـا عـلى المديـن القريـب والبعيـد، والـتي سـتكون أكـثر شراسـة ومأسـاوية، ثـم تقديـم التضحيـة اللازمـة.



# السياسات العمومية في قفص الاتهام



فتحي البس
كاتب ومدير «دار الشروق للنشر والتوزيع» الأردن

**وجدت الرقمنة في دول العالم الأول مكانا لها. أما في بيئتنا العربية، فلا زالت متخلفة رغم وجود بعض النماذج القليلة الناجحة**

الواقع الحالي لصناعة النشر في العالم العربي صعب جدا، يكاد الكثيرون من العاملين في هذه الصناعة أن يفقدوا الأمل والكثيرون يخرجون منها، أو يفكرون بالخروج ما عدا الدخلاء على هذه الصناعة من قراصنة الكتب والتجار، الذين لا يحملون رسالتها النبيلة، ويسعون فقط إلى تحقيق الربح بإنتاج هابط المستوى يفسد الذائقة الفنية، ويخلو من المعرفة ويستجيب فقط للعناوين البرّاقة التي تجلب قرّاء أنهكتهم ظروفهم الاقتصادية والسياسية، ويتعاملون مع هذه العناوين كساندويشة سريعة، وإلى ما تطلبه لجان الشراء في المعارض والمؤسسات، التي لا تدقق في المحتوى، ولا تريد بذل جهد وتسأل عن سنة الطبع فقط، لذلك يجد الناشر حامل الرسالة نفسه في وضع شديد الصعوبة.

يضاف إلى ذلك، أن العديد من الدول لا تؤمن بأهمية الثقافة والمعرفة، ولا تدرك أهمية الصناعات الثقافية عموما، وصناعة النشر خصوصا في التنمية المستدامة وبناء الإنسان معرفيا وثقافة عامة واجتماعيا. الكثير من الدول لا يعرف المسؤولون فيها شيئا عن اقتصاديات المعرفة. فمعظم الدول تضرب صفحا عن أدبيات العالم، وخطاب اليونسكو ووثائق الأمم المتحدة، التي تنص على أن الصناعات الثقافية، حامية الهوية الوطنية، يجب أن لا تترك لاقتصاديات السوق في الدول عموما، وفي الدول النامية خصوصا، بل يجب دعمها ورعايتها على كل الصعد، ماليا وتوعية للمجتمع.

إن مصاعب قطاع النشر والتوزيع في الدول العربية تكاد تكون مشتركة وأهمها: القرصنة والاعتداء على حقوق المؤلف، تدني الدخل وارتفاع كلف الحياة وبذل المواطن جهودا مضنية لتأمين حياته وعائلته، حيث لا يظل وقتا للقراءة لعمله لساعات طويلة وربما في عدة وظائف ليلا ونهارا، عدم إمكانية انتقال الكتاب بين الدول بسهولة بسبب الرقابة وارتفاع كلفة الشحن والتخليص، وارتفاع كلف المشاركة في المعارض العربية، حالة الضياع الناجمة عن تراجع الحياة الفكرية والسياسية. منافسة وسائل الإعلام المرئية ووسائل التواصل الاجتماعي على شبكة الأنترنيت التي تقدم معرفة إخبارية وبرامج سريعة وتسلية رخيصة الثمن، وانتشار القرصنة الإلكترونية على نطاق واسع للكتب الأكثر انتشارا ومبيعا، وأحيانا أخرى، تقوم مواقع وأفراد ومؤسسات بإتاحة الكتب إلكترونيا دون حق.

وبالتالي، فإن الدول مطالبة بوضع سياسات عامة تعالج الصعوبات الأساسية الواردة أعلاه، وللأسف لا نجد هذه السياسات.

إن كل دار نشر هي مصنع للمعرفة، وكل كتاب، مشروع مستقل. على كل دار نشر دراسة كل مشروع بدقة، من حيث الجودة والأسواق والجدوى الاقتصادية، انطلاقا من بلدها وإمكانية تجاوز حدود هذه البلدان. ربما يكون الائتلاف والشراكة أحد أهم الحلول، لكن اختلاف الدول والبيئة

والسياسـات لا يشـجع عـلى ذلـك. ربمـا في مسـتقبل الأيـام، يجـد النـاشرون حلـولا إبداعيـة. أمـا الآن، فـلا بديـل عـن دعـم الـدول لصناعـة النـشر.

والواقـع أنـه يصعـب التعويـل عـلى حركـة تضامنيـة واندماجيـة بـين الناشريـن العـرب لاختـلاف الظـروف والقوانـين والسياسـات. أمـا الرقمنـة، فهـي قضيـة مختلفـة، وربمـا مـن خلالهـا تكـون حلـول جزئيـة، الرقمنـة في دول العالـم الأول ربمـا وجـدت مكانـا لهـا. أمـا في بيئتنـا العربيـة، فـلا زالـت متخلفـة رغـم وجـود بعـض النمـاذج القليلـة الناجحـة.

أمـا بخصـوص معـارض الكتـب العربيـة، فتـكاد تكـون المتنفـس الأمثـل لعـرض المنتـج الثقـافي، وتسـويق الكتـاب والوصـول إلى القـارئ، ولكنهـا للأسـف، بالارتفـاع المتواصـل لكلفـة المشـاركة رسـوما وشـحنا وإقامـة وتذاكـر سـفر وتراجـع المبيعـات فيهـا، أصبحـت لا تحقـق الهـدف لـدى معظـم دور النـشر. هنـاك حديـث دائـم لمـدراء المعـارض عـن لجـان شراء ودعـم وبرامـج كثـيرة، والحـال أن هـذا الحديـث يحتـاج إلى تدقيـق وفـرز لتقييـم كل تجربـة بعيـدا عـن الصـورة الإعلاميـة المشرقـة.


مؤمنون
بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

بقلم :
د. محمود كيشانه
كاتب وباحث مصري

# التعليم والتفكير النقدي

التعليم من الركائز الأساسية لنهضة أيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وبدونه ترسف في غيابات الجهل والتخلف والتشدد، ومن ثم كانت أهمية العلم والتعليم، وبالنظر إلى واقع الحال في تعليمنا العربي في مؤسساتنا التعليمية، نجد أننا نسير عكس تيار التعليم العالمي، وذلك - في ظني - لأننا لا نضع أهدافا واضحة، يمكن النظر إليها على أنها معيار عام نقيس به كل ركن من أركان التعليم.

وكان أهم مظهر على أننا نسير عكس التيار التعليمي العالمي الهادف، هو أننا نفتقد في مناهجنا خاصة، وأسلوبنا التعليمي عامة، إلى إرساء منهجية التفكير النقدي أو الناقد.

إن التفكير الناقد أهم عنصر نعوزه في المنظومة التعليمية؛ لأن لديه القدرة على زرع التفكير البناء في عقول الناشئة منذ الصغر، إذا ما تعود الإنسان عليه في تلك المرحلة الزمنية، فإنه سيكون دأبه دائما.



## ولكن ما التفكير النقدي؟

لقد حاول بعض الباحثين التنقيب عن أصول التفكير الناقد، فذهب إلى أن الفكر اليوناني ممثلاً في سقراط[١] اتجه اتجاهًا عقليًا، فربط النظر العقلي بالسلوك في إطار نقدي للواقع المعيش في تلك الفترة، وقد تواصلت حركة التفكير النقدي عبر التاريخ الفكري الإنساني، وهذا بدوره أدى إلى صياغة وجهات نظر فلسفية فكرية حول التفكير الناقد من قبل التربويين والفلاسفة وعلماء النفس، ووضعها في نسق معرفي وتربوي منطلقة في ذلك من القدرات العقلية للإنسان.[٢]

إلا أنه يمكن القول، إن التفكير النقدي - في التحليل الأخير - ليس شيئًا أكثر من النظر في المقدمات وإصدار الحكم عليها بمقتضى قانون العقل، دون النظر للأحكام السابقة المتعارف عليها. إنه - في تعريف لأحد الباحثين - عملية ذهنية يؤديها الإنسان عندما يطلب إليه الحكم على قضية أو مناقشة موضوع أو إجراء تقويم. إنه الحكم على صحة رأي أو اعتقاد وفعاليته

١- سقراط فيلسوف يوناني كان له تأثير كبير في مجرى الفلسفة اليونانية والفكر الفلسفي عامة، حيث يعد مؤسس الفلسفة الغربية، كانت له آراؤه الفلسفية في مجالي المعرفة والأخلاق، ومن أشهر تلاميذه أفلاطون.

٢- انظر وصفي عصفور، ومحمد طرخان: التفكير الناقد والتعليم المدرسي والصفي، مجلة المعلم، (١٩٩٩م).





عن طريق تحليل المعلومات وفرزها واختبارها بهدف التميز بين الأفكار الإيجابية والسلبية.[٣]

بما يعني أننا أمام أسلوب جديد من التفكير الذي يفضي إلى إنتاج العلم، وربما تصديره، وربما كان هذا هو سبب التطور الغربي الهائل في مجالات العلم النظري منها والتطبيقي كافة، وربما كان هذا أيضاً السبب الرئيس في تدفق المعلومات التي نشهدها في عالمنا على المستويات كافة.

٣- Ennis, R. H. Critical Thinking and Subject Specify: Clarification and Needed Research. Educational Leadership, ٣) ١٨),p. ١٩٩٨ ,٤١٠

> إن التفكير الناقد أهم عنصر نعوزه في المنظومة التعليمية؛ لأن لديه القدرة على زرع التفكير البناء في عقول الناشئة منذ الصغر

وإذا ما أردنا تعليما يكون ميزانا لنهضتنا، فلا بد من التغلب على كل ما هو تقليدي؛ فالعلم الآن لا يقاس بكمية الحفظ والاستنكار، ولكن التعليم يقاس بمدى الفهم والاستيعاب والابتكار في حل المشكلات، وهذا لن يكون متوفرا إلا في ظل تعليم ناقد بناء يقوم على التفكير النقدي.

**إن التفكير الناقد يستطيع بكل سهولة أن يقضي على آفات منها:**

- عملية الحفظ والتلقين التي لا تنشئ إلا جيلا يقوم على فكرة السمع والطاعة في كل شيء، ولو كان خطأ.

- فكرة أن الأولين قاموا بكل شيء من أجلنا، بل من الأحرى أن نكون على يقين بأن الأولين قد تركوا لنا كل شيء، فإذا ساد هذا الانطباع نكون على بداية التفكير النقدي المنتج علميا وفكريا.

- فكرة انغلاق العقل على ما هو قديم، دون تمييز غثه من سمينه، وهي من الإشكاليات العتيقة في تاريخ تراثنا الفكري، إذ من الواجب علينا أن نغوص في أعماق هذا التراث، لأنها إحدى الإشكاليات التي توجه بسببها سهام النقد إلى هذا التراث الذي نعتقد أن نسبة الإيجابي فيه تفوق السلبي، ولكن لن تظهر قيمة هذا الإيجابي دون تنقيته من الأخير، واستبدال آخر إيجابي به.

ومن هنا، وجب الانتباه جيدا إلى أن التفكير النقدي نظرة تستغرق البعد المستقبلي، إذ لن يكون

**يجب على المنهج الدراسي أن يعمل على وضع التلميذ في مواقف حياتية تدفعه دفعا للتفكير الناقد**

لهذا المستقبل دور، ما لم يكن قائما على أساس من التفكير الصحيح، أخصه التفكير الناقد.

والتفكير النقدي يجب أن يكون مرتبطًا بمحاور العملية التعليمية، وهي: المنهج، المعلم، المناخ التعليمي، الطالب.

فالتفكير النقدي على مستوى المنهج الدراسي ليس على المستوى المأمول، بل لنا أن نقول إنه ليس له وجود أصلا، فالمنهج الدراسي يرسخ لشيء واحد الحفظ، ثم الحفظ، نعم هناك أمور أخرى لكنها ليس لها الصدارة في المنهج، فالتفكير والإبداع يتواريان خلف ظلال كثيفة من الحفظ والتلقين.

ومن ثم، فلا بد أن يكون المنهج الدراسي مشتملا على مواقف حياتية تنمي عند التلميذ التفكير الناقد، وتجعله في حاجة إليه دائما، وعليه فلا بد أن تكون عملية التقييم ذاتها تنمي لهذا المنهج حتى يصير ملكة لدى صاحبه، هذا فضلا عن أن الأنشطة التي يقدمها المنهج ليست على المستوى المأمول الذي يكوّن عند التلميذ ملكة التفكير الناقد.

إن المنهج الدراسي يجب أن يعمل على وضع التلميذ في مواقف حياتية تدفعه دفعا للتفكير الناقد، ومن هنا يجب أن تكون الموضوعات من تلك الموضوعات التي تدعو إلى التفكير، أو على الأقل تساعد عليه من خلال وضع الطالب على المحك مع المشكلة المطروحة، فيضع لها تصوره، ثم يشرع في إيجاد الحلول النقدية لها.

كما أن طبيعة التقييم داخل المنهج الدراسي عليها عوار كبير، فهي لا تحفل إلا بالنادر الذي ينمي التفكير الناقد لدى التلميذ، فكلها أساليب تقييم إنشائية لا تقيس التفكير، وإنما تقيس القدرة على الاستذكار والحفظ، ليس إلا، وهنا تكمن الخطورة، ذلك أننا بذلك ننشئ فردا لا يعرف إلا التقليد والمحاكاة. أما أن يبدع أو يبتكر، فذلك مستحيل في ظل هذا المنهج الذي يعتوره العديد من أوجه العوار والنقص.

وهذا كله ذو دلالة واضحة على أن المنهج بصورته الحالية يعد مناقضة بالكلية للتفكير النقدي؛ فالتفكير النقدي تفكير بناء، أدواته إعمال الفكر وليس قتل الفكر بالحفظ والتلقين، ولنا أن نقول: إن من لا يستخدم التفكير الناقد إنما يرسم طريقا للفشل. أما من يخطط للتفكير النقدي، إنما يخطط للنجاح على كافة الأصعدة.

وإذا كان هذا هو حال المنهج من التفكير النقدي، فكيف يكون الحال فيما يتعلق بالمناخ التعليمي أو القائم بعملية التعليم، وهو المعلم، أو بمحور العملية التعليمية، وهو الطالب.

فضلاً عن ذلك، فإن المعلم مقيد بهذا المنهج الذي لا يتيح له مجالاً للإبداع أو التفكير النقدي، وإذا ما أبدع معلم في مجاله في قاعات الدرس، فإنما يعود ذلك إلى مجهود فردي منه؛ فضلاً عن أننا نفتقد بالأساس إلى المعلم يمتلك أدوات التفكير النقدي، ومن ثم فكيف وهو فاقد الشيء أن يجعل الطلاب يمتلكونه؛ فالخطورة الكبرى أن المعلم الذي نرجو أن ينتقل العلم على يديه إلى أفق أوسع من ذي قبل، فكيف يتسنى له ذلك، وهو يفقد أدنى الأدوات التي يستطيع من خلالها فعل ذلك؟

إن المعلم في غالبية أوطاننا العربية مهضوم حقه، ليس على المستوى المادي فحسب، بل على المستوى التأهيلي والتنمية المستدامة، ونحن نتساءل كم مرة تم تأهيل المعلم تدريبيًا على التفكير النقدي؟ بل لنا أن نتساءل بكل وضوح: هل تم تأهيله عليه من الأساس، ولو لمرة واحدة؟! الإجابة حتمًا بالنفي، ذلك لأننا لا نؤمن بالتفكير النقدي في مؤسساتنا التعليمية في التعليم قبل الجامعي، ولا التعليم ما بعد الجامعي.

ومن هنا، فنحن إذ نطلب من المعلم زرع مبادئ التفكير النقدي في عقول الناشئة، فإنما نطالبه بما

لا يطيقه، ولا يقدر عليه، لأنه لا يعرف المقصود بالتفكير النقدي، ولا مبادئه، ولا أهميته، ولا حتى خصائص المفكر الناقد، ولا المهارات التي يجب أن يتحلى بها.

ومن ثم إذا أردنا اتجاهًا نقديًا إيجابيًا في بلداننا تكون نواته المؤسسة التعليمية، فإن من الواجب أولاً تأهيل المعلم في مجالات التفكير المتعددة، وتنمية الاتجاه النقدي لديه، وأخص كل ذلك التفكير النقدي، فمثل المعلم من التفكير النقدي كمثل المرآة ممن يقف أمامها، فإذا ظهرت في المرآة صورة رجل فالواقف حينها أمامها ليس شيئًا آخر غير رجل، وإذا ما ظهر فيها حيوان ما كالفيل أو القرد أو الأرنب، فإنما الواقف أمامها واحد من هذه الحيوانات، والمعلم كذلك فهو مرآة لما أمامه من سوء المناهج أو حسنها، من سوء المناخ التعليمي أو حسنه، من سوء النظام التعليمي العام أو حسنه.

فإذا لم يصب المعلم شيء من التأهيل على التفكير النقدي، فلا يظهر لنا في المرآة شيء منه، فالمعلم ورث التفكير التقليدي وتشبعه حتى النخاع، ومن ثم فلا يظهر فيها إلى معلم مقلد في تفكيره واتجاهاته وسلوكه، فكما أن المرآة لا تعكس إلا ما أمامها، فكذلك شخصية المعلم ليست إلا مرآة للظروف المحيطة به مهنيًا وعلميًا ومجتمعيًا وسياسيًا وثقافيًا إلى غير ذلك، بيد أنه يبقى على كل حال المحور الذي يستطيع أن يقود المنظومة إلى التغيير الأفضل والشامل، كونه يبني العقول، وفرق كبير - لا شك - بين من يبني العقول ومن يبني البطون.

ومن ثم، تكمن بداية الحل - وليس كل الحل - في أمرين فيما يتعلق بالمعلم:

الأول، تأهيله وتدريبه على التفكير النقدي، حتى يكون ممتلكًا لأدواته، فيستطيع حينها أن يقود الطلاب إلى المستقبل، وأن يصنع جيلاً يغير مجرى التاريخ إلى الأفضل.

الثاني، توفير الجوّ الصحي والملائم له ليشارك في صناعة أجيال تستطيع قيادة العالم العربي إلى مصاف الدول العالمية، ولن يكون له ذلك دون توفير حياة مادية كريمة له، وإعطائه وضعه اللائق به أدبيًا ومعنويًا داخل المجتمع.

من الواجب أولاً تأهيل المعلم في مجالات التفكير المتعددة، وتنمية الاتجاه النقدي لديه

وإذا كان المنهج تقليديًا، والمعلم غير مؤهل على التفكير النقدي، ولا حتى على غيره من ألوان التفكير، فنحن لا نجد جديدًا فيما يتعلق بالمناخ التعليمي، والجو الذي تدير فيه المؤسسة التعليمية عملها. بيد أنه يجب التأكيد أننا نقصد بالمناخ التعليمي أمرين: المناخ داخل المؤسسة التعليمية، والمناخ خارجها، بما يحيط بها من مؤسسات حكومية، ومؤسسات مجتمع مدني، ومؤسسات مجتمع محلي، فضلاً عن المناخ الذي يمثله المجتمع العام بكل طوائفه.

فلا المناخ التعليمي داخل المؤسسة التعليمية يشجع على التفكير النقدي بسبب ما يعج فيه من من دعوة إلى المحاكاة والتقليد والنزوع إلى الارتماء في أحضان الماضي بكل قوة، باعتبار أن الجديد في نظره غير معروف، أو مجهول، وغير المعروف والمجهول يمثل لهم خطرًا، ومن ثم فإن التفكير النقدي يمثل في وجهة نظره خطرًا يجب الحذر منه، أو ربما على اعتبار أن هذا الجنوح يمثل نوعًا من الانهزامية وقلة الحماسة من التطور نحو الأفضل، ركونًا إلى الحالة السلبية التي شاعت ولا زالت. ولا شك أن هذا يغذيه بكل قوة منهج أصم، ومعلم مغلول العقل، قبل أن يكون مغلول اليدين والقدمين.

ومن النادر أن تجد القيادة التربوية - وهي تمارس عنصرًا من العناصر التي من المفترض فيها إشاعة المناخ التعليمي الجيد والعمل عليه - تمارس التفكير النقدي، أو أن تكون قدوة فيه يقتدي بها المتعلمون، ولو كانت إدارة المؤسسة التعليمية ممثلة في المديرين والوكلاء والمشرفين تمارس فيما بينها التفكير النقدي، لكانت عاملاً من عوامل التشجيع عليه، وإشاعته داخل

> **يمثل التفكير الناقد القدرة على الاستدلال وقياس المعلومات والأفكار وتقويم المناقشات انتهاء إلى الأحكام المنطقية**

المؤسسة، إلا أن ذلك لا يتم، ومن ثم فإن المناخ التعليمي داخل المؤسسة ليس مشجعًا على التفكير النقدي، فضلاً عن أن يكون ملمّا بمبادئه وأهميته وأهدافه.

أما المناخ خارج المؤسسة التعليمية، فهو أكثر فقرًا في التعاطي مع التفكير النقدي، فلا النظم السياسية تعمل على ترسيخه بين أبناء الوطن، فضلاً عن عدم ممارسته في ممارساتها وخططها، بل لا نظن أن قضية التفكير النقدي تحظى باهتمامها، إضافة إلى ما ترسخ له هذه النظم من اتجاهات سلطوية تتنافى بالكلية مع مبادئ التفكير النقدي. ومن ثم وجب على تلك النظم إعادة النظر في موقفها من التعليم والتفكير، وأن تضع في برامجها وخططها تطوير التعليم على أسس واقعية، ليس غرضها اقتفاء أثر الغرب؛ لأن ما يتناسب مع البيئة الغربية من تطوير تعليمي قد لا يتناسب مع بيئتنا العربية، خاصة فيما يتعلق بالإمكانيات المادية والبشرية وغيرها. كما يجب عليها أن تضع في اعتبارها تطوير العقلية العربية من خلال برامج التفكير بمختلف أنواعه ومنها التفكير النقدي.

ولا مانع من أن تستعين هذه النظم بالمجتمع المدني ومؤسساته المنتشرة في طول البلاد وعرضها، على أن تشارك بوضع البرامج الخاصة بالتفكير وتنفيذها على أرض الواقع، من خلال تدريب المعلمين على التفكير النقدي وكيفية توصيل ذلك للمتعلم؛ حتى يكون هناك جيل يقود إلى النهضة الحديثة، وأن يشارك في صنعها.

وهذا كله دليل على أن الطالب أو المتعلم – وهو المنتج الذي يعمل الجميع داخل المنظومة التعليمية على أن يكون منتجًا جيدًا – مظلوم، فلا المنهج ملائم للتفكير النقدي، ولا المعلم مؤهل له، ولا المناخ العام والمناخ التعليمي يساعدان عليه، فلا نريد طالبًا ناقلاً للعلوم، وإنما نريد في هذا العصر طالبًا مبتكرًا للعلوم، ومشاركًا في صنعها، واكتشاف العالم من حوله، ولن يكون ذلك إلا بتنمية التفكير النقدي والإبداعي.

إن التفكير النقدي له غاية معرفية كبيرة للطالب خاصة، حيث يساهم التفكير الناقد في إثراء الجانب المعرفي عامة؛ لأنه ينطلق من فحص الآراء وتحليلها إلى التفريق العقلي بين الغث والسمين، وهذا يساهم في بناء معرفي سليم.

فالتفكير النقدي تتمثل أهميته بالنسبة إلى الطالب – وهذا ما ذهب إليه أحد الباحثين في بيان أهمية التفكير النقدي على العموم – في الآتي:[٤]

أ - أن التفكير الناقد نشاط ذهني عملي.

ب - أن التفكير الناقد يتضمن التفكير الناقد تفكيراً إبداعياً.

ج - كما يتضمن بدوره صياغة الفرضيات[٥] والأسئلة والاختبارات والتخطيط للتجارب.

فالتفكير الناقد يمثل القدرة على الاستدلال وقياس المعلومات والأفكار وتقويم المناقشات انتهاء إلى الأحكام المنطقية[٦]. كما أنه عملية عقلية لتقويم نواتج التفكير التي تعتمد على صحة الأدلة، وتقييم الأسباب وتطوير حجج منطقية.[٧]

وهذا يعني أن التفكير الناقد عند المتخصصين يقوم على فحص وتقييم الحلول المعروضة. وعند بعض آخر، يستند إلى حل المشكلات والتحقق من الشيء وتقييمه بالاستناد إلى معايير متفق عليها مسبقا. كما يستند التفكير الناقد عند بعض الباحثين

---

٤- يوسف قطامي: تفكير الأطفال – تطوره وطرق تعليمه، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، (١٩٩٠) ص ٦٩٩، ص ٧٠٧

٥- الفروض العلمية.

٦- Fisher, Charles.(١٩٩٠). Effects of A development Drama-In query Process on Creative and Critical Thinking in Early Adolescents. Dissertation abstract international, -٣٣٨٩ ,(١١)٥٠A.

٧- Gunn, E. (١٩٩٣). Assessing Critical Thinking: Development of A constructed Response Test. Dissertation abstract international, -٢٢٦٧ ,(٤)٥٤A.



استخدام المستويات المعرفية العليا في تصنيف بلوم[٨]، وهي التحليل والتركيب والتقويم.[٩]

ولذا، فالمهمة ثقيلة والعوائق كبيرة، بيد أنه يمكن التغلب عليها بالمزيد من الصبر، والمزيد من الاجتهاد، والمزيد من الرغبة في التغيير. وبدون ذلك، فإننا نحكم على المؤسسة التعليمية بالضياع، لأنه حينها سوف تكون مؤسسة منقوصة في درجة إجادتها، كما أننا - بطبيعة الحال - نحكم على الوطن كله بالاستسلام إلى الوضع القائم، والتخلف عن الركب، والرضى بتذيل الأمم والشعوب.

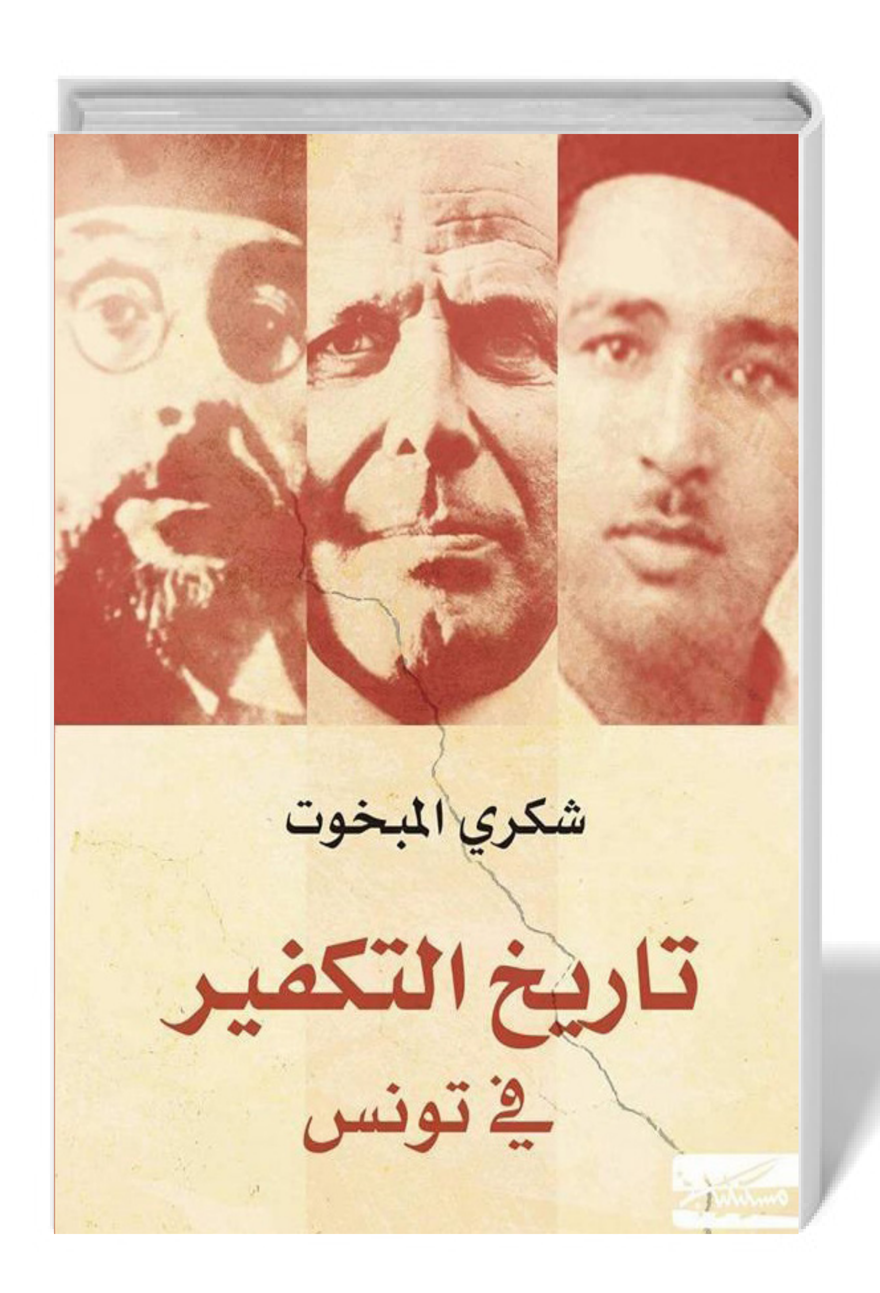
وأخيرًا، يجب التأكيد أن التفكير النقدي كالماء والهواء، ولذا فإن أية مؤسسة تعليمية تأباه، إنما هي - في حقيقة الأمر - ترفض الحياة، ترفض العلم الحقيقي، ترفض الطموح والعمل الجاد المثمر، ترفض أن يكون هناك جيلاً قويًا غير تابع.

٨- بنجامين بلوم، عالم النفس التربوي، ولد ١٩٥٦م، له تصنيف بلوم وهو تصنيف لمستويات الأهداف الدراسية التي ينبغي على المعلمين وضعها لطلابهم، وهي المستوى الإدراكي والمستوى السلوكي، والمستوى النفسي.

٩- جروان، فتحي عبدالرحمن: تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات، العين، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي (١٩٩٩م)، ص- ص ص ٦٣، ٦٤










**بقلم: د. محمّد الكحلاوي**

جامعي وناقد من تونس





# عوائق الاجتهاد الدّيني وإكليروس المؤسسة الدّينية في الإسلام:

## قراءة في كتاب «تاريخ التكفير في تونس» لشكري المبخوت

من المؤلّفات المهمّة للغاية التي صدرت، مؤخّرا، في مجال نقد التفكير الدّيني التقليدي وقراءة مسارات الجدل وصراع تأويلات النصّ الدّيني في علاقته بالعقل والتاريخ والمجتمع، وقضايا التكفير والإيمان، كتاب أ. د شكري المبخوت «تاريخ التكفير في تونس»[١]، حيث تمّ تقديم الكتاب، ومناقشته على منابر فكرية وعلمية كثيرة، كان من ضمنها الجلسة المتميّزة التي عقدت بفضاء مؤسّسة «مؤمنون بلا حدود» بتونس، في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠١٨.

من هذا المنطلق، بدت لنا أهميّة محاولة قراءة المادّة المعرفية التي تضمّنها هذا الكتاب، عبر دراسة أهمّ محاوره الفكرية والنقدية، وطبيعة اشتغال آلياته ومنواله في دراسة قضايا التكفير الدّيني، في علاقتها بعمل العقل وبرسالة شيوخ الدّين، وبحقيقة تعاليم الدّين ودلالات منطوق خطابه. ولعلّ ذلك لا يستقيم بمعزل عن التطرّق إلى أهمّ خصائص المنوال المعرفي المعتمد في التحليل والدّراسة، لا سيّما أنّه يأتي من عالم لسانيات وباحث متخصّص في البلاغة الجديدة، جذبته الدّراسات الحضارية ومباحث تاريخ الأفكار، فرأى أهميّة في تحليل قضايا الخطاب الديني، ودراسة جذور فكرة التكفير وخطورة تداولها وانعكاساتها السلبية في مجال الفكر والثقافة وفي فضاءات الحياة اليومية للأفراد. ومن ثمّ، يصير بالإمكان أن نتبيّن أهمّ مميزات ما تطرحه تلك المقاربة من قراءة جديدة لتاريخ التفكير الدّيني ولطبيعة الخطاب المجسّم

١- صدر عن منشورات مسيكلياني، شوقي العنيزي، تونس، ٢٠١٨م، في ٣٥٢ صفحة.





## يبحث الكتاب في جذور فكرة التكفير، وخطورة تداولها وانعكاساتها السلبية في مجال الفكر والثقافة، وفي فضاءات الحياة اليومية للأفراد

لتلك التحوّلات، في مستوى القيم المعرفية والحضارية التي تؤسّس وجود الكائن.

والأستاذ المبخوت مؤلّف هذا الكتاب، جامعي تونسي ينتمي إلى قسم اللغة والآداب العربية، بجامعة منوبة، عُرف ببحوثه المتميّزة في مجال اللغة واللسانيات والبلاغة الجديدة. في هذا السياق، أنجز أطروحته؛ «إنشاء النفي وشروطه النحوية الدلالية في اللغة العربية» (صدرت عن كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة بالاشتراك مع مركز النشر الجامعي بتونس، ٢٠٠٦). وألّف في هذا المجال، أعمالا كثيرة صارت مرجعية، منها كتاب «الاستدلال البلاغي» و«نظريّة الأعمال اللّغويّة» و«دائرة الأعمال اللغويّة» و«توجيه النفي»، وبحوث حول «المعنى المحال»، و«نظرية الحجاج في اللغة»، (صدر ضمن الكتاب الجماعي «أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم»، بإشراف حمّادي صمّود، كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٨). غير أنّه بالتوازي مع ذلك اهتمّ بالدّراسات الأدبية وتحليل الخطاب والترجمة، فقد ترجم كتاب «الشعرية لتودوروف (بالاشتراك مع رجاء سلامة وصدر عند دار توبقال للنشر بالمغرب، في طبعتين: ١٩٨٧م و١٩٩٠)، وكتب في نقد السيرة الذاتيّة كتبا ثلاثة هي «سيرة الغائب وسيرة الآتي» عن أيّام طه حسين و«أحفاد سارق النار» عن السيرة الذاتيّة الفكريّة و«الزعيم وظلاله» عن السيرة الذاتيّة في تونس. وألّف في قضايا دراسة النثر والشعر في الأدب العربي القديم، كتابه «جمالية الألفة: النصّ ومتقبّله في التراث النقدي». وهو إلى ذلك روائي متميّز، إذ فازت روايته «الطلياني» بجائزة البوكر للرواية العربية» (٢٠١٥) - وصدرت له بعدها مجموعة قصصيّة بعنوان «السيّدة الرئيسة» ورواية «باغندا».

ويرى الأستاذ المبخوت أنّ وظيفته بوصفه جامعيّا ومثقّفا، تحتّم عليه ألّا يبقى أسير دائرة التخصّص الضيّق (اللغة واللّسانيات)، بل عليه أن ينفتح على قضايا عصره، ويبحث أيّ دور يمكن أن تؤدّيه المعرفة الأكاديمية بالنسبة إلى الشأن العام. في هذا السياق، تبيّنت له مدى الأهميّة الّتي يمكن أن تحصل من وراء الاشتغال بقضايا الفكر عامّة وتحليل الخطاب الدّيني، إذ في ذلك اختبار لفاعلية أدوات تحليل الخطاب مطلقا، إثراء لمناويل نقد الفكر، حيث يتمّ اكتشاف زوايا أخرى لطبقات المعنى ومستويات الدلالة، ومن ثمّ إدراك خصائص بنيات الفكر الدّيني التي تتكوّن في نهاية الأمر عبر استعمالات اللغة في مجال المعرفة، حتّى إن بدا موضوع «تاريخ التكفير» مبحثا تاريخيا، كما يمكن أن تفيد بذلك عتبة عنوان هذا الكتاب، مما يجعله إضافة متميّزة لأعمال أولئك المؤرّخين والمختصين في دراسة الحضارة، لكونها تعمّق مدارات اشتغاله على النصوص بوصفها بدرجة أولى مادّة لغوية، وبدرجة ثانية كثيرة ما تكون خطاب حكاية؛ أي بنية سردية.

### ١. بنية الكتاب وخصوصية المقاربة

جاءت دراسة المبخوت في هذا الكتاب لتمنح البحث في موضوع التكفير خصوصية، بعد أن أضفى على ذاك التشكيل الذي رام إنجازه لمسارات سير أولئك المفكّرين الزعماء طابعا سرديّا جميلا، إذ استخدم في دراسة مغالق مسائله، أدوات لسانية وبلاغية، كشفت المعتّم في مستويات بنياته النصيّة.

يشتمل كتاب «تاريخ التكفير في تونس» على أربعة فصول خُصّص أوّلها لبحث قضيّة التكفير في بعدها الدّيني التاريخي، كيف ظهرت، وكيف تمّ تقنينها فقهيا، وعلى صوة وردت أخبار الذين وقع تكفيرهم في أمّهات كتب التراجم ومصادر التاريخ، مثل: «مروج الذهب للمسعودي»، وتاريخ الخلفاء للسيوطي»، البداية والنهاية لابن كثير»، و«المنتظم» لابن الجوزي. وقد بحث المؤلّف في ظهور نعت التكفير





# كان خطاب «التكفير» والحكم بالضلالة عبر تاريخ الإسلام وراء الإيقاع بأعلام من المفكّرين والأدباء والفلاسفة

داخل الملّة الإسلامية بوصفه ضدًا للإيمان الصحيح، إضافة إلى تكفير أهل الأديان والمذاهب الأخرى كالثنوية والمجوسية، ونظر في الكيفية التي بها تتطوّر تهمة الزندقة إلى تكفير، كما هو الشأن في قضيّة عبد الله بن المقفّع، الذي قُتل لزندقته، (ص ١٢)، ليكون بعد ذلك التكفير صورة من صور إقصاء المخالف والمناقض في مجتمعات لا تعترف إلّا بالشبيه والمماثل» (ص ٢٣). وليظهر لاحقا، كيف أنّ قضيّة التكفير في ظاهرها دينيّة، ولكّنها سياسية في جوهرها، حيث ظلّ هنا قانون يحكم التاريخ الإسلامي، بخصوص مدى ارتباط الدين بالسياسة، سواء من جهة ضبط إيمان الدولة والمجتمع أو والأفراد، أو من جهة التحالف بين الدّين والسلطان». (ص ٢٨). ولقد كان خطاب «التكفير» والحكم بالضلالة عبر تاريخ الإسلام وراء الإيقاع بأعلام من المفكّرين والأدباء والفلاسفة، سواء من قتل منهم أو من عُذّب ورمي به في السجون والمنافي، أو شُرّد وهُمّش، هكذا كان مصير الحسين بن منصور الحلّاج وحكيم الإشراق السُّهروردي وابن رشد وابن عربي الصوفي الحكيم، ومن قبل بشّار بن برد والجعد بن درهم الذي ذُبح يوم العيد كما تذبح الأضحية.

وقد خصّص المؤلّف لاحقا، كلّ فصل من الفصول الثلاثة الأخرى لدراسة تجربة إحدى الشخصيات الثلاث (الثعالبي والحدّاد وبورقيبة)، في مستوى الفكر والحياة.

انطلق مؤلّف كتاب «تاريخ التكفير في تونس» في البدء، من رصد تعدّد الأبعاد الدلالية لبعض نصوص فصول الدستور التونسي الجديد (٢٠١٤)، ومن استدعاء نقدي لما حفّ بها من جدل وتعارض، هو عبارة عن عمل فكري نقدي أكاديمي حاول مؤلّفه رصد أهمّ لحظات أو وقائع التكفير التي شهدها مسار الفكر والثقافة في تونس أثناء القرن العشرين، وانعقد مدار مادّته المعرفية على تحليل ثلاث تجارب في الفكر والإصلاح الديني والسياسي، عبر دراسة سياقاتها الإشكالية على مستوى النظر والواقع، كما جسّمتها إنجازات زعماء ثلاثة، هم: عبد العزيز الثعالبي (تـ ١٩٤٤)، المصلح والمجدّد للخطاب الدّيني والمناضل السياسي في وجه الاستعمار الفرنسي، ومن أشهر كتبه «روح التحرّر في الإسلام»، والطاهر الحدّاد (تـ ١٩٣٥)، وهو أوّل من دعا إلى حرّية المرأة وإعطائها حقوقها كاملة، منطلقا من قراءة جديدة ومغايرة لمصادر التشريع الإسلامي، تنقض تحجّر الأحكام الشرعية التي هي من وضع الفقهاء والمجتهدين، وتنظر نظرة نقدية في ما آلت إليه أوضاع المرأة في ظلّ واقع الحياة الاجتماعية، وله في ذلك كتابه الذائع الصيت «امرأتنا غي الشريعة والمجتمع» الذي انتهى فيه إلى تقويض مقوّمات المنظومة الفقهية الإسلامية. وآخر هؤلاء الزعماء هو الحبيب بورقيبة (تـ ٢٠٠٠)، وهو مؤسّس الدولة الوطنية وأبو الحداثة السياسية في دولة الاستقلال الذي حرّر المرأة التونسيّة ومنع تعدّد الزوجات، من خلال إصدار مجلّة «الأحوال الشخصية»، سنة ١٩٥٧، ورفض التعليم الدّيني التقليدي المحنّط، حيث استبدل التعليم الزيتوني بالتعليم المدرسي والثانوي العصري، والقائم على الانفتاح على المناهج والنظريات الحديثة، وأمر ببعث الكلّية الزيتونية للشريعة وأصول الدّين، لتتقوم بتدريس الدّين والثقافة الإسلامية في إطار أكاديمي مدني عصري، ووحّد القضاء بإلغاء المحاكم الشرعية.

## ٢. المنوال ومستويات المقاربة

يذهب مؤلف الكتاب شكري المبخوت إلى القول: «إنّ مقصدنا من هذا الكتاب أن ننظر في السياقات والأفكار والأبعاد والتفاصيل التي حفّت بالقضايا التكفيرية الكبرى في التاريخ التونسي. وتجمع مقاربتنا للمسألة بين سرد التاريخ في حبكة واضحة تكشف المنطق الذي يشدّ تفاصيل ما وقع والأطراف الاجتماعية المتصارعة





## يقول المبخوت: إنّ مقصدنا من هذا الكتاب أن ننظر في السياقات والأفكار والأبعاد والتفاصيل التي حفّت بالقضايا التكفيرية الكبرى في التاريخ التونسي

من جهة، وتحليل الأفكار التي أدّت إلى تكفير هؤلاء من جهة أخرى» (ص ١٥)؛ وذلك بهدف الوصول إلى معرفة «الروابط بين ذاك «الحكم الشرعي»، كما تبلور في نظر المكفّرين (أي الذين رأوه وقالو به) و»الدوافع الظاهرة والخفيّة التي أفضت إليه» (ص ١٥؛ ذلك أنّ الوجه الحقيقي للتكفير، ما هو في نظر المؤلّف، إلّا «فعل بشري يتلفّع في ضرب من التعالي عن بشريته بلحاف شرعي، يجعل فاعليه يد الله التي تنفّذ شريعته (من ثمّ يكون من واجب) الدّارس أن يزيل القشرة ليصل إلى اللبّ السياسي». (ص ١٥)

من هذا المنطلق بالذّات تكمن طرافة هذا الكتاب، حيث يرصد مؤلّفه مدى أهميّة التقاء مفارقات كثيرة في علاقتها بتحوّلات إشكالية وعميقة أثّرت في مسار الشخصيات الثلاث التونسية التي لاقت تكفيرا ورفضا لأفكارها من قبل القوى التقليدية المحافظة، ومن المتشدّدين من شيوخ الدّين وأغلبهم من الزيتونيين. فالثعالبي رغم أنّه «تلقّى تكوينا زيتونيّا تقليديّا، (وهو الذي أشبع) فضوله بدراسة علمي الكلام والأصول والتصوّف دراسة شخصيّة مع انجذاب إلى التاريخ»، تبيّن له من خلال نظره النقدي «أنّ علم شيوخ التعليم الزيتوني منقوص يكتفي باللغة والفقه. وثبت لديه أنّ شيوخ العلم، في الزيتونة بمناهجهم في التدريس ومحافظتهم الفكرية لا يجْدون نفعا» (ص ٨٨)، وهو في ذلك اتّبع آراء الشيخ الإمام المصلح محمّد عبده، متأثّرا بما طرحه خاصّة عند زيارته الثانية إلى تونس في صائفة ١٩٠٣م. فالتقاء فكر الثعالبي مع «التيّار الإصلاحي في العالمين العربي والإسلامي، قد يكون شجّعه على أن يصدح بآرائه التجديدية الجريئة» (ص ٩٣). ومن ثمّ صدح الثعالبي قائلا: «إنّي بين قوم تتعالى نفوسهم عن الحقّ وتتجافى جنوبهم عن مضاجع الصدق» (ص ٩٤). ليقدّم صورة لتشدّدهم ووثوقيتهم ورفضهم النقد والمراجعة، والأخذ بالرأي الصائب، حيث يقول: «إذا قلت لهم هذه أوهام في أوهام زمجروا واستكبروا (...) وقالوا هذا آخر الزمان، ووشوا عنك أنّك كافر لا تؤمن باليوم الآخر...» (ص ٩٥)، وهنا تكمن خطورة الموقف، إذ يعدّ الكافر خارجا عن الملّة، وهو مبدّل لدينه، ولدى بعض الفقهاء حكم المرتدّ الخارج عن الإسلام التصفية الجسدية. وقد اختزل الثعالبي جرأة طرحه عند تقديمه الموجز حول كتابه «روح التحرّر في القرآن»، ومن أبرزها:

- انحسار العقل في الدائرة الضيّقة التي وضعها أرسطو بأقيسته النظرية.
- حسر مفهوم العلم في التعاليم الدينية
- التحجير على تعليم النساء
- اعتقاد أنّ العلوم الكونية علم لا ينفع وجهل لا يضرّ
- تصوّر أنّ ما عليه غير المسلم كفر
- عدم الجمع بين علوم الدّين وعلوم الحياة
- تعصّب الفقهاء لمذاهبهم، واختلاف فقهاء المذهب الواحد في المسألة الواحدة إلى آراء
- إنكار آراء علماء الإفرنج (الغرب) في الفلسفة وغيرها مع التسليم الأعمى بآراء اليونان. (ص ٩٩)

وفي السياق نفسه، جاءت آراء الطاهر الحدّاد الذي ذكر قائلا: «التفكير بدء الحياة، ولكنّنا نضع في وجهه سلاح التكفير لنثير عليه الشعب»، وهو الذي توصّل في كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» إلى أنّ روح الإسلام هي الحرّية، إذ جاء الدّين لتحرير الفرد، ولذلك أقرّ رفض كلّ أشكال العبودية والاسترقاق، وإن «لم يستطع في حينه أن يقرّر حكما نهائيّا غير إعلانه الرغبة في العتق (فهو قد) عوّل على تشوّف الشارع للحرّية. وإدراك الفقهاء لما في الشريعة من العطف والتقدير لحرّية الإنسان» (المبخوت ص ١٨٣)، وهو ما يقتضي ضرورة تفهّم منطق التطوّر في التشريع في ضوء تطوّر الحياة، والعمل بقاعدة النسخ التي أقرّها الإسلام. ويقود إلى إقرار «مبدإ التدرّج في كشف جوهر



## أهمّ ما ميّز هذه المقاربة التي حملها هذا التأليف، كونها جاءت طريفة وجادّة وعميقة، لا سيّما وأنّها قامت على توظيف أدوات ساعدت على كشف مدلول منطوق الخطاب

الإسلام. ويقود إلى إقرار «مبدإ التدرّج في كشف جوهر الإسلام وتخليصه من ملابسات الظروف السابقة التي تنزّل فيها النصّ. ويقتضي مبدأ التدرّج بهذا الفهم آلية النسخ التي يفرضها تبدّل الواقع وإدراكا لروح الشريعة» (المبخوت ص ١٨٤)، من هنا علينا أن نفهم، كيف أنّه «ليس الواقع هو الذي يفرض تغيير الأحكام التي لم تعد تسايره أو تستجيب لرغبات الناس. وإنّما يعود ذلك إلى الدّين نفسه» (الصفحة نفسها). بذلك، تبرز وجوه التباين بين الحدّاد والمعترضين عليه، وهو ما خصّص له المبخوت فصلا بعنوان: «في الفروق بين الحدّاد ومنتقديه»، بيّن فيه أهم خصائص البناء المعرفي والمرجعية الفكرية التي كانت وراء أفكار الحدّاد وأقوال منتقديه.

وهكذا كان لمثل هذه الأفكار التي تقدّم ذكرها، والتي صار أكثرها بعدا محوريّا في سياسة الزعيم الحبيب بورقيبة، لا سيّما بعد تولّيه حكم البلاد، منذ سنة ١٩٥٦، وذلك على إثر حصول تونس على استقلالها، كما صار لتلك الأفكار التحرّرية الأثر البارز في النخب وفي وعي الفئات المثقّفة، غير أنّ جمعا كبيرا من الفقهاء وعلماء الدّين المتشدّدين الرافضين لمنطق التقدّم وتطوّر حركة التاريخ، ظلّوا يكفّرون كل قائل بها، ويبدّعون كلّ من يتبنّاها أو يساندها. وليس عجبا أن ترى إلى اليوم من شيوخ الدّين المتشدّدين ومن بعض رموز الاسلام السياسي، وممن ينسبون أنفسهم إلى البحث في مجال الفكر الإسلامي وعلوم الدّين والشريعة، يكفّرون هؤلاء الزعماء ويبدّعون المفكّرين المصلحين، ويخرجونهم عن دائرة الملّة الإسلامية، وهم لم يصدحوا بالكفر، ولم يرد في آرائهم التي قدّموها على أنّها اجتهادات، ما فيه إنكار لوجود الله أو لنبوّة أنبائه أو للوحي بوصفه الرسالة الخاتمة.

وهنا تجدر الإشارة إلى دلالة استعارتنا ضمن عنوان هذا المقال لمصطلح «الإكليروس»، الذي استخدمه مؤلّف كتاب «تاريخ التكفير في تونس»، ضمن عنوان الفصل الثالث الذي جاء كالآتي: «مأساة الحدّاد مع إكليروس الزيتونة» (ص ١٤٣) وفق صيغة كان قصدها الدلالي تحديد شكل المؤسسة الدينية عند تعاملها مع الفكر الحرّ، ومن ثمّ ليس من باب المطابقة مع التقليد المسيحي، إذ كان الإكليروس يُطلق على النظام الكهنوتي الخاص بالكنائس المسيحية، حيث يتمتّع البابا بأعلى سلطة، لاسيما في الكنيسة الكاثوليكية، مقارنة بنظيره في الكنيسة الأرثوذوكسية، أما في المؤسسة الدينية في الإسلام، فيظهر حين ننظر في ما قام به علماء الشريعة وفقهاء الإسلام من ذوي المناصب العليا، حيث قاموا بأدوار التكفير أو إضفاء الشرعية، أيضا تعيير إيمان الأشخاص وكفرهم ودرجة الأسلمة ومظاهرها، كما هو الحال في قضيّة هؤلاء الثلاثة.

ولئن اكتفت الدّراسة المنجزة ضمن هذا الكتاب، «تاريخ التكفير في تونس» بالتركيز على مسح فترة القرن العشرين إلى حدود منتصفه في انتظار كتابة جزأين آخرين من تاريخ التكفير في تونس، فإنّ التكفير يمتدّ في أشكال مختلفة إلى قرون بعيدة خلت. غير أنّ أهمّ ما ميّز هذه المقاربة التي حملها هذا التأليف، كونها جاءت طريفة وجادّة وعميقة، لا سيّما وأنّها قامت على توظيف أدوات ساعدت على كشف مدلول منطوق الخطاب، وأظهرت خصائص سياقات تداوله في بعدها الفكري الدّال.

ولعلّ وجوه الطرافة تظهر أكثر، عند إدراك أوجه استدعاء المؤلّف مفاهيم وتقنيات سردية ركّب استنادا إليها أحداث التاريخ ومسارات الشخصيات الفكرية ونضالها، وذلك ضمن معمار نصّي جديد، بدا أكثر وضوحا ودلالة، من جهة تصوير مفارقات ظاهرة التكفير وخطورتها على الحرّيات وحياة الأفراد ومعتقداتهم على السواء، وهو ما أشارت إليه عبارته:



## يجب أن تتكثّف جهود الباحثين الجادّين من النخب الأكاديمية لأجل نقد خطاب العدم والتكفير الذي عانت منه النخب المثقّفة عبر التاريخ

«سرد التاريخ في حبكة واضحة...» - أي أنّه المؤلّف قام بكتابة مسارات التكفير من زاوية المؤرّخ وفي آن واحد من زاوية المبدع المفكّر الناقد الذي قام، من خلال، استدعاء تقنيات سردية لأجل الاشتغال على دراسة وقائع التكفير في تونس القرن العشرين كتابة «قصّة التكفير» من خلال سرد مسيرة ثلاثة من كبار المفكّرين والزعماء السياسيين في تونس القرن العشرين، تماما كما فعل أحمد أمين وزكي نجيب محمود، حينما كتبا «قصّة الفلسفة اليونانية».

لقد أنجز المبخوت إبداعا إنشائيا لقصّة التكفير في تونس، قوامه تركيب سردي لمادّة حكاية القصّة، جاء في صيغة فنيّة جميلة حرص المؤلّف على دعمها بوثائق ونصوص تؤكّد وقوعها في التاريخ والواقع، حيث أعاد تشكيل الأحداث ومحاكمة الشخصيات، وقصّ مسار التحوّلات التراجيدية التي لاقتها الشخصيات الثلاث دفاعا عن أفكارها ومشاريعها التحرّرية، في متعة حكي وبهجة وصف واضحتين، رغم جدّية الموضوع وقتامة مصير التفكير في مواجهة التكفير.

### ٣. ظاهرة التكفير: الانعكاسات، وأهميّة استئناف البحث العلمي

لقد كان للكتابة بروح الناقد المبدع والأديب السارد في موضوع وقائع تاريخ التكفير في تونس الأثر البارز في رصد تلك الانعكاسات الفكرية والسياسية القاتمة، على الحياة الدّينية والاجتماعية ووضع الحرّيات على مستويات مختلفة، حيث عطّلت نزعات التكفير مشاريع التقدّم والتمدّن، ونتيجة لها تمّت مصادرة الآراء الحرّة والمخالفة بحثا عن سيطرة النموذج الواحد والمذهب الواحد، لأجل تثبيت الامتثالية للمؤسّسة الدّينية باسم شرعية دينية هي في الأصل شرعيّة هيمنة المذهب الواحد، والقراءة الأحادية.

وقد جاءت قراءة المبخوت لظاهرة التكفير سياقية نقدية، إذ كان عبد العزيز الثعالبي يكتب، وهو مرتبط بالرسالة الحضارية للمثقّف وعالم الدّين المجدّد، تفعيلا لدور العقل في تحرير الفرد. وفي الإطار نفسه، تتنزّل تجربة الزعيم الحبيب بورقيبة الذي قدّم آراءه بوصفها أفكارا، استلهمها في الأصل من الطاهر الحدّاد وغيره من رواد الإصلاح والتنوير الذين أرادوا تحرير العقل الديني من سيطرة خطاب المؤسّسة الدّينية والمذهب الواحد، لتحرير الفرد من سيطرة الأحكام الفقهية التي صاغها بعض الفقهاء اجتهادا منهم في الشريعة كان وفق مقتضيات وسياقات قد يكون تجاوزها منطق تسارع حركة التاريخ وتقدّم الحضارة. في حين، كان على المؤسّسات العلمية الدّينية، أن تعمل على الاضطلاع بجدّية وعمق معرفي بمهمّة تطوير الفكر وتوسيع دائرة التفسير والفهم للارتقاء بشكل التعبير عن القيم والمثل التي جاء بها الإسلام إلى مستوى رفيع من الوعي والإنسانية والتسامح تجاه المختلف.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الدراسات الحضارية ومناويل تحليل الخطاب في الفضاء الأكاديمي المغاربي خاصّة، بدأت، وعلى الأدقّ ضمن تخصّصات أقسام الآداب العربية (الحضارة) والعلوم الإنسانية (التاريخ، السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، الفلسفة)، تهتمّ بدراسة مدوّنة التراث الإسلامي ونقد نصوص الفكر الديني وتحليل أدبيات الإصلاح التي ظهرت فجر العصر الحديث، بحثا عن وجوه التباس الدّيني بالسياسي ورصدا للانزياحات السلبية التي أنتجتها وتنتجها القراءات المغرضة للنصّ المؤسّس (القرآن الكريم)، بوصفها قراءات أحادية الجانب، وتأويلاتها ظاهرية، لكونها ناجمة عن قناعات أيديولوجية جاهزة، ظلّ هدفها مرتبطا بالرغبة في إضفاء الشرعية على مقالاتها وإقصاء كلّ رأي مختلف، ابتغاء نسفه وصدّ كل باب أمام القائل به، ويجري ذلك بالتوازي مع تبرير مفاده



## «التكفير» في أصله، ناتج عن صراع عميق مداره على اكتساب الشرعية والرغبة في امتلاك الكلام باسم الله

أنّ صاحب الرأي المخالف خارج عن مقصد الشارع وضالّ عن طريق الهدى، ومن ثمّ يبدو لهم إمكان القول بتكفيره. وهو ما يعني أنّ «التكفير»، في أصله، ناتج عن صراع عميق مداره على اكتساب الشرعية والرغبة في امتلاك الكلام باسم الله، للسيطرة على الشأن الدّيني للمسلمين باسم شرعية يمكن أن تضفيها جماعات الإسلام السياسي والجهادي، على نفسها دون وجه حقّ من جهة الدّين أو العقل.

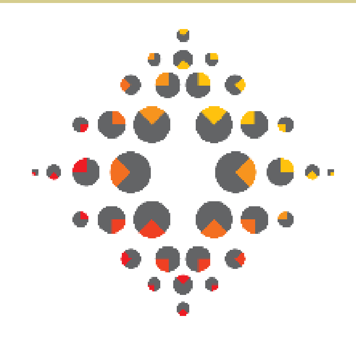
من المعلوم أنّ «التكفير» بعد ثابت في خطاب أغلب الجماعات الدينيّة والفرق الكلامية (مذاهب العقيدة وأصول الدّين) منذ القديم، حيث تمّ الاستناد إلى منطق الفرقة الناجية، انطلاقا من تأويل لحديث منسوب إلى الرسول (ص)، نصّه: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قيل من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي». وقد مضى عبد القاهر البغدادي في كتابه «الفَرق بين الفِرقِ»، يفصّل ويفرّق بين فروع الفرق والمذاهب العقديّة الكلامية، ويطرق أحيانا ما ينجرّ عن ذلك من أحكام فقهية شرعية جزئية، بحثا عمّا يمثّل الثلاث والسبعين فرقة، بأيّ وجه.

لقد قَصَمَ هذا الحديث النبوي المنحول- إذ لم يرد أصلا في الصحيحين، وقيل أُخرج على شروط صحيح مسلم- ظهر الأمّة الإسلامية، وفرّقها شيعا ومذاهب تتناحر باسم شريعة متعالية، ما أدرك أحد كنهها على الوجه الذي أراده الله، فكان منطلقا لدى بعض المذاهب والمتكلّمين باسم الشريعة لإشاعة التكفير بين أفرادها والتناحر بين مذاهبها، ومن ثمّ اعتمد من ضمن دعائم إباحة الاقتتال وسفك الدماء باسم الجهاد، وتحت راية شرعية لم تُثبت بعد وجاهتها بنصّ ثابت أو ببرهان عقليّ بيّن.

وهو ما يدفع أكثر بالنخبة الأكاديمية اليوم إلى مزيد التفكير النقدي في قضايا «التكفير» وتنويع مناهج البحث العلمي في مقاربة مظانّه ودراسة منطلقاته وانعكاساته السلبية التي لم تتعلّق فحسب بالمصير المؤلم لأعلام الفكر والدّين، بل كانت وبالا أعاق تقدّم المعرفة والثقافة، ومن ثمّ عطّل رقيّ الحضارة الإسلاميّة وإعلاء شأن منزلة الإنسان وكرامته.

وهكذا، فاليوم بعدما أحرزته المؤسّسات الأكاديمية من تقدّم معرفي في مجال البحث العلمي في الآداب والعلوم الإنسانية، وقطعها أشواطا مهمّة في الانفتاح على النظريات والمناهج الجديدة في تحليل الخطاب وعلوم النصّ، ونقد الأفكار في ضوء إبستمولوجيا أكثر معقوليّة، ولطبيعة الواقع الذي نعيش، حيث تكاثرت وجوه التكفير والجهاد، يجدر أن تتكثّف جهود الباحثين الجادّين من النخب الأكاديمية التي لا يحرّكها إلّا قصد إدراك المعرفة العلميّة الوجيهة، لأجل نقد خطاب العدم والتكفير الذي عانت منه النخب المثقّفة عبر التاريخ، ومن ثمّ الكشف عمّا يقع وراء راياته من دعوات، لا هدف لها إلّا القتل والإقصاء وتقديس الرأي الواحد ومقالة المذهب الواحد، ومن ثمّ إلغاء ثراء التجربة الفكرية والرّوحية الدّينية التي ميّزت حضارة الإسلام، وجعلتها تدخل التاريخ العام للإنسانية جمعاء، في ما تقدّم، وتنال ضمن مساراته منزلة مهمّة.



## سبل ومسارات فلسفية




يسعى هـذا الكتـاب إلى الإجابة عن سـؤال إشـكالي مركـزي، وهـو: بـأي معـنى يمكـن اعتبـار الفلسـفة نموذجا للفكر المتسم بتنـوع وتعـدد واختـلاف الآراء والمواقف، وأيضـا نموذجـا للثقافـة الديمقراطيـة المدافعـة عـن قيـم الاختـلاف والحـق والتقـدم والتسـامح؟

لمعالجـة هـذه الإشـكالية، حـاول الأكاديمـي والمترجـم المغـربي عزالديـن الخطـابي مؤلـف كتـاب «سـبل ومسـارات فلسـفية»، الصـادر حديثا عـن «دار مؤمنـون بـلا حـدود للنـشر والتوزيـع» بلبنـان، تتبـع سـبل ومسـارات الفلاسـفة (في الفترتـين الحديثـة والمعـاصرة عـلى وجـه الخصـوص)، عـبر عـرض لأبـرز القضايا المهتمة بالقيـم المذكـورة، والمدعمة لثقافة الحـوار القائمـة عـلى فكـر الإنصـات لقـول الآخـر المختلـف، والعمـل عـلى التفاهـم معـه أو الاعـتراض عليـه، في إطـار تبـادل حـر ومتـكافئ للأفـكار.

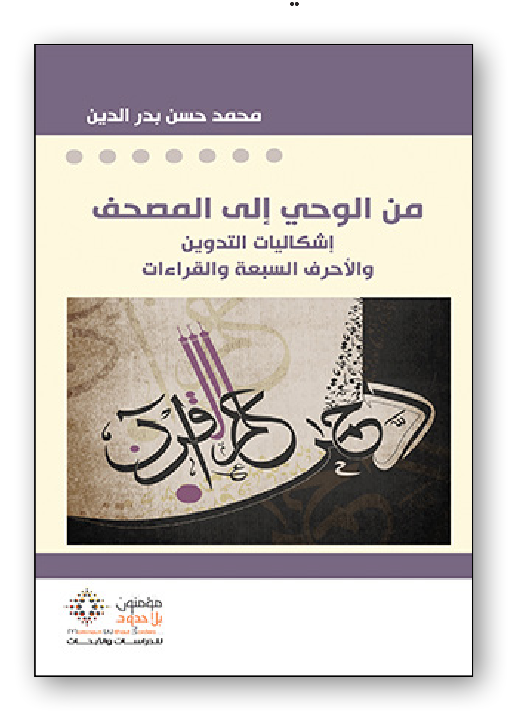
وفي تقديمـه للكتـاب، يوضـح المؤلـف أن الممارسـة الفلسـفية اتخـذت مسـارات متنوعـة وغنيـة، اقترنـت بالمسـاءلة والاستشـكال والنقـد؛ فالتفلسـف كمـا هـو معلـوم، عبـارة عـن ممارسـة فكريـة يقـوم فيهـا العقـل بالتخـلي عـن كل أشـكال الاعتقـاد الدوغمـائي، وبمتابعـة البحـث عـن معـنى وقيمـة الحقائـق، ونقـد كل الأحـكام المسـبقة والمسـلمات الـتي تدّعـي الإطلاقيـة. فمـن

يمكـن للقـارئ أن يتعـرف عـلى تفاصيـل أوفى عـن كل هـذه الإصـدارات وغيرهـا مـن إصـدارات المؤسسـة، بالإضافـة إلى التعـرف عـلى مراكـز البيـع والمكتبـات الـتي تبيـع جميـع إصـدارات المؤسسـة عـبر ربـوع الوطـن العـربي عـبر الولـوج لموقـع مؤسسـة «مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث» الخـاص بالكتـب عـلى الرابـط الرسـمي التـالي:
book.mominoun.com

خلال النقد، تبرز نسبية الحقيقة وقابليتها للتكذيب والتجاوز. ستسمح السبل والمسارات الفلسفية التي تم استحضارها، بإبراز خصوصية التفكير الفلسفي كتفكير تساؤلي ونقدي، وسيكون هذا الاستحضار بمثابة سفر داخل عوالم الفلسفة وعرض لأهم قضاياها، مثل النقد والمساءلة والمنهج والحجاج والبرهان والحق والتقدم إلخ... وما يميز هذا السفر أيضا، هو إبرازه لتصورات جديدة منتقدة لمركزية العقل ولكل النزعات المركزية الأخرى (العرقية والثقافية واللسانية إلخ..)؛ وهي تصورات داعية إلى بناء عقلانيات جديدة، حجاجية وتواصلية وإلى بلورة نقاش نقدي منفتح باستمرار، وإلى تأسيس جديد للفكر الأخلاقي وللفكر السياسي. وقد مكنت هذه التوجهات من الانفتاح على آفاق فكرية خصبة ومتنوعة، ومن طرح أسئلة نقدية يتداخل فيها ما هو معرفي بما هو أخلاقي وسياسي وحقوقي، مثل سؤال الحقيقة وسؤال الأخلاق وسؤال العدالة وسؤال الاختلاف والديمقراطية وحقوق الإنسان.

وعزالدين الخطابي، أكاديمي ومترجم مغربي، أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة بمكناس، شعبة الفلسفة، ومنسق مسلك ماستر الفلسفة والتربية، حاصل على الدكتوراه في الإثنولوجيا من جامعة نيس بفرنسا. عضو بهيئة تحرير مجلات: عالم التربية، وليلي، ودفاتر التربية والتكوين. أصدر العديد من المؤلفات في مجالات التربية والفلسفة والاجتماع، من بينها: «سوسيولوجيا التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي» (٢٠٠١)، و«مسارات الدرس الفلسفي بالمغرب» (٢٠٠٢)، و«أسئلة الحداثة ورهاناتها» (٢٠٠٩). كما قام بترجمة عدة أعمال لمفكرين وفلاسفة، من ضمنها: عن «الحق في الفلسفة» لجاك دريدا (٢٠١٠)، و«المغرب المجهول» لأوغست موليراس، و« المعلم الجاهل» لجاك رانسيير (٢٠١٤).

## من الوحي إلى المصحف






در حديثا عن «دار مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع» في لبنان، كتاب جديد تحت عنوان «من الوحي إلى المصحف: إشكاليات التدوين والأحرف السبعة والقراءات»، للباحث والأكاديمي التونسي محمد حسن بدر الدين.

تقوم فكرة الكتاب، كما جاء في مقدمته، على قاعدة أن نشوء علم الحديث، والأسس التي تكون عليها، هي التي شكلت طبيعة العلوم الإسلامية كلها دون استثناء، بما فيها علوم القرآن، ففلم يفلت من سلطتها أي علم، ولم يخرج عن بوتقتها أي عالم مهما كانت جرأته.

ويضيف الباحث في تقديمه للكتاب، أنه دائما يحصل التغاضي عند الحديث عن القرآن الكريم والعلوم الإسلاميّة المتعلّقة به، مثل التّفسير والقراءات والوجوه والنّظائر، عن الفرق الكبير بين القرآن نفسه، باعتباره تنزيلا من ربّ العالمين، وبين تلك العلوم التي نشأت خادمة له ومتفاعلة معه، ولكنّها ليست معبّرة بالضّرورة عن روحه العامّة، ومقاصده الحيّة، ومراميه الكبرى، بل هي معبّرة أساسا عن فهم بشريّ نسبيّ، محكوم بنظم معرفيّة سائدة، وتقاليد ثقافيّة غالبة.

وقد حاول هذا الكتاب تقصّي طبيعة ذلك الفهم وتلك العلاقة، من خلال ثلاث مسائل فكريّة. تعلّقت الأولى ببنية المصحف وظروف تدوينه، واتّجهت الثّانية إلى تقديم تقصّيات جديدة حول الأحرف السّبعة ومشكلة فهمها. واهتمّت الثّالثة بمشكلة القراءات وظروف نشأتها، وكيف تمّ الرّبط بينها وبين المصحف منذ تكوينه.

يتوزع الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول: الفصل الأول حول مشكلة تدوين النص القرآني، والثاني حول مشكلة الأحرف السبعة، والثالث حول مشكل القراءات.

ومحمد حسن بدر الدين، باحث وأكاديمي تونسي، حاصل على الماجستير والدّكتوراه في العلوم الاسلاميّة ومقارنة الأديان، تونس. نشر عدّة أبحاث ودراسات أدبيّة وتربويّة وفكريّة في مجلاّت ودوريّات عربيّة متنوّعة. من أهمّ منشوراته: «محمّد إقبال وتجديد الثّقافة الإسلاميّة»، و«النظام الوقفي ومقاصد الشّريعة». صدر له عن مؤسّسة «مؤمنون بلا حدود» كتاب بعنوان: «التّفكير الكلامي في بواكيره الأولى».

## الهرمينوطيقا الفلسفية




ينهض كتاب «الهرمينوطيقا الفلسفية وهرمينوطيقا النص الديني عند بول ريكور» للباحث والمترجم المغربي مصطفى العارف، برصد ملامح هرمينوطيقا فلسفية حاول بول ريكور استثمارها، وجعلها أرضية لقراءة النص الديني. وتكمن أهمية هذه الهرمينوطيقا في المناهج الحديثة التي تمدّنا بها من أجل قراءة تأويلية موضوعية – ذاتية للنص الديني، تفك شفراته وتقتحة على عوالمه الخاصة، سواء الداخلية منها أو الخارجية. إن النص الديني لا يحيل على بنيته فقط، بل إنه يحيل على عالم خارجي يريد الاندماج معه. إنه عالم النص الخارجي الذي يكشف عن بنية أخرى غير تلك التي يعبر عنها النص مباشرة.

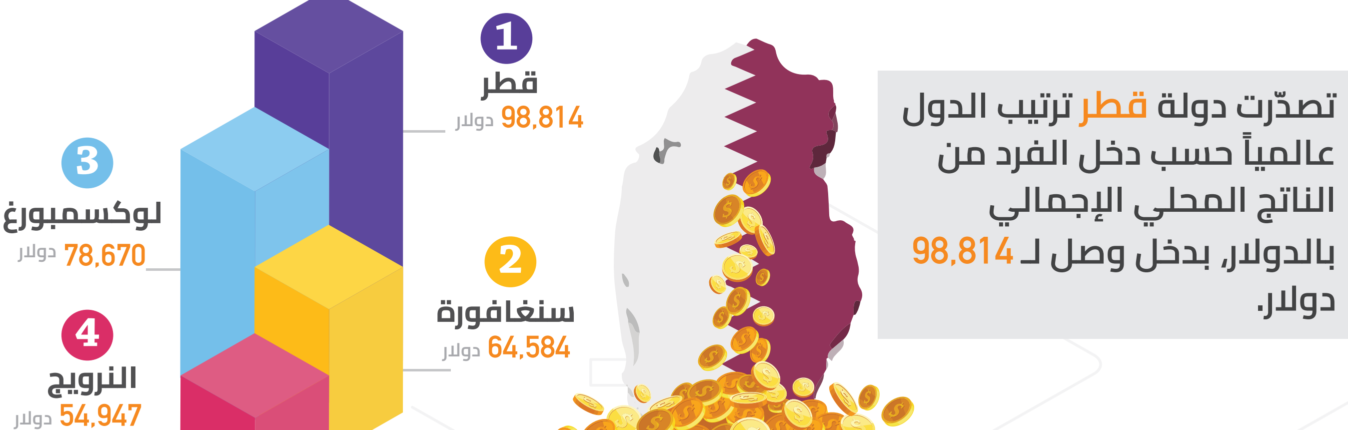
ولهذا، فأهمية هذا الكاتب، الصادر حديثا عن «دار مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع» في لبنان، تكمن في مساهمته في فتح نقاش في الثقافة العربية الإسلامية، التي يمكن اعتبارها ثقافة نص بامتياز، انصب اهتمامها على النص الديني في بعديه الإلهي والنبوي، حول القيمة المضافة التي ستشكلها هرمينوطيقا النص الديني في قراءة النص الإسلامي المقدس، وفك شفراته.



إن كل قـراءة للنـص هـي قـراءات، وكل تأويـل لـه هـو تأويـلات تحيـط بالنـص، ولا مجـال ههنـا للحديـث عـن نـص «أصـلي»، كـون الهرمينوطيقـا تتجـاوز هـذا التوصيـف، فجميـع النصـوص تتجـاوز أشـكالها نحـو عوالـم أخـرى يخلقهـا القـارئ بمعيـة النـص. لهـذا السـبب، يضحـى النـص ملـكا للقـارئ والمـؤول، فمـا أن يخـرج مـن بـين يـدي مؤلفـه حتـى ينـزع عنـه كل ملامحـه الأوليـة، فيتفاعـل مـع الثقافـة والسـياق والتاريـخ، وينتـج معـاني ودلالات جديـدة قـد لا تكـون متضمنـة فيـه. إننـا أمـام فهـم/ إنتـاج لنـص جديـد. لا تركـن الهرمينوطيقـا إلى قـراءة حرفيـة، ولا تدعـي أنهـا تبحـث في ثنايـا النـص، بـل إنهـا تهـدف إلى إعـادة إنتـاج النـص وفقـا لسـيرورته التاريخيـة؛ التفاعـل بـين مـاضي النـص وحـاضره والفجـوة الزمنيـة الفاصلـة بينهمـا. إنهـا فجـوة لا يمكـن ردمهـا كونهـا تكشـف عـن غـنى، لا محيـد عنـه، اكتسـبه النـص.

ومصطفـى العـارف، باحـث ومترجـم مغـربي، حاصـل عـلى الدكتـوراه في الفلسـفة مـن كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية بنمسـيك، جامعـة الحسـن الثـاني، الـدار البيضـاء، في موضـوع: «الهرمينوطيقـا الفلسـفية وهرمينوطيقـا النـص الديـني عنـد بـول ريكـور». نـشر عـدة مقـالات وترجمـات في صحـف ومجـلات عربيـة، وشـارك في عـدة نـدوات علميـة.

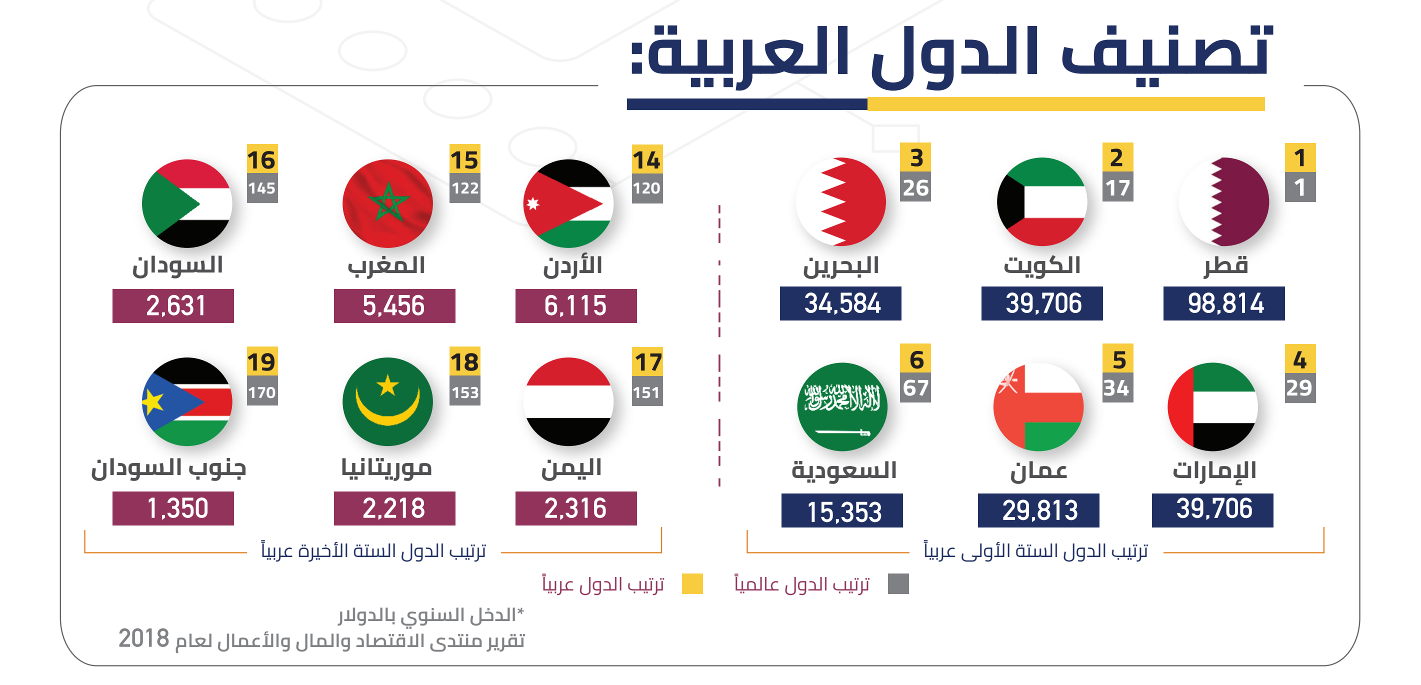



تصدّرت دولة **قطر** ترتيب الدول عالمياً حسب دخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بالدولار، بدخل وصل لـ **98,814** دولار.

جاءت مجموعة كبيرة من **البلدان العربية** في ذيل الترتيب، ومن ضمنها المغرب، الذي احتلّ الرتبة **122** من أصل **187 دولة**، شملها التصنيف.

وتجدر الإشارة إلى أن البنك الدولي، يستخدم مقياساً محددًا للتنمية الاقتصادية، وهو نصيب الفرد من إجمالي الدخل القومي، لغرض ترتيب البلدان وتصنيفها على مدار أكثر من **50** عاما.






## نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي

نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي **Per capita GDP** هو **مقياس لإجمالي** الناتج في البلد. يأخذ الناتج المحلي الإجمالي (GDP) ويقسمه على عدد الأشخاص في البلاد، يعتبر **نصيب الفرد** من الناتج المحلي الإجمالي مفيدًا بشكل خاص عند مقارنة بلد بآخر، لأنه يظهر الأداء النسبي للبلدان، ويشير ارتفاع نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي إلى **نمو في الاقتصاد**، ويميل إلى عكس الزيادة في الإنتاجية.

الناتج المحلي الإجمالي هو أحد المؤشرات الرئيسة للأداء الاقتصادي للبلد. يتم حسابها، إما عن طريق **إضافة الدخل السنوي لجميع المواطنين** في سن العمل أو عن طريق إجمال قيمة جميع السلع والخدمات النهائية المنتجة في البلاد خلال السنة، ويتم استخدام الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد في بعض الأحيان كمؤشر لمستوى المعيشة، مع ارتفاع نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي لمستوى معيشة أعلى.

### مقاييس الإنتاجية

يمكن أيضاً استخدام **الناتج المحلي الإجمالي** للفرد لقياس إنتاجية القوى العاملة في البلد، حيث يقيس إجمالي الإنتاج من السلع والخدمات لكل عضو من القوى العاملة في دولة معينة، ومع ذلك، يقول العديد من الاقتصاديين إن القياس الأفضل لإنتاجية العمال قد يكون الناتج المحلي الإجمالي لكل ساعة عمل، ولا يأخذ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في الاعتبار تأثير التكنولوجيا على ناتج العامل، وإذا كان لدى كل من الدولتين قوة عاملة تمتلك مقياسًا مساويا لنصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، فيبدو أن كلا الدولتين تتمتعان بمستوى معيشي متساوٍ، ومع ذلك، فإن الفحص الإضافي للناتج المحلي الإجمالي لكل ساعة عمل يقدم وجهة نظر مختلفة لكفاءة العمال، وتتمتع البلاد ذات الناتج المحلي الإجمالي المنخفض لكل ساعة بوقت فراغ أكبر.



### أغنى الدول العربية سنة 2018

قطر
الأولى عربيا وعالميا

الإمارات
2 عربيا و8 عالميا

الكويت
3 عربيا و9 عالميا

«مراجعة الإرث...

جدل المساواة ورهان التغيير»



ترقبوا

في العدد القادم